القراءة للجميع
مكتبة الأسرة ٢٠٠٨

سلسلة الأدب

ترابها زعفران

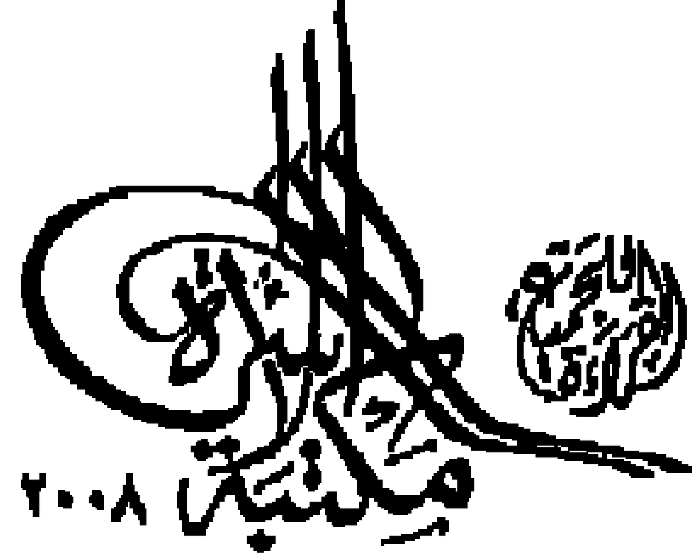
رواية

إدوار الخراط





ترابہا زعفران



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام
د. ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف
د. إيناس حسنى

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
المجلس القومى للشباب
وزارة التنمية الاقتصادية

ترابها زعفران

رواية

إدوار الخراط



ترابها زعفران

لوحة الغلاف من أعمال الفنان : هدايت

منْ مجموعة د. محمد سعيد فارسى

الخراط ، إدوار .

ترابهـــا زعـــفـــران: رواية / إدوار الخـــراط .-

القاهـرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

٢٣٢ ص ؛ ٢٠ سم. (أسرة أدب ٢٠٠٨)

تدمك : ٤ - ٤٣٥ - ٤٢٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ ـ القصص العربية .

أ - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٧٦٧ / ٢٠٠٨

I.S.B.N 978-977-420-435-4

ديوى ٨١٣

توطئة

منذ ثمانية عشر عامًا انطلق مهرجان القراءة للجميع على جناح فكرة أن الكتاب هو عماد المعرفة الرئيسى، والثقافة الرفيعة، وأن الكتاب ينفرد عن غيره من أدوات التثقيف ومصادر المعرفة بقدرته على تنمية الفكر وصنع العقول المستنيرة، وتكوين الشخصيات المتميزة، وفتح آفاق الاستنارة أمام الملايين، والإسهام فى تشكيل وجدان الأمة، وحفظ تراثها، والوصول إلى رؤى مستقبلية لنهضتها.

ولقد حرصت مكتبة الأسرة طوال أعوامها السابقة كرافد رئيسى للمهرجان على تحقيق الهدف النبيل من تأسيسها.. ذلك الهدف الذى تحدد فى طرح العبقرية الإبداعية والفكرية والعلمية للمجتمع المصرى المعاصر، وفتح نوافذ على الفكر والإبداع العالمى، وإقامة جسور بين الحضارات المختلفة، والتعرف على ثراء التاريخ الفرعونى والإسلامى، وأخيرًا تحفيز الأجيال الجديدة على القراءة حتى تصبح عادة، بل ضرورة ملحة تترسخ أهميتها فى الأذهان من خلال كتب عظيمة الفائدة، تباع بأسعار رمزية فى متناول الملايين.

ولأن وصول الكتاب إلى كل مكان فى مصر سيظل حلم السيدة الفاضلة سوزان مبارك، راعية القراءة للجميع. فلقد أعلنت هذا العام مبادرتها الجديدة بإهداء مليون كتاب مجانًا للمجتمع. ولأن مهرجان القراءة للجميع يتخذ شعارًا مختلفًا كل عام يتواءم مع الرسالة التى

يهدف إلى تحقيقها وتنوعها وتطورها عامًا بعد عام، فإن مكتبة الأسرة تتخذ توجهًا عامًا فى اختياراتها للكتب، يستهدف دائمًا تحقيق وعى عام متجدد يطور القوى الاجتماعية، ويقوم على منظومة قيم تتلخص فى تعميق دور العلم والتفكير العلمى، وتعزيز الديمقراطية، والتعددية وترسيخ قيمة المواطنة والانتماء والمشاركة والمسئولية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، وتأكيد قيمة التسامح وثقافة السلام، وترسيخ قيمة دور المرأة، وقيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى والحوار والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وإبراز تواصل الإبداع المصرى. ولقد تم استحداث قيمة جديدة هذا العام هى تعزيز تجليات الوطن وقضاياه، وذلك لمواجهة متغيرات خرائط الصراع المضاد، الذى يسعى إلى التفتيت بإشعال الفتن والانقسامات التى تحول الانتماء الوطنى إلى ولاءات لأعراق وعقائد ومذاهب، وفق تصنيفات قاطعة تعمل على تعبئة الناس وقولبتهم لكى تضعهم فى موقف التضاد بعضهم لبعض على سبيل الاستبعاد والاستعداء للنيل من سيادة الدولة الوطنية، وانتهاك دعمها للمواطنة والديمقراطية والمجتمع المدنى ومشروعية التعايش، ولذا ستظهر تجليات الوطن وقضاياه وتتجسد فى الإبداعات التى ستطرحها مكتبة الأسرة هذا العام.

لقد نهض صرح مكتبة الأسرة على أعمدة المكتبة العربية، وثراء تحفها الإبداعية والفكرية، واكتشاف الأقلام الموهوبة الشابة، فالتف الجميع حوله كواحد من أكبر المشاريع الثقافية فى تاريخ مصر الحديث، نأمل دائمًا أن يحقق أحلامه العظمى، وأن يساهم مساهمة فعلية فى نهضة المجتمع.

مكتبة الأسرة

تقديم

يشكل إدوار الخـراط ظاهـرة إبداعـيـة بذاته، تتـأتى أولاً من ثقـافـتـه الموسوعية المستقاة من روافد عدة، عربية وفرعونية وقبطية وأوروبية، وثانيًا من ارتياده للعديد من الأجناس الأدبية المختلفة، فهو روائى وقاص على درجة كبيرة من التميز والفرادة، فضلاً عن كونه شاعرًا، وناقدًا له إسهامات كبيرة فى تطوير الحساسية الإبداعية فى كافة ألوان الأدب العربى، بالإضافة إلى أنه مترجم نقل إلى الأدب العربى الكثير من عيون الأدب العالمى فى القصة والرواية والشعر والمسرح.

أما الوجه الثالث لهذه الظاهرة يتأتى من سعيه الحثيث نحو التجريب فى كافة الأجناس الأدبية التى يرتادها بقلمه.

وقد استطاع الخراط منذ مجموعته القصصية الأولى «حيطان عالية» ١٩٥٩ أن يخلق لنفسه صوتًا مميزًا، ومستقلاً عن قطبى القصة العربية آنذاك، يوسف إدريس ويوسف الشارونى، منبئًا بأنه ثمَّ مسارات جديدة فى القص لا تزال بكرًا ومسارات أخرى لم تكتشف بعد، ثم جاءت روايته الأولى «رامة والتنين» ١٩٧٩ - التى تعتبر الحلقة الأولى من ثلاثيته الشهيرة التى تلاها «بالزمن الآخر» و«يقين العطش» - ليزيح الستار عن سرد روائى جديد ومغاير للتجارب المحفوظية، يقوم على ما أسماه «الخراط» بالنص المفتوح فى دراسته الشهيرة «الحساسية الجديدة» التى قدم فيها قراءات لنصوص قصصية عربية لبعض كتاب الستينيات والسبعينيات.

هذا السرد الذى يدعو إلى تجربة الانفتاح بين الأجناس الأدبية والفنية المختلفة، كالشعر والقصة والرواية والمسرح والفن التشكيلى والموسيقى

وغيرها، لذلك نرى أن المعمار الروائى لدى الخراط يتخذ طابعًا تآليفيًا بين الأنواع، من حيث البناء الموسيقى المرهف والشاعرية التى تتجلى فى لغة السرد، وبنية الشخصيات التى تبدو كأنما صنعت بإزميل نحات إيطالى قادم من عصر النهضة، فكأن الخراط فى عمله الإبداعى يقيم بانوراما فنية شاملة.

وعلى جانب آخر نجد الخراط مولعًا بالعوالم الميتافيزيقية، ربما يعود ذلك إلى علاقته بالسورياليين المصريين فى الأربعينيات والخمسينيات أمثال چورج حنين ورمسيس يونان وكامل التلمسانى، وهو ما يتجلى فى قصصه ورواياته بصورة واضحة، كأنه قد هضم تراثًا ضخمًا من الخرافات الشعبية، ثم أعاد إنتاجها فى أعمال أدبية رائعة وهو ما يجعل عالم الخراط زاخرًا بالرموز والدلالات المتكئة على ثقافة تحتية تتضافر مع ثقافته الفوقية.

ومن زاوية أخرى نجد أن الخراط واحد من الكتاب المولعين بالإسكندرية، تلك المدينة الغاوية، بطبيعتها الكوزموبوليتانية وتناقضاتها الاجتماعية، وسحرها النابض تحت كل حجر فى شوارعها، فلعل الإسكندرية واحدة من أكثر المدن التى خلدها الأدباء بأقلامهم، فمن الذى ينسى رباعية الإسكندرية لداريل وميرامار نجيب محفوظ وأشعار كفافيس وأنجاريتى وغيرها الكثير.

وقد كتب إدوار الخراط العديد من الروايات عن الإسكندرية منها يا بنات إسكندرية، وسكندريتى، وترابها زعفران، بالإضافة إلى عشرات القصص القصيرة التى كانت الإسكندرية مسرحًا لأحداثها، وفى هذه الرواية «ترابها زعفران» يقدم الخراط جانبًا من طفولته وصباه فى ربوع الإسكندرية فيسرد تفاصيل حياة المجتمع السكندرى بطوائفه العديدة، وطبقاته الاجتماعية المختلفة، فنرى عمال المصانع والميناء والتجار والطلبة والفقراء والأثرياء، إنها إسكندرية الثلاثينيات والأربعينيات، فترة الفوران الثورى إبان الحرب العالمية الثانية، وما صاحبتها من تغيرات اجتماعية حادة عصفت بالكثير من الثوابت، فهذه هى الحياة التى رصدها الخراط فى ترابها زعفران التى تقدمها مكتبة الأسرة ضمن إصداراتها هذا العام عن طبعتها الصادرة عام ١٩٩٩.

- ليست هذه النصوص سيرة ذاتية، ولا شيئًا قريبًا منها. ففيها من شطح الخيال، ومن صنعة الفن ما يشط بها كثيرًا عن ذلك.
- فيها أوهام - أحداث، ورؤى - شخوص، ونُويّات من الوقائع هى أحلام، وسحابات من الذكريات التى كان ينبغى أن تقع ولكنها لم تحدث أبدًا.
- لعلها أن تكون صيرورة، لا سيرة، وليست، فقط، ذاتية.
- هى وجْدٌ، وفقدان، بالمدينة الرخامية، البيضاء - الزرقاء، التى ينسجها القلب باستمرار، ويطفو دائمًا على وجهها المُزبِد المضىء.
- إسكندرية، يا إسكندرية، أنت لست، فقط، لؤلؤة العمر الصلبة فى محارتها غير المفضوضة.
- مع ذلك، أنشودتى إليك ليست إلا غمغمةً وهينمة.

إدوار الخراط

١ ـ السحاب الأبيض الجامح

عدت إلى شارع راغب باشا. كان الكوبرى الصغير مفتوحًا، ومياه ترعة المحمودية تحته حمراء، وكنت أعرف أنها تدور حول قوائم الكوبرى فى دوامات متقلبة. كنت أقف فى أول عربة من عربيات الكارّو الطويلة، قدماى متشبثتان بالخشب، خلف الحصانين القويين بينهما قائم التعريشة الطويلة، أرى الذيول المقوسة مليئة بالشعر الأشقر، والكفلين الدائريين بلونها الأصهب عليهما ندى لامع من العرق، الرأسان بعيدان، محنيان، فى الأمام، أسمع الحمحمة الغضوب المكبوتة بجهد.

من كان إلى جانبى يمسك بالأعنّة؟ وجوه ملىء بالسيطرة والتحكم، لكنى لا أكاد أراه مع ذلك، أعرف فقط أنه إلى جانبى فى نور الصباح تحت سحاب الإسكندرية الوضىء الرقيق الذى ينساب بسرعة فى السماء الصافية.

كنا نقف أمام وابور الدقيق، أحجار جداره العالى باللون الأحمر الكابى، تقطعه شبابيك طويلة عليها قضبان حديدية رفيعة سوداء

من ورائها عتمة الداخل التى تصدر عنها أصوات الماكينات تدقّ دقّات مسدودة الصدى بإصرار.

وكنت أعرف أننى تركت غيط العنب وشارع راغب من زمن بعيد وأننى مع ذلك مازلت هناك.

كانت العربة محملة «بالشوالات» البيضاء، تفوح منها رائحة الدقيق المطحون حديثًا، أمام الباب المكون من ضلفة حديدية واحدة عريضة بعجلات تنزلق على قضيب فى الأرض، وعلى الرصيف ميزان قبانى ضخم ليس على أرضيته المعدنية الرصاصية اللون شىء. ذراعه الطويلة ممدودة ومائلة فى آخرها الصنجة الحديدية مدورة من الجانبين وحافتها العلوية - والسفلية - مقطوعة وحادة.

وكان آخر الحمالين يضع آخر «الشوالات» على آخر العربة. كانوا سُمر الوجوه، صخريين، يرتدون شوالات فارغة، من الخيش، مقصوصة من الجانبين، تبرز منها الأذرع الناحلة المفتولة، عارية حتى الكتف.

كنت أعرف أن الباب يفضى إلى طرقة طويلة مبلطة تقف إلى جانبها الغرابيل الأسطوانية الضخمة، فى الظل، تحت سقف مائل من الحديد المموّج، وأن أشعة الشمس تسقط فى أعمدة مخروطية تتسع إلى أسفل وتقطع العتمة. وتطير داخل هذه المخروطات من النور ذرات الدقيق الدقيقة المتقلّبة لا تنقطع عن الصعود والهبوط والدوران. وإلى اليسار كنت أرى الماكينات والتروس الدائرية الكبيرة والأقماع المفلطحة الفوهات والسيور الجلدية العريضة التى تتوتر

مشدودة ممتدة فى الفراغ حتى تصل إلى الطارات الدوارة فتحتضنها وتدور معها، والمواسير الضخمة فوق الطرقة تربط بين البناء الرئيسى وبين الغرابيل التى تهتز فى عتمة العنبر المستطيل.

كانت أمى ترسلنى إلى الوابور أشترى كيلة الدقيق ونصف كيلة ردّة، من كشك خشبى أخضر اللون من داخل الباب، فيه صعيدى عجوز مكسور الأسنان يضع على رأسه الجاف عمامة وحول رقبته كوفية صوف، صيفًا وشتاءً على السواء. وكان يكيل لى الدقيق والردّة، بجاروف حديدى كبير كلاً منهما فى صندوق خشبى عال مائل الفتحة، ويضعهما فى كيسين من الورق الأصفر الداكن، أحسّ بثقلهما على ذراعىّ، وأنا أحملهما إلى صدرى، وبقليل من الخجل.

ولكن الكوبرى كان مقطوعًا والترام يلفّ القضبان الدائرية ويعود، وعلىّ أن أنتظر حتى يقوم حسين افندى بإغلاقه، فاعبره، وأسير قليلاً فى شارع الترام، وأنعطف يمينًا إلى بيتنا فى شارع الكروم.

وكان يسحرنى دائمًا دوران التروس الحديدية، المعشقة تحت جسم الكوبرى، وانطباق أرضية الكوبرى، إذ تنزلق ببطء حتى تلتقى بأرضية الشارع، بإحكام، لا يبقى بينهما إلا خط دقيق جدًا كالشعرة، أرى منه ماء المحمودية يبرق وينساب بسرعة.

وكانت بائعات الفجل اليانع العريض الورق برءوسه الباهتة والليمون البنزهير والمش فى قِصاعه البنية الصغيرة والبصل الأخضر والكرات المرشوش بالماء، يجلسن على رأس الكوبرى، على

التراب، بملابسهن السوداء، والطرح المغبّرة التى تنتهى بربطة عمامة مربعة على الرأس، ويرضعن أولادهن الذين ينامون وقد انطبقت أفواههم على أثداء مكشوفة متهدلة من شقّ طولىّ فى جانب الجلابية الواسعة.

كنا نسكن فى الدور الثالث من البيت، وأمامنا السطح الذى كانت أمى تربى فيه البط والفراخ، وتربط خروف العيد. وكان للسطح سور قصير أشبّ براسى فوقه لكى أطلّ على حديقة كثيفة مستطيلة الشكل، ضيقة بين بيتنا وحائط البيت المجاور، وفيها نخل ترتفع شواشيه حتى تستند إلى الحائط العالى المقابل، وتحته زرع غامض وأصص ريحان وعتر متزاحمة، وكان للجنينة باب داخلى يفتح على الشقة التحتانية، وليس لها باب على الشارع.

وكان حسين أفندى يسكن فى الشقة التى تحتنا مباشرة، فى أول كاط، وكان أحمر الوجه دائمًا، قصير ومدمك وله كرش صغير، ويلبس الطربوش المكوى على الزاوية الصحيحة دائمًا، ويمسك بعصا من خشب الجوز اللامع ذى العقد. وكنت أراه فى بيتهم أحيانًا بالجلابية البيضاء النظيفة وكان يضحك معى ويعاكسنى، بطيبة قلب، بصوته الأجش المرح.

لم يكن عنده أولاد، وكانت زوجته الست وهيبة صديقة أمى جدًا، وكانت تقول لها أحيانًا إن نبيّهم أوصانا بنا وأن عيسى نبيّنا هو أيضًا رسول من عند الله مثل موسى وإبراهيم، وكان أمى تحلف لها أحيانًا بالمسيح ابن الله الحىّ، وكانتا تضحكان معًا على أشياء لا

اعرفها يقولانها بهمس، وتنتهى زيارتها اليومية لنا بأن تقّبل إحداهما الأخرى، وكنت أستغرب قليلاً لأنهما تضعان الخد بإزاء الخدّ، وتمصمصان بالشفتين تضمانهما على شكل التقبيل تمامًا لكنها ليست قبلة بالفعل.

وسمعت أمى وست وهيبة تتحدثان همسًا عن السكان الجدد الذين جاءوا فى الشقة التحتانية المطلة على الجنينة وسمعت الست وهيبة تقول إن ذلك فى وجهنا ويجب أن نفعل شيئًا.

كانت الشقة التحتانية دائمًا مغلقة الشبابيك، وكنت وأنا أعود من المدرسة أرى الباب مواربًا قليلاً وألمح وراءه حسنية.

كنت أراها، نحيلة، شعرها الحالك مربوط بمدورة بيضاء، وصغيرة الجسم ولا تكبرنى ربما إلا بسنين قليلة، واحس أن فيها شيئًا ما يجذبنى واحبه جدًا.

كانت تجلس على كرسى خيزران أمام مائدة رخامية واسعة القرص عليها مفرش أبيض مخرّم ومشغول، وهى فى قميص نوم واسع عليها وقصير لا يصل إلى ركبتيها، مفتوحة الرجلين تمدهما بتعب واسترخاء. وعندما تحس بى تستدير بوجهها إلىّ من العتمة الخفيفة التى فيها نور خافت كأنه أخضر اللون يأتى من باب الجنينة الداخلىّ، وأنا فى الفسحة الرطبة البلاط بعد الباب الخارجى، أمام الدرجة العريضة الأولى من السلّم أرى عينيها الواسعتين فى وجهها الحادّ المخروطىّ العظم منتفختين ولكن حاجبيها كانا مقوسين ورفيعين جدًا على محجرى العينين.

وكنت أرى أمها الكبيرة فى السن، قوية الجسم وسمينة جدًا تخرج من البيت بعد الظهر، لا تلبس ملاية بل دائمًا بفستان مشجر واحد وفى إحدى ساقيها خلخال غليظ من الفضة يحبك كاحلها المتورم على الشكربينة القماشية ذات الكعب المنخفض.

كانت حسنية، فى الأول، تومىء لى برأسها على سبيل التحية، فأجرى أصعد السلالم ووجهى أحسه ممتلئًا بالدم ولا أعرف إن كنت قد رددت عليها التحية أم هربت.

وفى مرة أشارت إلىّ تدعونى بإصبعها، برفق، فخطوت إليها مترددًا ووقفت خارج باب شقتها، وكانت فى قميصها الواسع القصير، من نسيج حريرى أبيض له وبرة ناعمة ممسوحة من القدم وكثرة اللبس.

قالت لى: تعالى يا حبيبى، تعال. بصوت مبحوح كأنه مدعوك قليلاً.

وقالت: تروح تشترى لى باتنين مليم كراملة من عند حسنى البقال؟

أومأت برأسى موافقًا، وكان ريقى قد جفّ، وجريت بسرعة، ومعى كتب المدرسة، وفى غمضة عين كنت قد عدت، فقامت إلىّ وأعطتنى حبة كراملة برتقالية اللون، سداسية الأضلاع، وعليها وجه «أبو الهول» فتيًا وله لحية، بارزًا ونصف شفاف. وفجأة مدّت ذراعيها الرفيعة وضمّت راسى إليها، ووقع وجهى تحت ثديها الحرّ الذى أحسسته لدنًا ومتماسكًا وصغيرًا وضغطت راسى إلى أضلاع صدرها اليابسة من فوق القميص اللّين النسيج.

وأفلتّ منها، وقلبى يدقّ وأنا أصعد السلّم جريًا.

فقالت أمى ضاحكة منى وهى تفتح الباب: مالك؟ هو أنت شفت عفريت فى عز الظهر ولا ايه؟ ادخل اغسل وشك ادخل..

واحتفظت بالكراملة، لففتها فى ورقة فضة، ووضعتها فى علبة دخان الغزالة الذى كان جدى يصنع منه سجائره اللفّ، وكنت أحتفظ فيها بكنوز طفولتى: عظمة كعب بيضاء، وقوقعة ملفوفة الطبقات من الشاطبى، وخمس بليات رقراقة الألوان كالجواهر المخططة المشللة بالأزرق والأصفر، وزلطة رمادية ناعمة الجسم، وشرائح من فيلم أسود أحبها على صور متعاقبة لتوم ميكس على حصانه لا تكاد تتغيّر مع أنه يجرى. وظللت أحتفظ بقطعة الحلوى حتى بعد أن ذهبت حسنية، وبعد أن بهت لونها البرتقالى وساحت حواف صورة أبى الهول، ثم أكلتها غاضبًا.

كنت أحبها وكنت أيضًا أخاف من شىء ما مكتوم فى همود جسدها الرفيع المهدود.

قالت لى مرة، وهى لا تنظر إلىّ، إنها تسافر فى الليل، وتروح بعيدًا جدًا وأن سفر الليل متعب ولا تطلع له شمس.

وخيل إلىّ أننى فهمت، وأنها ربما تذهب إلى محطة مصر وتقضى الليل مسافرة فى القطار وتعود قبل الصبح. وكنت أصدق هذا وأعرف فى الوقت نفسه أنها لا تترك البيت أبدًا.

وقالت: ربنا يتوب علينا من سفر الليالى.

وكنت فى تلك الأيام أقرأ الكتاب المقدّس الكبير بغلافه الأسود المنقوش بزخرفة بارزة قد بهتت قليلاً، من الجلدة للجلدة، بإصرار الإصحاح بعد الإصحاح. وكنت لا أفهم كثيرًا تعقيدات العهد القديم والأسماء الكثيرة فيه، وأحلم مع نشيد الإنشاد وأبكى كثيرًا عندما أقرأ عن صلب المسيح وكيف تعذب ومات على الصليب من أجلنا .وكان سرّ المسيح يُمضّ قلبى ويحمله عبئًا لا يعرفه أحد.

وكنت أنزل عند ست وهيبة أستلف من عندهم روايات روكامبول وفانتوماس وجرجى زيدان ونقولا رزق الله التى كان يشتريها سى حسنى أخو حسين افندى ويضعها فى سحّارة خشبية صغيرة جنب سريره. وقرأت من عنده رواية سافو فى طبعة كبيرة غلافها رمادى كالح وعليه اسم المؤلف بالمطبعة بالبنط الثلث الطويل القائم العود. وأشعلت الرواية حواسى وازدحم بها خيالى.

كان سى حسين عنده دكان بقاله على قمة الشارع الآخر الذى تطل عليه شرفة بيتنا،وكان طول النهار فى دكانه. وكان طويلاً ووسيمًا وخشن الشعر ولم يكن يكلمنى كثيرًا. كانت ست وهيبة هى التى تعطيني كتبه، وأحيانًا تتركنى أدخل لكى أفتش فى السحارة وأنتقى ما أريد، وهى تقف ورائى بجلابية النوم الخفيفة، ممتلئة الجسد وأنثوية، وصدرها وافر وأسمر وناعم الجلد أراه من فتحة الجلابية، عاليًا عنى، يهتز بثقل واطمئنان.

كان لدخول البيت عندهم، دائمًا، رهبة فى قلبى، إحساس مثير ووجل وسعيد كأنه فيه إثمًا ومتعة، إحساس بالجوّ السرّى الخاص

لبيتهم، وأنهم ينامون ويأكلون ويعيشون معًا، مجهولين، بطريقة لا أعرفها، وعيب أن تعرف ماذا يفعلون، فى ملابسهم التى لا تراها أبدًا خارج البيت، ولما كانوا مسلمين أيضًا فقد كان فى ذلك عنصر آخر من عناصر الستر والرهبة والغموض الجذاب.

كنت ألمح حسين أفندى نائمًا أثناء النهار، على السرير الكبير فى الغرفة الأخرى، تحت غرفة أبى وأمى، استعدادًا لدورية الليل عندما يقوم ليفتح الكوبرى كانت ست وهيبة عندما أدق الباب تفتح الشراعة الزجاجية وترانى وتردّها وتفتح لى الباب وأعرف أنها خارجة من عنده، أنفاسها متسارعة قليلاً ووجهها الطيب مضرج السمرة وهى تسوى شعرها الخشن الوحشىّ الشكل بذراعها الملفوفة فيظهر لى جانب صفير خفى من صدرها بين الإبط والثدى عندما أرفع إليها عينى، وتقول لى: يوه الله يجازى شيطانك يا ميخائيل عايز كتاب تانى؟ هو أنت ما تشبعش روايات؟ تعالى يا حبيبى ادخل. وكانت لها عندئذ رائحة خصيبة ومليئة كرائحة العجين الخمران، فأدخل بسرعة وأنا خجل ومستثار، وأسأل نفسى ترى أين هو شيطانى وكيف هو؟ وأنسى ذلك كله وأنا أقلب فى الكتب، ومازالت رهبة الدخول إلى شقق الغرباء عندى حية حتى الآن، وكأننى أخطو إلى عالم آخر ينذرنى، ويناديني، ويصدنى معًا بما يحمل من خطر.

وفى يوم مسح السلالم كانت أمى تملأ الجردل الحديدى بالماء من حنفية الحمام، وتحمله إلى البسطة وتصبه فيتدفق على درجات

السلم وهو ينزل بصوت التطام متكرر بهيج، ثم تقعى على رجليها تمسحه بالخيشة الداكنة سلّمة سلّمة حتى باب الست وهيبة التى تكون تنظر وهى تضحك وتقول: ياختى حاسبى ياست أم ميخائيل، على مهلك شوية، عينى عليك باردة، ثم تنحنى وهىً ترفع طرف جلبيتها البيتى عن ساقين ممتلئتين سمراوين وهى تنظر إلىّ بخجل أراه غريبًا جدًا، وتكمل المسح حتى الشقة التحتانية، وتتأخر الست أم حسنية كثيرًا فيظل الماء محصورًا فى برك صغيرة عكرة على البلاط، وبعد الغذاء فقط عندما أنزل لشراء حاجة أرى مدخل البيت والبسطة التحتانية تلمع ورطبة.

وكانت ست وهيبة تجلس بعد ذلك، وقد غيرت جلابيتها المبلولة وغسلت شعرها، مع أمى، تثرثران وتشربان القهوة على الكنبة الأسطمبولى المفروشة بملاءة بيضاء متغضّنة على المرتبة القطن المنجدّة، وفى وسطها مخدتان صغيرتان صلبتان جدًا إحادهما فوق الأخرى تميل عليها الست وهيبة بجنبها وهى تتكلم. وأنا أعطيها ظهرى، أذاكر وأعمل تمارين الإنجليزى على مائدتى الرخامية البيضاوية الشكل المفروشة بورق الجرائد، مسنودة إلى الحائط، رصت عليها كتبى المدرسية وكراريسى فى رصتين متساويتين، وبينهما رواية من روايات الجيب مخبأة بعناية وقد نزعت غلافها الملون حتى لا يفضحنى بصورة الغانية الزرقاء المشوقة جدًا يلفهّا رداء عارى الظهر بحمالة واحدة وينسدل الرداء طويلاً متموجًا برشاقة حتى آخر الغلاف من تحت.

كنت أسترق السمع إلى حديثهما الهامس، وأنا أنقل تصاريف الأفعال الإنجليزية، بالريشة ذات السن النحاسية الرفيعة التى تنزل منها فجأة قطرة مدورة من الحبر فتشمع على الورق قبل أن الحقها بالنشافة. وعرفت أن العربجية من الإصطبل التى أمامنا يدخلون الشقة التحتانية بالليل، ويخرجون بعد ساعة أو ساعات، واحدًا بعد الآخر، وأن رائحة الحشيش تعبق فى بير السلم حتى الصبح، وهمست ست وهيبة بصوت أجش قليلاً ومليء بالحرارة: ومش بس العربجية ياختى، دول بيجولهم زباين من القهوة اللى على المحمودية فى أنصاص الليالى، ولا كوم بكير. وكان للكلام الغريب وقع غامض فى نفسى ولم أجرؤ أن أسأل. فقد حدست طبعًا أن فيه مما يحدث بين الرجال والنساء ما يروّع.

كان فى هذه الغرفة «جرامفون» على شكل صندوق مربع، موضوع على «كومودينو» بابين، من الخشب الداكن اللامع وعليه زخرفة نباتية معشقة من الخشب الأصفر، وفوقه البوق الذى تنفتح فوهته وتبدأ دقيقة ثم تتسع حتى تنفرج ضافية الاستدارة. وكان على الأسطوانات السوداء كلب يضع فمه فى بوق آخر يشبه بوق «الجرامفون» الذى عندنا تمامًا، ومكتوب تحته صوت سيده، ويحيرنى أنه ينبح داخل البوق بصوت سيده، ومن سيده؟ بينما كانت الأسطوانة تدور ببطء وقتذاك بصوت سريع رفيع: بيضافون تقدم الأستاذ محمد عبد الوهاب ثم يرتفع صوته الحلو الذى يخشخش بأغنية عن النيل نجاشى حليوه أسمر، ثم تخفت الأغنية حتى ندير المقبض ونملأ «الجرامفون» من جديد.

تنفتح غرفتى هذه على باب شرفة طويلة مقفلة عليها تعريشة خشبية مسقوفة تغطيها من كل الجوانب ولها نافذتان صغيرتان تطلان على الإصطبل الذى تقف فيه بالليل عربتا «حنطور» وأربعة خيول، و أكوام رطبة الشكل زهمة من البرسيم، وعجلات مخلوعة، تحت سقف مائل مقطوع قائم على اربعة أعمدة حجرية قصيرة. للإصطبل بوابة خشبية عريضة وواطئة تفتح على رحبة ترتفع قليلاً واسعة من غير انتظام، بين الإصطبل والبيوت، ثم تخلص إلى حارة ضيقة تعلو أرضها ثم تهبط، أخيرًا إلى شارع الترعة المحمودية. وحافة الترعة العريضة النازلة إلى الماء مزروعة بالجرجير والخس والفجل الذى كنت أشتريه لأمى من فلاح يلبس قميصًا خشنًا كالح الزرقة من غير أكمام، قصير على رجليه العظميتين السوداوين يخرج إلىّ كالعفريت من خص صغير جدًا بناه من الطين والقش تحت جسر الترعة، وكانت يداه كبيرتين وصلبتين وأصابعه قصيرة ومقوسة.

كنت نائمًا على السرير الكبير ذى الأعمدة السوداء فى نهايتها العساكر النحاسية المتخلخلة التى كنت أفكها أحيانًا وألعب بها وأركبها بسرعة قبل أن يعرف احد، وأخواتى البنات نائمات جنبى من ناحية الحائط، عايدة التى كنت أحبها، وهناء الصغيرة.

وعندما أستيقظ فجأة وسط الليل على صوت خبط سريع ملهوف على باب الشقة، كانت لمبة الجاز نمرة خمسة معلقة بالحائط وفتيلتها منخفضة، من وراء بطن زجاجتها الرشيقة تلقى

ظلالاً مهتزة على أركان الغرفة، وسمعت أبى يقوم من السرير فى الغرفة الكبيرة المقابلة، ورأيته يمر فى الفسحة، وهو يلف على نفسه طرفى القفطان الصعيدى المفتوح ويربط حبله المضفور الرفيع حول وسطه، ويسرع إلى الباب، ومن ورائه أمى بجلابية نومها، تحمل «لمبة» الجاز الكبيرة «نمرة عشرة» وتلحق به، حافية على بلاط الفسحة.

كنت قد تيقظت تمامًا الآن، وأنا أرتجف قليلاً من الترقب والخوف والمفاجأة، وأختاى نائمتان جنبى.

سمعت صوت حسنية بالباب، خافتًا وحارًا، متضرعًا:

ـ فى عرضك يا سيدى، اتستر علىّ ربنا ما يفضح لك ولية. خبينى عندك فى عرضك، أبوس رجليك.

وسمعت صوت أبى، أجش من النوم، طيبًا وعذبًا جدًا، بلهجته الصعيدية التى لم يغيرها طول عمره:

ـ باسم الأب والابن والروح الجدس. ادخلى يابنتى، ادخلى. لا حول ولا جوه إلا بالله. مالك يا بنتى، فيه ايه؟

وسمعت حسنية تتوسل، تكاد تجهش:

ـ البوليس، يا عم قلدس، ورايا. غلبانة يا عمى والله، مظلومة، خبينى فى عرضك أبوس رجليك، فى عرضك.

الباب يرد والخطوات مضطربة ومتلاحقة، وأمى تدخل علىّ «باللمبة» الكبيرة. وفى همس سريع، أبى يقول لها: ادخلى يابنتى. ادخلى فى السرير جنب الأولاد. واتغطى. وكأنما يقول لنفسه، أو

يقول لامرأته بصوت خاص به وحده: ربنا أمر بالستر. ربنا يستر على ولايانا.

أما أمى فقد رأيتها فى الظلال والنور المتراوح متنمرة لامعة العينين متوترة وهمست لأبى: الولد! فأغمضت عينى وجمدت. عندما فتحت عينى رأيت حسنية تنزلق بجانبى فى قميصها الأبيض الواسع الذى أعرفه، شعرها مهوش وعيناها واسعتان من الخوف، وكانت حافية. وتقلبت عايدة قليلاً وتنهدت فى نومها. واحتضنتنى حسنية، وأحسست كل جارحة فيها تنتفض كأنها لا تملك أن تردها، وكان جسمها باردًا.

فى الهدوء الليلى الخارجى سمعت وقع سنابك الخيل على الشارع المدكوك بالحجر الأبيض الدقيق والتراب الرملى وضجة أصوات مختلطة. وخبط يأتى على باب الشقة التحتانية، ثم خطوات ثقيلة وسريعة تعلو على السلم، وباب شقة وهيبة يفتح، وطرقات ملحة عنيفة على بابنا. لم أستطع أن أقاوم، فقفزت من السرير، بجلابيتى البيضاء الحرير، ولكنى شددت الملاءة وغطيتها، وجريت إلى الباب.

وعندما فتح أبى الباب اندفع إلى داخل الشقة كونستابل فارع الطول بملابس الركوب، والحزام الجلدى السميك والبنطلون الضيق، شاهرًا فى يده إلى الأمام المسدس الحكومى جسيمًا ومنتصبًا وشريرًا، ووراءه مخبران بالأحذية الميرى الثقيلة والبالطو الإفرنجى على الجلابية البلدى، وعصا الجوز الغليظة المقوسة اليد.

وعندما رأى الكونستابل أبى، نحيلاً وقائم العود وفيه كبرياء الصعيدى، رافع الراس، وأمى من ورائه واضح أنها تيقظت على الفور من النوم، وأنا، تردد لحظة، ثم توقف متحيراً قليلاً وقال:

- لا مؤاخذة يابا. لا مؤاخذة. ماحدش دخل عندكم دلوقتى؟

قال أبى بثبات، هادئ الصوت:

- حد مين يابنى فى الساعة دى؟ خير.. إيه الحكاية؟

صرخت أختى هناء الصغيرة فى نومها صرخة كبيرة فجرت أمى إليها ومعها اللمبة وتركتنا فى العتمة المضطربة، مع البوليس.

قال الكونستابل وقد بدأ يحس أنه سخيف ومقتحم:

- أبداً أنا بس قلبى عليكم يا عمى. انتو ناس طيبين. لا مؤاخذة جاتنا إخبارية لا مؤاخذة. اقفلوا الباب عليكم. تصبحوا على خير.

سمعتهم ينزلون ببطء وسمعت الحصان الميرى فى الليل تتباعد دقات سنابكه على شارعنا.

قال لها أبى: انزلى يا بنتى خلاص. ربنا يهديك وينور لك سكتك، أنزلى ربنا معاك.

كانت تبكى من غير دموع وتشهق بجفاف، محنية الرأس واندفعت تخطف يد أبى تبوسها بسرعة كالملسوع وهو يقول بصوت خفيض متتابع النبرات: سامحنى يا رب سامحنى يا رب سامحنى يا رب.

وكنت أطل عليها وهى تنزل السلم، ورأيت ست وهيبة تنظر إليها من خلف الباب الموارب الذى يلقى على بسطة السلم خطًا مرتعشًا من النور.

وأنا أرجع للسرير رأيت أبى فى غرفة نومه، يرسم الصليب على وجهه، ويصلى.

وفى الصبح لم نجد أثرًا لحسنية ولا لأمها التى قالت الست وهيبة إنها لم تكن أمها ولا حاجة. كانوا قد لموا عزالهم فى عربة كارو وتركوا الشارع وكنت أفكر فيها وأشتاق إليها.

وعندما عرفت أن البوليس لم يدخل شقة الست وهيبة، ولم يسألها عن شىء سطع لذهنى همسها لأمى، وفهمت، وكنت لا أريد أن أراها.

ودون أن أحس كانت العربة قد انتسفت من الأرض وانطلقت يجرها الحصانان الغاضبان بفتوة وعرامة الجموح، وأنا أسمع فرقعات العجلات الخشبية المكسوة بطبقة رقيقة من الصاج على أحجار البازلت السوداء، وكانت حسنية مرمية تحت سنابك الخيل الحديدية التى تطأ عظام صدرها وعيناها مسددتان إلىّ من الأرض، صلبتين وينسكب منهما حنان صامت لا أريده. وينفجر دق العجلات والحوافر متلاحقة، والعربة الكارو المحملة بشوالات الدقيق تدور، تعلو وتهبط، ولا تتوقف، تعود مرة ثانية أمام باب وابور الدقيق الضخم، وتدور أمام الكوبرى المفتوح، وقد سقطت إلى الخلف على المقعد الخشبى، وأتشبث بيدى بجانب العربة ليس

بجانبى أحد، ولا يتوقف جموح العربة ولكنه لا ينفلت بل هو محكوم.

وكنت أرى نفسى عندئذ والآن فى حضيض وهدة الأشواق تتطلق بى الأحلام الوحشية التى لها وجه خيول الذكريات، ضجيجها يكاد يطؤنى.

وفى عتمة آخر العمر التى استضاءت فجأة بالحب الزاخر القابض الفسيح كنت أعرف أننى أعتنق أيضًا وهيبة وأتنسم عجينة أنوثتها. وكان هناك فى داخل لدونة جسدها الخصب، حسنية المقهورة الحنون، وكان شعرها القصير الخشن حيًا تحت أصابعى، وكنت أحوط عليها بذراعين دقت فيهما المسامير، مطعون الجنب بالحرية يتقطر منى دم نزر.

٢ ـ بار صغير فى باب الكراستة

مـازلت أذرع شـوارع غـيط الـعـنب، كـمـا كـنت أعـرفـهـا وأنـا فى مدرسـة النيل الابتدائية، واسعة، نظيفة، مستقيمة، أرضها من الحجـر المدكوك الملتصق به تـراب رمـلى جاف، والشـجـر على الأرصفة أمام البيوت المنخفضة، وفيها رائحة الملاحة الرطبة تأتى من وراء سور السكة الحديد.

شـارع «الترامواى» وحده كان مكسوًا بالأسفلت الأسود الصقيل تشقه قضبان الترام اللامعة الجديدة، وكنا نسير، أنا وأمى، أمام مطعم الفول الذى كنا نسميه التركى، وكان فسيحًا ومبلطًا ببلاط أبيض وأسود، وبابه ذو المصراعين الزجاجيين اللذين يبرقان، عريض جدًا، ووراءه مباشرة بجانب المنصة الرخامية الطويلة، قدرة الفول النحاسية الهائلة. وكان يعلق صورة الملك فؤاد جامد الوجه ببدلة التشريفة والشارب والنياشين، وبجانبها صورة الملكة نازلى وعلى شعرها المرفوع فى شكل هالة صلبة مرتفعة تاج نصفى صغير وعلى الجدران الأخرى صور تلمع من تحت إطاراتها الزجاجية،

فيها سبع يرفع سيفًا، وأبونا آدم وأمنا حواء، مطرودين من الجنة، عاريين إلا من ورقة التوت، والحية ملفوفة بنظام هندسى حول الشجرة والخليل إبراهيم يرفع سكينًا ليذبح ابنه إسحاق بينما الخروف واقف والملاك نازل من السماء، ألوانها زرقاء وخضراء يانعة وخطوطها رفيعة مسطحة، وكنت أذهب إليه أشترى باثنين مليم فول فى السلطانية الغويطة، ويغرف لى بمغرفته الطويلة البيضاء من قلب القدرة، وعندما أقول «اتوص» يضيف غرفة صغيرة أخرى وهو يبتسم لى من أعلى، من تحت شاربيه البيضاوين المصفرين، وعيناه النافذتان الغائرتان تبتسمان لى أيضًا من عمق وجهه الصخرى العظام الشاهق البياض، وفوقه صورة أتاتورك بالقلبق الفرو الداكن والنظرة الصارمة. وكذلك الموائد الخشبية، عند التركى، داكنة و مرصوصة فى المحل بنظام، وقد دعكت فى الخشب طبقة من اللمعان المشقق من كثرة المسح، من غير مفارش.

وكنت أعرف أن اليوم هو ١١ بؤونة، وأن غدًا هو عيد الملاك ميخائيل. وكنا نذهب، أنا وأمى، لنشترى زيت السيرج الذى ستصنع به فطير الملاك. وكانت السيرجة بعيدة علىّ، فى شارع جانبى ناحية غريال، لم أكن لوحدى، أستطيع أن أذهب إليها.

وكانت أمى تخرج أيضًا بالملابس الإفرنجى، ولكنها هذه المرة كعادتها فى مشاوير غيط العنب، لبست ملاءتها السوداء الناعمة النسيج، لفتها على نفسها بإحكام ورشاقة، والبرقع الخفيف الأسود المخرم وعليه القصبة الذهبية المدورة عليها خطوط عرضية بارزة

فوق الأنف، وكانت بيضاء الوجه من وراء شبكة البرقع الهفهاف، وتقاطيعها عذبة، وأنا أمشى بجوارها، تمسك بيدى بقوة، وتسير على حذائها المرتفع الكعب، وكنت أحسها جميلة جدًا فى الشوارع الجانبية الهادئة التى يظللها الشجر، وكنت أنا ألبس جلابية فاتحة الزرقة عليها خطوط طولية حريرية داكنة الزرقة، وحذاءً أسود جديدًا متين الجلد والشراب القصير عليه حلقة «أستك» عريضة بيضاء ماسكة بشدة على منتصف رجلى.

كان الصبح غير حار، والبيوت حوالينا من دور أو دورين، بعضها له جنائن فيها تعريشات العنب الذى مازال بعناقيده الصغيرة الملتم بعضها إلى بعض بحصرم دقيق ومدبب صلب الخضرة.

حودنا إلى حارة ضيقة، ورأيت أن الأرض مبللة ببقع سوداء داكنة مندناة على التراب أمام «السيرجة»، ونزلنا درجتين من الحجر تعجنت عليهما طبقة غير مستوية من التراب وعقدت. واشتدت قبضة أمى على يدى حتى لا أنزلق.

انفسحت أمامى رحبة معتمة عالية السقف، وفيها أعمدة مبنية من الحجر الخشن العارى، مربعة الأضلاع، وعلى الحائط شوالات الخيش المكتنزة بالسمسم، مرصوصًا بعضها فوق بعض، ولدنة الانبعاجات، وفغمتنى رائحة الزيت المعصور اللزجة النفاذة، ولها عبق حلو سكرى قليلاً، وكان هناك بغل عريض الكفلين، مغمى العينين، واقفًا مدكوك الجسم، بجانب عجلة المعصرة الخشبية السوداء الضخمة التى لا تتحرك الآن.

ورأيت أننى قد انزلقت بى السلالم، وكنت أتدحرج فى العتمة وحدى، لا أحس احتكاكًا بشىء ولا يخدشنى شىء، وأنا مازلت أهوى وكأننى أطير إلى أسفل، وبلا وزن، والبغل المربوط إلى حجر المعصرة الضخم يدور في العمق تحتى، من بعيد، وتتزايد سرعته، كأنما يحلق فى دورانه، من غير صوت، وسرعة دورانه أكبر وأكبر، حتى أصبحت العتمة نورًا صافيًا غريبًا ليس من هذه الأرض.

وهناك أيضًا رصّة صفائح بيضاء عالية تومض فى العتمة رقيقة الجوانب كأننى أحس الزيت المعبأ فيها يترقرق تحت الصفيح الناعم الساكن الذى لا يكاد يتذبذب من ضغط السائل المحبوس فى داخله.

وفى آخر هذه الساحة السفلية المعتمة سرنا حتى وصلنا إلى مائدة خشبية غليظة الأرجل عليها دفاتر حسابات ضخمة كعوبها الدائرية بالجلد الأسود السميك، ورصة أوراق الفواتير، ومحبرة عريضة من الزجاج الكثيف المريد فيها ثلاث عيون مدورة إحداها مليئة بالحبر الأزرق وعلى سطحه غشاوة خفيفة من التراب، والثانية فارغة وفيها دبابيس وأسنان الريَش، والثالثة فيها طبقة مترسبة وعليها سائل الحبر الأحمر، وريشتان من الخشب الأسود لهما أسنان مفلطحة تنتهى بذؤابات رفيعة ملوثة بالحبر.

نهض من وراء المائدة رَجُلٌ طويل نحيل الوجه، يلبس عمامة صعيدية رقيقة من القماش دخانية اللون، وقفطانه مفتوح الرقبة تنتهى أكمامه باتساع كبير على معصميه الرقيقين وأصابعه الطويلة، وقال: يا أهلاً وسهلاً شرفت ياست سوسن نورت السيرجة اتفضلى.

كل سنة وانتم طيبين،وهو يخرج منديلاً كبيرًا من جيب قفطانه، مربع النقوش، ويمسح به بقوة المقعد القش المحدب قليلاً فى الكرسى الوحيد الموضوع أمام المائدة، وأمى تقول له، بصوت بارد وكأن فيه عدم تصديق: وأنت طيب، كتر خيرك يا معلم عوض، وازى المحروس إسكندر؟

جلست أمى على الكرسى بحذر، وانحسرت ملاءتها عن فستانها الذى كان بلون سمنى ليس ضيقًا ولا واسعًا بل فقط موحٍ وأنثوى، ووقفت وعيناى معلقتان بالحيوان الواقف جنب المعصرة ركينًا وقريبًا من الأرض، وخطمه يعمل بإصرار في مخلاة التبن الذى تناثرت أعواد جافة منه على الأرض الغمقة الموحلة قليلاً بالزيت.

قال المعلم عوض: بخير يا ست سوسن بخير، نشكر الرب.. إسكندر.. يا واد يا اسكندر، تعال سلم على خالتك أم ميخائيل.

وجاء من جوف «السيرجة» ولد فى مثل سنى، محروق الوجه وجاف، على جلابيته بقع حائلة، وسلم على أمى بغضب وصمت، ولم ينظر إلى، وجرى راجعًا إلى ما وراء الأعمدة الثقيلة المربعة.

وكان فى أركان «السيرجة» رجال نائمون على «شوالات» فارغة على الأرض أو مستندون بظهورهم إلى أكوام «شوالات» السمسم المليئة، وتصدر عنهم أصوات غطيطٍ خفيف أو أنين خافت مكتوم، وفهمت بقليل من الرعب، أنهم لابد قد سهروا طوال الليل يحملون ويعتلون ويعصرون حتى الفجر.

كانت صفيحة «السيرج» الصغيرة ثقيلة مع ذلك فى يدى والحلقة المستطيلة التى أحملها منها، مصنوعة من معدن مدور رفيع، تهدد بالانخلاع وتحز فى باطن أصابعى وتحرقها قليلاً، وقالت أمى ونحن فى طريق العودة: تقيلة عليك يا ميخائيل؟ فقلت بشجاعة: لا أبدًا، وأنا أغالب وجع الحز فى أصابعى والخَدَر فى ذراعى لأننى فرحان بعيد رئيس الملائكة الذى كنت منذورًا له، وكنت أعرف أنه هو الذى دحرج الحجر الضخم عن فتحة قبر المسيح القائم من بين الأموات.

وفى البيت كانت أمى تصب «السيرج» من الصفيحة إلى طشت أبيض صغير لتصفيه من عكارة السمسم الدقيقة العالقة به، وكان الزيت ثقيلاً ولونه أصفر عجيب الصفاء وله قوام شفاف متموج ومتماسك.

وفى الليل قامت أمى تُقّرص فطير الملاك فى الشرفة الواسعة العالية المطلة على الشارع الناعم، وتضغط على كل قرص بالخشبة المدورة الممسوحة بالسيرج، التى عليها خطوط غائرة خشنة الحدود تعطى صورة الملاك يحمل الميزان وحوله فروع نباتات دائرية، وكلمات بالقبطية عرفت أخيرًا أنها يسوع المسيح ابن الله وفوقها الصليب القبطى المورق الأطراف. ورأيت القمر مستديرًا كامل الفضة كأنه باب القلب المفتوح فى السماء.

وفى الصبح أعطانى أبى عيديّتى، أنا وحدى، حتة بخمسة، فضية جديدة عليها طغراء باسم السلطان حسين، وقبلنى على

جبهتى ونزل للشغل، وبعد أن رجعنا من الكنيسة قالت أمى إننا سنذهب لخالى حنا نسلم عليهم ونعطيهم فطير الملاك، وخرجنا حتى شارع «الترامواى» وكانت هناك أمام الكراكون ثلاث أربع عربات حنطور واقفة، وساومت أمى العربجى حتى وافق على ثلاثة صاغ وكان يلف راسه بشال مخطط وملون ووجه أعجف مخدد وفيه ترفع، ويكح بشدة من وقت إلى آخر، وكنت محبطًا قليلاً لأننى لا أستطيع، هذه المرة، أن أركب بجانب العربجى، وراء الحصان من فوق، لأننى كنت أحمل بين ذراعىْ أقراص الفطير، ملفوفة بورق من مجلة قديمة وعليها فوطة بيضاء، وكنت أحس بالفطير، من وراء الورق والقماش هشًا سريعًا إلى الانكسار، وأحرص ألا يصطدم بشىء، وكان العربجى يسابق ترام محرم بك وهو يقرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان الذى له لون «الكونياك» الفاتح الذى يشربه أبى، و كانت عجلات العربة تقرقع على قضبان الترام التى تومض فى الشمس.

ودخلت العربة إلى شارع الرصّافة، وكانت الأشجار ظليلة فى الصبح والشمس تهتزّ من بين أوراقها التى لها رقرقة سريعة الموج وجافة فى الهواء الرطب. ثم حودت العربة إلى شارع جانبى ترابى ولكنه واسع، وفيه خرابات مسورة بالحجر الأبيض الكبير المكسر الضلوع وفى الحجر خطوط متعرجة داكنة اللون، وفيه بيوت كالسرايات لها أسوار حديدية تتهدل عليها أغصان كثيفة وتهبّ منها رائحة الياسمين البلدى العبقة ورائحة الأرض المبلولة.

نزلنا أمام سور البيت. وكانت أمى تلبس فستانها السمنى اللون من غير ملاءة، وتضع قبعة صغيرة من القماش «البيج» الفاتح وعليه عنقود صغير مرتب بمكر، من حبوب الكريز الاصطناعية وزهور قاتمة حمراء على أغصان رقيقة جدًا خضراء، مشبوكة كلها بالقبعة بدبوس مذهّب فى غاية الدقة.

كان الباب الذى وقفنا أمامه ضيقًا وعاليًا ومصنوعًا من الحديد المشغول الصدئ، ودفعناه من غير أن ندق عليه فانفتح، ببطء، عن ممرٍ عرضى ضيق يحيط بالبيت، مزروع. وكانت هناك وراء الباب، مباشرة من الداخل، حنفية ماء غليظة الفوهة قائمة على عمود رفيع قصير، ينزل منها سلسال أبيض مزيد مستمر تكونت تحته بركة صغيرة موحلة.

وصعدنا ثلاث درجات حجرية إلى باب البيت المقفل المصنوع من الخشب البنى السميك وعليه كرانيش طولية وعرضية ومثلثات بارزة من الخشب نفسه وله نافذة من الزجاج المحبب غير الشفاف تفتح من الداخل، وكان فى الجنينة العرضية الضيقة بين السور الحجرى وحائط البيت ثلاث نخلات طويلة، تنبثق ملاصقة الجذور، وتنفرع جذورها الخشنة المضلعة الحواف ثابتة فى انشعابها، مائلة متباعدة بعضها عن بعض وسعفها العالى يهتز فى الهواء بعيدًا فوق سطح البيت المنخفض الطويل.

فتحت لنا الباب أولجا بنت خالى حنا، وكانت طويلة وبيضاء وجاحظة العينين، وتلبس جلابية فلاحى من قماش مشجر، وانحنت

علىّ وقبلتنى بفمها الواسع وأسنانها البارزة الموحية بطيب القلب، واحسست بثقل ثدييها بصلابة، على وجهى وهى تميل علىّ بشفتيها الكبيرتين، ونشقت منها ريحًا حريفة غامضة، وكنت أتعجب، عندما سارت أمامنا ونحن ندخل البيت، من أن عجيزتها مدورة وملفوفة وليس لها جانبان مشقوقان بل هى كتلة واحدة مكورة. وكانت كبيرة السن وأمى تقول عنها إن عندها ثلاثين سنة وأكثر وإنها عنست يا حرام.

وكان البيت معتمًا وفيه رائحة رائحة عطن مترب خفيف من السجاجيد المفروشة والأثاث الخشبى الثقيل الذى لا يرى الشمس، وعلى جانبى الفسحة الطويلة التى دخلناها أبواب غرف متقابلة مقفلة تنسدل عليها ستائر من القطيفة الداكنة الحمراء الحائلة اللون، كل ستارة منها مفتوحة إلى جانبين مرفوعين ومثبتين بمقابض نحاسية لامعة على عارضى الباب، ولهما شراشيب كثيرة الخيوط من نفس لون الستارة، وعلى الحيطان الملساء المدهونة بالزيت، الداكنة الصفرة، صور قديمة بيضاوية، باللون البنى «السيبيا» الفاتح، فى إطارات بيضاوية أيضًا لرجال بطرابيش تركية قصيرة وياقات صلبة منشاة وشوارب كثيفة مستدقة الأطراف، وفى سقف الفسحة نجفة كبيرة مطفأة ورائحة خاصة هى رائحة العزّ الرثّ القديم المختبئ الذى لا نعرفه فى بيتنا أمام «وابور» الدقيق فى غيط العنب، بحجراته المتقاطعة المفتوحة الأبواب دائمًا، والمنيرة بضوء الشمس، التى نسكنها نحن وأخوالى وزوجاتهم وجدّى وجدتى كلهم معنا، ولا نحس بالزحمة ولا الضيق بل الحياة فى براح.

خرج إلينا من إحدى الغرف الداخلية حنّا بيه خال أمى الذى قالت لى إنه موظف كبير قد الدنيا فى الحكومة وأنه عضو أيضًا فى المجلس الملى. كان عجوزًا قائم العود نحيلاً، خشبى الحركة، يتوكأ على عصا أبنوس رفيعة وصلبة، فى جلباب أبيض ناصع له ياقة عالية يابسة ملفوفة حول عنقه الرفيع المتهدل الجلد كعنق ديك، وله عينان غائرتان فى محجريهما متألقتان بسواد ضيق اللمعان، كان فيهما نوع آخر من الحياة الحادة، وعندما مدَّ إلىَّ يده أحسست ببرودة العظام الجافة وخشونة الجلد القديم، وقال لى مباشر: إنت كويس فى المدرسة يا ولد؟ وكنت لا أحبه ولا أكرهه ولا أحس أنه يهمنى فى شىء وكأنه بالفعل ميت من الآن ولا ضرورة له، وكنت أعرف أنه غنّى جدًا وبخيل جلدة وأن له أرضًا فى الطرانة قرية أمى، تعيش على ريعها أختاه العجوزتان جدًا اللتان لم أعرفهما إلا بعد ذلك بسنين فى أيام الحرب فقالت أمى: اسم الصليب عليه بيطلع الأول فى الفصل، فزام حنا بيه من وراء شفتيه المضمومتين الذابلتين كأنهما ورقة شجر صفراء تحت شاربه الأبيض المصفّر من الدخان، ونظر إلى أمى دون قبول، نظرة اتهام خفية بل إدانة، كأنه لا يصدق، فأحسست بالغضب، ليس لى، بل لها.

كانت أمى قد انقطعت عن صناعة فطير الملاك منذ الحرب، والغلاء، وشح السمسم، ونسيت كل شىء عنه، تقريبًا. ودخلت جامعة فاروق الأول ومات أبى فى ليلة باردة جدًا من ديسمبر، فى أثناء الحرب، وحصلت على «مجانية فقر» أو «مجانية كارثة» كما كانت تسمى، لكى أكمل دراستى فى كلية الهندسة، واشتغلت، مع

دراستى، فى مخازن البحرية البريطانية فى كفر عشرى، مساعدًا لأمين المخزن، وكنت أذهب إلى المخزن وأمر بالحارس اليونانى الذى يقف على الباب الحديدى الضخم الجرار، وأنا أعلق شارة معدنية سوداء مكتوبًا عليها بالإنجليزية «الجلاء» على «جاكتتى» الزرقاء الطويلة وقد اشترتها لى أمى من الملابس المستعملة التى أرسلها الأمريكان كمعونة والتى لم يكن عندى غيرها، وأخلعها وأعلقها على مسمار بحيث تظهر الشارة واضحة للعيان، وألبس القميص الأبيض و «الشورت» البحارى من عهدة المخزن، وكنت أرسم علامة المنجل والمطرقة عليها رقم ٤ بالإنجليزية والهلال بنجومه الثلاثة على الحاجز الخشبى الرقيق الذى يفصل بين الركن الذى فيه مائدة من الصاج هى مكتبى، وبين مكتب المستر لى، أمين المخزن الذى جاء من جنوب لندن وكان يعمل فى مخازن البحرية البريطانية من قبل الحرب. وكان مكتبه أنيقًا وله واجهة زجاجية من عمل الأسطى مرسى البحار الذى يشتغل معنا. وكان مستر لى، من وراء نظارته السميكة المدورة، ووجهه المكتنز المحمر، والشرايين الدقيقة على انفه، وهو يلبس أيضًا «الشورت» البحارى الأبيض على كرشه الصغير المدور، يقول لى خسارة أن مصريًا شابًا ذكيًا يدرس الهندسة ويمكن أن ينفع نفسه وبلاده يضيع وقته فى السياسة، ويقول لى إننى سأعقل بعد أن أحصل على درجتى الجامعية. وانخرطت فى مظاهرات ١٩٤٦ وشهدت اعتصام الطلبة وحصار الجيش لربوة العباسية فى محرم بك بدباباته الصغيرة الصفراء ذات المدافع الرقيقة، أراها من فوق، كأنها لعب.

وانتهت الحرب وأغلقت مخازن البحرية البريطانية فى كفر عشرى وذهب الإنجليز بعضهم إلى بلاده وبعضهم إلى ثكنات قنال السويس وتخرجت من كلية الهندسة وقضيت سنة ونصفًا أبحث عن عمل وأعطى دروسًا فى الحساب والرياضة لتلاميذ الابتدائى والثانوى وأترجم وثائق الكيمياء والميكانيكا لمكتب لبراءات الاختراع يملكه مالطى يهودى عجوز قصير متين الجسم يتكلم بالإنجليزية بلهجة الملايطة بصوت عال أجش من جوفه، ووجدت نفسى فى قلب الحركة الثورية التى كانت تجيش بها البلاد.

كان اسكندر عوض قد واعدنى باللقاء فى بار «الكراستة» فى الرابعة والنصف بعد الظهر. كنت قد رأيته يسير إلى جانبى، ويهتف بحرارة «الموت للإنجليز».. «يسقط الاستعمار» فى مظاهرة شارع سعيد الكبيرة التى رأيت فيها صبيًا يموت برصاص «التومى جن» ويحمله الناس وهو ميت على الأكتاف. وجاء إلىّ فى القهوة الصغيرة التى جلست فيها أشهق وأشرب كوب ماء، وعرفنى بنفسه وقال إنه وطنى ويحب الوطنيين وكان يخيل إلى أننى أعرفه بشكل ما ولكنى لم أتذكر أبدًا. وكان يكتب شعرًا ثوريًا ساذجًا باللغة العامية، فيه أصداء من بيرم التونسى وحسين شفيق المصرى وأبو بثينة معًا، عن غلب ومجدعة أولاد البلد، ويشتغل عند أرمنى يملك «فابريكة بصطرمة» صغيرة فى كوم الناضورة. وعندما كنت أذهب للقائه فى المحل المظلم الذى تدور فيه «مكنة» عتيقة ذات سكين حادة ضخمة دوارة أى كتل «البصطرمة» النيئة المدورة معلقة على الحبال كالغسيل تجف وتسوى فى الهواء والشمس على التل الترابى

القليل الارتفاع، فوق سقف المحل الداخل فى الريوة، والأعلام الملونة وكرة كبيرة سوداء معلقة فى أعلى كوم الناضورة. وكنت أكلمه عن حركة الوطن ودور الطبقة العاملة وعن القيمة وفائض العمل وعن ثورة أكتوبر وثورة سنة ١٩١٩ وعلاقة الأدب بالثورة. وكان فى مثل سنى وقال إنه لم يكمل دراسته فى مدرسة النيل الثانوية بغيط العنب لأن أباه كان عنده «فابريكة» صغيرة فى غيط العنب وأفلس ومات. ومع ذلك لم أتذكر.

أخذت ترام «الوديان»، وكانت عربة «الترام» تتأرجح قليلاً فى اندفاعها. و كان شارع السبع بنات خاليًا تقريبًا من حر الظهر، ورطوبة البحر تأتى إلىَّ من نافذة الترام المفتوحة، ونزلت بعد كركون اللبان بمحطتين. وكان الشارع مرصوفًا بأحجار البازلت السوداء المحدبة قليلاً وعلى جانبه مخازن الخشب والقطن العالية الحيطان، والورش الصغيرة، ومخازن الخيش والبصل، وعربات الكارو الطويلة واقفة تحت الجدران المصمتة الخشنة القوية الحجر، وكانت رائحة الفحم ونفايات البحر، خفيفة وجافة قليلاً، تأتى من ناحية الميناء تحملها بلولة الهواء.

ولمحت البار فى منعطف داخل شارع جانبى، اللافتة الخشبية على بابه مازالت حروفها الإنجليزية «بطاطس وسمك» مقروءة وإن كانت مطموسة تحت بقع مضطربة بالطلاء الأسود الذى لطخها به الطلبة الوطنيون بلا شك وقد أقلع جنود الحرب الذين كانوا يملأون هذه النواحى بعربدة اليأس والقهر والموت.

دفعت الباب الخشبى القصير المكون من ضلفتين متحركتين وتستطيع أن تطل من فوقه على داخل البار الهادئ النور، والمرايا على الحوائط مرسومة بإعلانات فيها زجاجة «كونياك أوتار» كأنها مجسمة داخل المرآة، وخلفها كتابة بالذهبى الباهت على أرضية سوداء مشققة، والمرايا المقابلة تتراسل بزجاجة «الأوزو» و «براندى جناكليس» و «ويسكى الحصان الأبيض» وكان البلاط الأسود الذى يكسو أرض «البار» باهتًا قليلاً والموائد الخشبية المربعة مصفوفة تحت الحائطين القريبين أحدهما من الآخر، ومنصة «البار» مغلقة بشبكة نازلة من الحديد، فى نهاية المحل، وبجانبها باب خلفى صغير.

كان اسكندر عوض قد قال لى إن البوليس لا يمكن أن يشتبه فى اجتماع ينعقد فى بار صغير فى باب الكراستة، وقال لى إنه سيحضر معه ملاحظ عمال من رصيف الفحم وإنه ولد «مجدع» ومثقف أيضًا، وإن الحركة يجب أن تكون موجودة فى عمال الميناء، وإننى لو أحضرت معى شيئًا، بيانات مثلاً أو مجلات أو كتبًا، ليقرأها الزميل الجديد ويقول عما فيها للعمال الآخرين فى الميناء يكون هذا شيئًا عظيمًا ويدفع الحركة إلى الأمام، وشدد علىّ فى هذا، وكنت مع ذلك أتوخى معه الحذر الكامل وقواعد الأمان ولا أتحدث معه إلا بكلام عام وأحرص الا اشير اسم محدد أو مكان معروف أو أى ميعاد لأى نشاط، ولم أقل له حتى عن اسمى وكان يعرفنى باسم مستعار.

وعندما دخلت رأيته فى عتمة آخر البار ومعه امرأة.

كان وجهه الطويل المتهضم لامع السمرة تقريبًا فى نور الظهر الكابى.

وكان الجو فى البار الخاوى منعشًا ببرودة خفيفة من البلاط والظل الرطيب بعد شمس الشارع.

قام اسكندر عوض يسلم علىّ، وقال لها: الباشمهندس يوسف اللى كلمتك عنه. وهو يومئ إليها برأسه، ثم همس إلىّ: زيزى، ما تخافش، هى عارفة، ومعانا بكل قلبها وحياة المسيح.

مدت إلىّ يدها وهى جالسة، من فوق المائدة، بين زجاجتى البيرة «الاستيلا» وأكواب البيرة الطويلة المكتوب عليها بالإنجليزية «زوتوس» وأحسست يدها رخوة وباردة وليس فيها عصب، كأنها سمكة بأصابع طويلة تنتهى «بالمانيكير» الأحمر القانى، وكانت تلبس فستانًا ناعمًا بلا أكمام وفتحة تحت الذراعين واسعة تكشف جانبًا من صدرها، ولمحت الزغب الأصفر الخفيف الهش جدًا ذراعها الممدودة إلىّ فى النور الخفيف.

قالت، مباشرة، فى هجوم جنسى واضح ومستقر وطيب القلب، من أول وهلة:

- أهلاً بالباشمهندس الحليوة الصغير بتاعنا، اتفضل اتفضل يا حبيبى...

وأحسست الدم يملأ وجهى ويطنّ فى أذنى ولكننى قررت أن هذه التحية ليس فيها ما يضير بكرامتى وأن البنت على العكس

تتحبب إلىّ، ففمغمت بكلمات مدغمة، وانفجرت هى فجأة بضحكة صافية وبريئة وليس فيها أدنى شبهة من مهنتها.

كان هناك جزء صغير جدًا بارز إلى الأمام من شفتها العليا الرقيقة، يظلل أسنانها الصغيرة البيضاء، وشفتها السفلى مليئة، على العكس، ونازلة تعطى وجهها إيحاء شهويًا صريحًا، لكن شفتيها كانتا بريئتين تمامًا مع ذلك، وبلونهما الطبيعى ليس عليهما طلاء، وشممت عطرها الجاف الرقيق عندما مدّت ذراعها إلىّ، وكان وجهها يقول إنها صحت من النوم متأخرة جدًا، عيناها منتفختان قليلاً وفيهما نظرة ثقيلة، ويوحى بأنوثة كثيفة وحنو كثيف.

وقال إسكندر عوض: تشرب ايه يا باشمهندس؟

وصفق وبرز من عتمة آخر البار «جرسون» يونانى عجوز وتحرك برشاقة وخفة، يضع فوطة بيضاء على كتفه فوق «الجاكتة الأسموكن» السوداء، وبنطلونه ضيق وطويل مخطط، وجهه مخدد نظيف التجاعيد وعيناه مدفونتان. وكنت «بيوريتانيا» جدًا فى تلك الأيام، لا أدخن ولا أشرب إلا نادرًا، ولا أعرف النسوان، ولكنى على سبيل التحدى، طلبت براندى، وفى ثانية كان «الجرسون» اليونانى يضع أمامى الكأس المفلطحة العريضة وثلثها يترقرق بالسائل الأصهب الثمين الشكل.

قلت له ماذا حدث؟ ولماذا لم يأت صاحبنا؟ فقال إنه لابد سيأتى حالاً، وهل أحضرت معك الورق والأشياء؟ فلم أرد عليه، واقتربت زيزى منى بوجهها الأبيض المثقل وحاجبيها المقوسين الرفيعين جدًا

وسألتنى، متوددة، أين أشتغل؟ ومن أين أنا فى الإسكندرية، ورددت عليها بكلام عام، وكان صدرها المحبوك المستدير مستندًا إلى المائدة متكورًا فى داخل الفستان الخفيف الذى يكشف عن قميص داخلى أسود له شرايط من الدانتيلا يلم الصدر الوافر الذى يبدو دسمًا ومتحفظًا وبكرًا وفيه تأكيد خفيف للمرأة لا للأنثى. وكنت قلقًا وغير مستريح هى تتحدث عن الأحوال والشغل الذى أصبح خفيفًا ولا يساوى التعب والبهدلة، وأحسست ساقها من تحت المائدة تمس ساقى وكان «البراندى» قد نزل حرًا إلى قلبى وأحسست بالصلابة والتوّتر الحميم بين ساقى، ثم قامت فجأة، ودارت حول المائدة ورفع إسكندر وجهه إليها مندهشًا متسائلاً، ومدت إلىّ يدها وقالت بهدوء: تعالى معى.

ودارت بى خواطر مفاجئة، وتجسمت فى ذهنى ثم اختفت على الفور صور مخطوفة من سافو دوديه، ونانا زولا، وغادة الكاميليا، وغرفة زيزى التى تخيلتها علوية على سلالم من وراء الباب الخلفى الصغير، وستائرها خفيفة شفافة تطل على البحر وعلى باب القلب المفتوح وهوس الجنس وعربدته، ومناعم الجسد كما رأيتها، أول مرة، فى الراقصة البلدى، عارية، وأنا فى الثانية عشرة، فى فرح بجوار بيتنا فى محرم بيك. وارتعبت من احتمال الإصابة بمرض سرّى، وفكرت أننى لا أحتمل أجرة العلاج، ونفيت ذلك كله عن نفسى ولم أكد أخطو مع أول خطوة، وكأنما حدست ما بنفسى فابتسمت لى عن أسنانها الصغيرة بغموض وغواية، فهل كانت غرارتى وعنف براءتى هى ما أغواها؟

ولكننى كنت صاحيًا جدًا مع ذلك، وأنا أقوم معها، والتفتت هى إلى إسكندر عوض بحسم، وقالت: ايه يا إسكندر؟ وأنت مالك؟ خليك أنت هنا يا نور عينى. وكانت يدى فى يدها وهى تخرج من الباب الخلفى الصغير خلف البار، ونزلنا درجتين حجرتين زلقتين من البلل وعشيت عيناى قليلاً من بهرة نور بعد الظهر، ووجدت أننى معها فى طرقة مبلطة بين حائطين عاليين، وصفائح «الزبالة» وصناديق «البيرة» المليئة بالزجاجات الفارغة إلى جانب الحائط، وكانت الشمس تنزل ساخنة بين الحائطين المسدودين، وباب حديدى أسود صغير مكتوب عليه بالأبيض GENTS بالإنجليزية، ممسوحة وفوقها صورة بيضاء لرأس عليه خوذة عسكرية مدورة نظرت إلىّ وأنا واقف متحيرًا فى الطرقة وقالت، غاضبة وحارّة بهمس خشن.

- أمش من هنا، يالله روح من غير ما تسأل، إمش يالله يا حبيبى إمش.

ولكننى أحسست فمها على خدى، فجأة، فى قبلة خاطفة ملحة، ودفعتنى بيدها، برفق، وأقفلت الباب عليها. وسطع فى ذهنى على الفور أننى نجوت من الكمين ولم أتذكر الملاك ميخائيل.

ووجدت نفسى أنهج قليلاً من المشى الجاد السريع، فى الترام العائد إلى المنشية، وعرفت معنى الأمن بين الناس الصامتين، ولم أر إسكندر عوض بعد ذلك أبدًا، وبعدها بكثير تذكرت مرة واحدة، وعرفت أن الخيانة، والنقاوة، لهما طرق خفية.

كنت قد نزلت من الترام، وكنت أصعد على صقالة خشبية بها حزوز بارزة اثبت بها قدمى، إلى المركب الصغير المربوط بالرصيف يتأرجح قليلاً على المياه المخضرة الثقيلة القوام التى تطفو عليها، وسط زبد ابيض كرغوة الصابون غير النظيفة، عكارة، وأوراق خضراوات ذابلة، وقطع خشب عليها بقع زفت سوداء، حول جنزير الهلب الساقط فى العمق الداكن، تبرق فى موجه نقط حادة من شمس بعد الظهر، وكأن زملائى من مدرسة النيل الابتدائية قد ابتعدوا عنى جدًا ولكنى أسمع صوت أقدامهم تصعد السلالم الضيقة إلى سطح المركب، وضحكهم ولغطهم ونداءاتهم، وأعرف أن ذلك كان من زمن بعيد. وكان المركب خاليًا تمامًا، وفجأة، وأنا أجرى فى ممرات تفتح على ممرات مفتوحة وفيها نوافذ زجاجية مدورة ترى منها أمواج البحر الزرقاء العالية وجوانب البواخر الشاهقة ومداخنها العريضة وأبراجها الثابتة، ومازلت أجرى وأمد أمامى سلالم خشبية عالية تصعد إلى ما لا نهاية، لا أصل إلى سطح المركب أبدًا، وكانت جدران المركب الداخلية بلون بنى فاتح جدًا يكاد يكون أصفر، ولامعة مصقولة تومض، وأنا أجرى، بلا وزن، على السلالم التى تصعد معى بلا نهاية، وأسأل نفسى من غير دهشة، إلى اين تنتهى السلالم فى هذا المركب الصغير الذى كنت أظن أننى سأقطعه، طولاً وعرضًا، فى دقائق، ولا أنهج ولا أحس ثقلاً ولا ضعفًا.

وأنا أجرى الآن فى ممر طويل، على سطح المركب، خشبه مبلول داكن اللون من الماء الذى تشربه وينفث رائحة ملح البحر، وصرخات

النوارس تحوم حولى ثاقبة وجائعة، تصعد وتحوم وتهبط على الموج الراكد حول خشب المركب الواقف، وأنا أطل عليه فجأة من حاجز حديدى طويل.

وتنقض علىَّ نورسة سوداء، صدرها صلب ومدور ومكتنز، وفى منقارها الطويل الجارح رائحة أعشاب البحر الجادة، وهى تنظر إلىَّ بعينين حانيتين فيهما حكم علىَّ بالقتل.

٣ ـ الموت على البحر

أرى الولد، صغير الجسم، ساقاه رفيعتان فى «الشورت» الأبيض الواسع وقميصه مفتوح. عيناه كأنما فيهما نظرة متأملة، مبكرة كثيرًا عن سنه، وهو يقف فى أول الصبح على حافة البحر الموحش، عند «المندرة».

أمامه صفحة ساكنة وشاسعة، مشعة ولا تكاد تترقرق، دسامة بيضاء فى الضوء الذى يكاد يكون شتويًا، تنتهى برغوة شفافة تغوص فى الرمل بوشيش خفيض، متكرر.

أحس، عبر السنين الطويلة، بالنداوة اللينة تحت قدميه الحافيتين، والهواء المبلول على وجهه.

وأجد أن الشوق، مثل نزوع الموج، يرتمى على الشط ممدود اليدين، بلا تحقق، مثل اندفاع الماء، مستنفذا بعد رحلة طويلة على ثبج العمر، ينكص محسورًا أبدا إلى عرض اليم العميق، ولايفتأ يعلو وينحسر، حلمه يأتى ويعود، لا يهدأ إلى راحة، وكأنه لم يترك خط النهاية المتعرج، لحظة واحدة.

فى تلك الساعة لم يكن هناك غيره على الشاطئ الواسع.

وعلى مسافة كبيرة داخل هذا الامتداد الساكن المتسايل تحت سماء خفيفة اللون، كنقطتين، أراهما، لا تكادان تتحركان، أعرف انهما أبى وأمى وحدهما فى البعد الفسيح، وأريد أن يرجعا، بسرعة، إلىَّ.

يصل الموج الطفيف إلى قدمى، ويترك غشاء فضيًا رقيقًا لا يكاد جف، وهو يلمع، حتى يبتل من جديد بزبد يتقطع ويذوب.

فى تلك السنة استأجرنا «كابينة» فى مصيف أصدقاء الكتاب المقدس فى «المندرة» وكان للمصيف سور منخفض من الطوب الأحمر حول أرض واسعة ناعمة الرمل. وكنت أحب أن ألعب تحت النخل العجوز العفى الخشن الخراشيف، بين «الكباين» الخشبية المتناثرة من غير نظام، وأن أنظر إلى عناقيد البلح الأخضر المدور تقريبًا بغضارته الكثيفة تحت السعف العريض وهو يهتز بأطرافه الشوكية المسننة على زرقة السماء التى تكاد تكون بيضاء. وكانت الفراخ تجرى وتنق وتلقط أكلها من الرمل تحت النخل وحول الكباين ونقفل الباب الخشبى فى السور، عندما نجرى وراءها، أنا وأمى، لنمسك واحدة، وتذبحها أمى بالسكين الحادة التى تومض فى الشمس، وهى تقول « باسم الصليب وشارة الصليب كاك كاك إلهى يصبرك على مابلاك»، ثم ترمى الفرخة على الرمل تصفى دمها وهى تجرى قليلاً ثم تسقط وأجنحتها تتخبط بجسمها.

وكنت أعد الأيام لأننى سأدخل المدرسة الثانوية بعد هذا المصيف مباشرة، وأفرح بكل يوم جديد، وكنت أستوحش مع ذلك إلى أخواتى البنات عايدة وهناء ولويزة التى كبرت الآن وتمشى فى البيت على رجليها غير الثابتتين وتصرخ وتقول بضع كلمات، تركناهن فى بيتنا فى غيط العنب مع جدتى أماليا وخالتى وديدة وخالتى سارة وأخوالى.

وكان أبى يأخذ حمام الصبح مع أمى، مبكرًا جدًا قبل القهوة، هو «بالمايوه» الأسود الطويل كـ «الفانلة» وجسمه كالعود مشدود وله عضلات جافة ونحيلة وهى «بالمايوه» القماش، الغامق الزرقة، مقفل تماما،له أكمام قصيرة مكشكشة عند أعلى الذراعين وينزل إلى الركبتين، وكانت قد فصلته وخيطته بنفسها على «الماكينة السينجر» القديمة الرفيعة البطن التى بهتت الكتابة الذهبية عليها، قليلاً.

وأجرى معهما، وانا لما أكد أصحو من النوم، بـ «الشورت» الأبيض والقميص الخفيف، نعبر «الكورنيش» اللامع السواد من أمام المصيف مباشرة، هواء البحر البارد بعد كن «الكابينة» ودفئها يصدم وجهى، والسيارات قليلة جدا فى هذه الساعة، وننزل إلى الرمل الواسع المتحدر، وليس فيه ولا شمسية، وأقف على حافة الماء وأنتظرهما حتى يعودا من البحر وعلى ذراعى الفوط الطويلة الكثيفة الوبرة.

وتخرج أمى من البحر، ناصعة ومضيئة وناعمة، وشعرها القصير المقصوص مبلول يقطر بالماء، ويلحق بها أبى، قائم العود،

ينظر إليها بحب وطيبة، بعينيه الثاقبتين العميقتين فى وجهه الحاد العظام. ويلتفان بالفوط، ونرجع جريًا إلى «الكابينة».

وفى الدفء الذى يأتى من خشب الكابينة «المغلق، يغيران، ونقعد لنفطر على الطبلية المنخفضة، وبعد الفطور نتربع على الكليم الأسيوطى، ويصنع أبى قهوته السادة بنفسه، على «السبرتاية» الصغيرة بلهبها الأزرق يتراقص تحت الكنكة، ويحكى لنا حكايات عن أيام شبابه عندما كان صرافا فى الصعيد يطوف القرى حول إخميم على حماره الميرى، ليجمع ضريبة الحكومة من الفلاحين، وكان يضع تحت لسانه فتفوته مكورة لدنة القوام يكحتها بعود كبريت من عجين أسود لزج، فى علبة صفيح مبططة صغيرة، ثم يذهب فيأخذ «الأوتوبيس» إلى شغله ولا يعود إلا على العشاء.

وأكون أنا قد أكلت من زمان، وأكاد أسقط فى النوم، ولكنى انتظره وجسمى هادئ وثقيل بهذا التعب الحلو الذى يأتى من اللعب والجرى على البحر طوال النهار، بينما هو يتعشى على الطبلية المحملة بالعيش البلدى الطازج وورك الفرخة والجبنة الرومى والبيض المسلوق مقشرًا ومقطوعًا إلى شقين قد عصر عليهما الليمون، ويشرب على العشاء، كل ليلة، ويصب لى كأسًا صغيرة من خمسينية «الكونياك» الصهباء اللون، أحس طعمها لاذعًا وممتعًا، وأنا على مشارف النوم، وهو يحكى مع أمى.

كان خالى ناثان يسوق «الأوتوبيس» الأخضر، بهيكله المربع، على الكورنيش بين أول سيدى بشر والمندرة، وكنت بعد الفطور مباشرة

ألبس «المايوه» الضيق الذى يحبك على وقد صنعته لى خالتى وديدة من الصوف التريكو الأحمر، تحت «الشورت» القطيفة الأسود الذى بحمالات فيها زراير بيضاء كبيرة، وأدس تحته القميص الحرير اليابانى، وأخرج جريًا من «الكابينة» وأمى تقول لى: «خل بالك من الأوتومبيلات وأنت بتعدى بص يمين وشمال وهى مشغولة أمام «وابور» الجاز تطبخ للغداء، فى «الكابينة» المعتمة قليلاً.

واعبر الكورنيش، بعد أن أنتظر، واجف القلب، حتى يخلو من السيارات القليلة، وأثب إلى رصيف البحر، وأمشى قليلا إلى محطة الأتوبيس، فإذا جاء وقف لى حتى ولو لم يكن فى المحطة غيرى، فأصعد الدرجة الحديدية التى كنت أجدها عالية قليلاً، ويشير إلى خالى ناثان بوجهه الصغير الأسمر المدور وعينيه الضيقتين الحانيتين اللتين يمتلئ الجلد حولهما بالتجاعيد عندما يبتسم، وأجلس بجانبه على كرسى صغير ليس له ظهر وكان هذا الحيز الضيق بجانب الباب فى مقدمة السيارة الكبيرة، دائمًا، دافئًا بسخونة المحرك وفيه رائحة بنزين، وتسحرنى شارات منصة القيادة المسطحة وعقاربها الصغيرة المضيئة بنور أحمر.

وفى أول سيدى بشر يقف لى خالى، من غير محطة، فأنزل، واعبر الكورنيش مرة أخرى، متلفتًا عن يمين وعن يسار، وأذهب إلى «لوكاندة رانة» حيث ينزل بقطر ابن عمتى كل سنة. وحتى بعد أن أستأجر أخوه، رفلة أفندى، «كابينة» فى المندرة قريبة جدًا من مصيف أصدقاء الكتاب المقدس، استمر بقطر ابن عمتى ينزل فى

هـذه اللوكانـدة، ولم تـكن أمهـما عمتى تمـامًـا، بل بنت عم أبى، وكانا ينـاديـان أبى يـا خـال، ويـقـولان لأمـى يـا مـرات خـالـى، وكـانت هـذه القرابة تحيرنى وتغوينى.

وكان بقطـر ابن عمتى يـأتى من إخميم يقضى شهـر سبتمبر كل سنة فى سيدى بشر، بعد جمع محصول البصل وتشوينه، وكان فى عنفـوانه، لم يتزوج بـعـد، وطـويلاً فـارعًـا، داكن الـسـمـرة، فـى وجهه المستقيم الخطوط وسامة ورجولة كاملة، وله ضحكة بصوت أجش متملك.

وعندما أدخل من باب «اللوكاندة» أحس على الفور بنفح البلل والعتمة الهادئة بعد نور البحر الصافى. الأرض المبلطة، من غير سجاد، رطبة وعليها ماء قليل، وفى المدخل كله رائحة عامة وحميمة فى الوقت نفسه، وكانت صاحبة «اللوكاندة» مدورة الوجه، رائقة السمرة، ممتلئة قليلا، تجلس وراء المنصة الدائرية فى المدخل، وعندما ترانى أدخل ترحب بى بصوت ناعم أحسه يدغدغ فى اهتزازًا داخليًا، أهلا ياغنن ياحبيبى تعال، تعال عندى هى الرجالة برضو ينكسفوا، وتعزم على بالشيكولاته، دائمًا، كل مرة، فأرفض، وأتأبى، دائمًا، كل مرة حتى تغرينى بأن آخذها بصوتها هذا الدسم الكسول، وهى تجذبنى قليلاً إليها، وتضع ذراعها الرخصة العارية على كتفى وتضمنى قليلا إليها وتنظر إلى، مأفوف، بعينيها الواسعتين اللتين تهتز خضرتهما الداكنة وتسيل بحنو أنثوى يملأ قلبى، ثم تقول فجأة: اطلع بقى قريبك مستنيك فوق، واللا عايزنا

نطلعو معاك؟ فأهز رأسى وأجرى أصعد السلالم إلى غرفة بقطر ابن عمتى فى الدور الثالث.

وعندما أطرق باب غرفته، وأدخل دون أنتظر الإذن، أجده ينتظرنى، عادة، وقد لبس «المايوه الفانلة» الطويلة الذى يشبه «مايوه» أبى بحمالات عريضة وفتحة عالية تصل إلى تحت الرقبة بقليل، فيضع البرنس المخطط على كتفيه ويأخذ فوطة معه وننزل معًا وعندما نعبر الردهة، أمام صاحبة «اللوكاندة» كان وجهه فيه دائما نظرة غائبة متحفظة، وكانت هى لا تنظر إلى ولا تحيينى.

ويمسك بيدى لنعبر الكورنيش، وننزل السلالم القليلة، ونسير حتى البقعة الفسيحة عند شاطئ الطاحونة، أخلع «الشورت» والقميص وأرميهما، مع الفوطة والبرنس على الرمل، وألعب عند حافة البحر حتى يصل الماء إلى أعلى صدرى ولا أدخل كثيرًا. وكان ابن عمتى بقطر هو الوحيد الذى أحس بالأمان معه فى البحر، كان يسبح إلى الداخل ثم يعود إلَّى . يتوغل فى البحر من جديد ويعود. وكنت ألعب وحدى، بينما هو فى البحر، على الرمل المبلل الذى يخبطه الموج وينحسر عنه، أصنع قوالب من الرمل الطرى المتماسك، مصنوعة فى علبة كبريت فارغة، وأحفر حفرة ضيقة أجهد فى تعميقها حتى يملأها الماء، يخرج أخيرًا، شامخ الطول، ليسيل الماء على جسمه، فيتلفف بالبرنس وأجفف نفسى بفوطته السميكة التى سخنت الآن والبس. ويذهب هو إلى «اللوكاندة»، أما أنا فأسير إلى المحطة، حتى يأتى أتوبيس خالى ناثان، فأعود معه

وأنا خفيف الخطو متوهج الجسم من الشمس والبحر واللعب فى الماء والرمل.

وفى مرة تأخرت، عندما دخلت ««اللوكاندة» فزعت فزعًا غامضًا لأننى لم أجدها فى الردهة، وراء المنصة. واندفعت، كأننى مروع، إلى غرفة بقطر ابن عمتى، وفتحتها على الفور، فوجدتها أمامى، وهى تعتدل واقفة جنب السرير المهوش الفرش، وتزرر الزر الأعلى من «الروب» الخفيف الذى يترك ذراعيها المليئتين عاريتين متفجرتين بالبضاضة، وهى تسويه على فخذيها السمراوين المتجسدتين وراءه، فحدست أنها تلبسه على اللحم، وكان ثدياها بدورانهما المكتنز يهتزان تحت النسيج اللدن، والجزء الذى يبدو من الفتحة الواسعة يلتمع بالعرق، وشعرها الخشن مهوش قليلاً ومندى على جبينها، وضحكت وأنا أندفع داخلاً ثم أتجمد مرة واحدة ، ضحكة خافتة، وكان صوتها ناعمًا وليس فيه أدنى حرج وهى تقول: «يوه .. هو أنت؟ يقطعنى وأنت داخل كده زى الساروخ. طب تعال، تعال هنا يا حبيبى».

وأدخلت يدها فى جيب الروب وبحثت قليلاً ثم قالت: «أهى.. الشيكولاتة بتاعتك.. خد..» ولكننى رفضت تماما، هذه المرة، وأطرقت برأسى فى عناد ففهمت، ولم تصر، ولم تضحك، قاومت البكاء بشجاعة، وهى تجذبنى من يدى، وتجلسنى جنبها على السرير، وأطلعتها، وأحسست لحمها الحار من وراء «الروب» المشقوق من الوسط تمامًا على صدرها ومنتصف بطنها وبين ساقيها، ومزرر بأزرار مستديرة كبيرة من الصدف الأبيض الذى

يومض. وكان جسمها باذخًا ومبذولاً، وأحسست بغموض أنها تراهن به فى لعبة خطرة، وخفت عليها، ونشقت رائحتها الخفية وكان وجهى يضطرم، ولم أبك بل كنت غاضبًا. أما بقطر ابن عمتى فقد كان نصف راقد نصف جالس على السرير، بالجلابية «البوبلين» البيضاء الناصعة ياقتها الصلبة الدائرية مفتوحة على صدره العريض، ونظر إلى بابتسام وقال لى بصوته الأجش قليلا: «يوه يابن خالى.. عوجْت لغاية دلوجيتى جلنا ما جاييش عاد. مالك داخل كريان ومزعول؟ أجعد أجعد خد نفسك لما ألبس». وقال للسيدة التى معه بلهجة من لا يريد أن يخفى شيئًا، وبصوت فيه بساطة التملك ونهائيته: «ناولينى الكوستيم من الدولاب «فأعطته له ودخل الحمام يغير ملابسه وجاء وشيش البحر، فجأة، فى الصمت الذى حل فى الغرفة، مع أصوات عجلات السيارات تكشط الأسفلت، وترنم بائع المنجة، يتغنى معايا تيمور.. هندى ألفونس، واحتكاك عجلات الترام بالقضبان فى المحطة القريبة.

مازلت أرى الولد يذهب إلى فراشه غير المألوف فى «كابينة» المندرة، مرتبة مفرودة على الأرض ومغطاة بملاءة سرير، ويغوص تحت «الكبرتاية» القطنية البيضاء المشغولة بنقوش أزهار وأوراق مطبوعة من نفس القماش ونفس اللون، بارزة وغائرة فيه، تعطيه دغدغة مترفة للجسم، وأعرف معه فرحة المنقضى بيومه على البحر، وترسبات اليوم فى قلبه، وخوفه من مفازع الليل وأحلامه المضطربة.

هل كان خاله ناثان أم خاله يونان هو الذى كان قد حكى عن صدقى باشا والعمل فى عنابر السكة الحديد؟ أم هو الذى كان قد قرأ عن الحكاية عندما دخل تحت سرير خاله يونان وزوجة خاله إستر التى كان يحبها، فى بيتهم فى غيط العنب، وكان السرير عاليًا وفرشه جديدًا وعليه ملاءة من «الساتان» الأخضر تتدلى على أطرافه، وكان هو يحب أن يغوص هناك فى العتمة الخفيفة بنور أخضر فاتح يشم رائحة الورق والتراب وبقية متطايرة من عطر نسائى يعرفه عند امرأة خاله إستر، ويقلب فى الصحف والمجلات القديمة المرصوصة تحت السرير، الأهرام والبلاغ ومصر والصرخة والجهاد، ويقضى ساعات فى عزلة عن صخب البيت وأصواته واحتشاده.

ورأى أنه فى محطة باب الحديد الخالية تمامًا فى الليل، والأرصفة القوية العالية تمتد عريضة وليس عليها أحد وليس عليها قطارات، والسقف الزجاجى بعيد جدا فوقه وتنعكس عليه، من تحت، أنوار الأعمدة الطويلة، ورأى أن القطارات واقفة فى خارج المحطة، متراصة صفوفًا فى ظلام الساحة المغطاة بالقضبان المتعرجة، متربصة، صدور القاطرات أقراص سوداء كاملة الاستدارة منبعجة قليلاً إلى الأمام وكأنها تهم بأن تنبعث فجأة من جمودها، بالحياة والبخار والهجوم، لتدخل المحطة، فى أية لحظة الآن، تداهم، وتسحق كل ما أمامها. ورأى نفسه معهم فى الجانب الآخر من المحطة، المفتوح على شبكة القضبان الواسعة. وكانوا كثيرين جدًا، متزاحمين بالأكتاف والرءوس، ولمح فى وسط الوجوه المتعاقبة

التى تظهر وتختفى فى عتمة الليل الضافية وجوه بقطر ابن عمته ورفله أفندى وخاله ناثان وخاله يونان وخاله سوريال وجده ساويرس، ولم يدهش عندما رأى بينهم أخته عايدة التى تصغره بسنتين تحمل أخته لويزة الصغيرة على ذراعها فى وسط زحمة سواقى القطارات و«العطشجية» وعمال الصيانة و«الكمسارية» ببدلهم الصفراء الداكنة وفى أيديهم عصى حديدية رفيعة طويلة، وعدد قطع التذاكر المعدنية ومقراض التذاكر البشع الشكل، وهم يتحركون ببطء، محتشدين تحت السماء المفتوحة، ورأى بينهم، لحظة واحدة ثم اختفت، رانة صاحبة «اللوكاندة» وخيل إليه فى لمحة واحدة أنها ترتدى «المايوه» القماش الأزرق المكشكش الأكمام عند أعلى ذراعيها، ولكنه رآها عارية تمامًا وثدياها قائمان مكوران بكبرياء ونعومة مستديرة مليئة، وساقاها السمراوان تلمعان بندى عرق خفيف، وكان يعرف أنها لا يمكن أن تكون هناك، وأنها ماتت، بغموض وفى قلب شىء ما قابض ولكنه لم يصدق ذلك، وأحس لها الولد بخجل مكتوم معتصر آكتسحه ثم مضى كأنه لم يوجد، ثم ضاعت منه وسط زحام حشد الناس وكأنه لم يرها قط ، وكان يعرف أنها ليست هناك. وكان الناس يلوحون بأيديهم وأذرعهم ويفتحون أفواهم صارخين من غير صوت. وكان معهم، يحس أن موجهم يحمله ويرتمى به برفق، يصعد به ويهبط بنعومة من غير صدمة.

ووجد أن الأرصفة قد امتلأت بجنود «ملوك» النظام «بالشورت» الكاكى والياى الداكن تلتف شرائطه حول سيقانهم، على صدورهم

أحزمة جلدية عريضة متقاطعة وعلى طرابيشهم أغطية قماش صفراء لها ياقة متدلية على مؤخرة رءوسهم، وفى أيديهم خراطيم الماء القوية تتلوى، حراشيفها الجلدية شريرة، كثيفة الأضلاع. وتزحف الخراطيم على الأرصفة، من تلقائها، ثم تنصب بفوهاتها الحديدية المسددة إليهم، وتندفع منها أعمدة الماء المغلى يفور وله وشيش وبخار أبيض يتطاير فى دوائر كثيفة وتدور وتصعد من فوق انصباب الماء المرغى.

وعلى صرخة يقظته المروعة جاءت أمى حافية، تجرى إليه، من على السرير العالى فى الجانب الآخر من «الكابينة».

وعلى العكس من ابن عمتى بقطر كان أخوه رفلة أفندى مدور الوجه أبيض البشرة وناعمًا قليلاً، وكان له عينان جاحظتان شيئًا ما، تتألقان بالمرح، وسريع النكتة متدفقًا بالكلام وله شارب مشذب ينزل من تحت أنفه بين خطين مستقيمين عموديين كشارب هتلر الذى تظهر صوره فى «اللطائف المصورة».

وقضى رفلة أفندى سنوات طويلة مدرسًا للجبر والهندسة فى المرقسية الثانوية وكان أعزب وله شقة فى محرم بك. وكان يعزف على العود. وعندما كان يزورنا على العشاء فى بيتنا فى غيط العنب كنت أسهر معهم على المائدة الطويلة الحافلة، قرصها الرخامى البنى المجزع مغطى بمفرش أبيض سميك ومكوى ومحمل بالأطايب التى كانت أمى تعدها، تذبح بطة أو وزة وتصنع الكسكسى الذى نأكله بالمرق، وتطبخ، وطاجن أرز معمر بالحمام، والرقاق الهش

الذى تسقسقه بالسمن البلدى وتحمره فى الفرن، رقائقه الناعمة المحمصة من فوق واللدنة اللحمية من تحت لها طعم لا أنساه، وتكون ليلتها كأنها ليلة عيد، يأكلون ويشربون ويحكون حكايات كثيرة وشائقة جدًا، وأمى تعزم عليه بالطعام، دون توقف: خد دى من إيدى وحياة خالك، ما تكسفش إيدى أمال، فيرد: تسلم إيدك يامرات خالى، يابوى، لايمكن، وحياة المسيح. وبعد قليل تخلع نسيرة وافرة من البطة وتعزم من جديد: تجبرنى ما أنت واخد دى، هو انت كلت حاجة؟ فيقول وهو يرد يدها برفق: جبر ياخد العدا يامرات خالى والله ما أجدر.

وينتهى بأن يأخذها، وهكذا طول العشاء، وكانت لهجته إسكندرانية وفيها نغمة صعيدية خفيفة ومرحة، وكان رفلة أفندى يأتى لى كل مرة بعلب «التوفى» المدور المرسوم عليها صور أبراج وكبارى ملونة عرفت فيما بعد أنها صورة برج لندن، أو برطمان «كراملة نادلر» المربع بزجاجه الشفاف السميك وفوهته الدائرية الواسعة.

وأظل معهم من الفرح بالسهر والحكايات والأكل والكونياك حتى أقع فى النوم وأنا لا أريد الذهاب إلى السرير، ولا أذكر فى اليوم التالى متى ولا كيف نمت.

وكانت «كبائن» المندرة أيامها تقع على مرتفعات صغيرة متراوحة من الرمل أمام الكورنيش، متناثرة ومتباعدة من غير نظام وبينها مساحات عذراء فيها نخل «والكباين» على أشكال جميلة وغريبة ومتعددة جدرانها الخشبية تنتهى بأبراج صغيرة جدًا وأنيقة من

الخشب أيضًا على الأركان الأربعة، ونوافذها الصغيرة لها زجاج ملون ومنمنم من ألواح دقيقة ناعمة أو محببة زرقاء ناصعة وحمراء متقدة وخضراء يانعة وصفراء مزهرة، ويصعد المرء إليها على سلالم خشبية «وللكباين» الكبيرة شرفات مكشوفة تحيط بها أعمدة متتالية رشيقة، وتتأرجح تحت القدمين.

وكانت «كابينة» رفلة أفندى تطل على الكورنيش مباشرة، من على ربوة رملية صغيرة الارتفاع، منبسطة. هل كنا قد تغدينا عنده بالفعل، ونزلت أمي إلى البحر فى آخر العصر بعد أن خلا الشاطئ تمامًا، وعادت وذهبت إلى الغرفة الداخلية الوحيدة لتسرح شعرها وتلبس؟ أم كانت لا تزال فى البحر، بعد أن خرج منه الناس وأوشك النور أن يذهب، تأخذ، وحدها فى الماء، حمام الغروب؟

كان رفلة أفندى يجلس على كرسى خيزران، بالقميص والبنطلون، وهو منحن بصدره على العود المستند إلى بطنه المنبعج قليلاً، يده البيضاء المرهفة الأصابع تهتز بالريشة على الأوتار هزات خفيفة موقعة، وأنا أمامه أجلس على كرسى خشبى مدور من غير ظهر؛ وأرى أرضية «الكابينة» الخشبية عليها آثار أقدام مبلولة لأنها أكثر دكنة من لون الخشب حولها، وكان يدندن: الليل لما خلى .. والساهر.. الباكى... وفى صوته وعزفه شجن، وعيناه غائبتان.

كان قرص الشمس أحمر، كبيرًا، أراه ينزل بسرعة، كأن الشمس الحقيقية البيضاء الملتهبة قد غابت من زمان، وهذا انعكاسها المتقد، وهميًا، يغوص فى البحر وسط سحاب متقطع مشتعل

الأذيال بنار داكنة، ومجد الغروب ينطفئ قليلاً قليلاً، وتهب علًى أنفاس وحشة باردة، كأنه آخر مغيب فى آخر يوم، الشمس تركت العالم ولن تعود، ونحن ندخل ليلة القيامة الأخيرة.

وفى الكابينة المفتوحة دفء من سخونة خشبها الذى صهدته الشمس طوال النهار. عتمة المغيب وإيقاعات العود لها رنين شجى ومجوف ومتلاحق الرعشات، وقد صمت رفلة أفندى واستغرق فى العزف. انحنى برأسه إلى جانب يصغى إلى شكاة الأوتار المرتعدة بصدمات موسيقى رتيبة، ملحة، لها صدى فى حيز الكابينة الخشبى الضيق.

كنت أحس نفسى وحيدًا جدًا، وهواء البحر يأتى على وجهى حارًا ثم رطبًا على التعاقب، مرة بعد مرة، ومحملا برائحة الماء الملحية، وأضاءت أعمدة النور على الكورنيش، معًا مرة واحدة، بقعًا مستديرة بصفرة وهاجة إزاء نسيج السماء الداكن الزرقة الذى مازال فى طرفة احتراق الغروب، يسود بالتدريج، ونور المصابيح المهتز يقع على أسفلت الكورنيش وعلى ظهور السيارات اللامعة التى تمرق بصمت وسرعة، متباعدة وقليلة، لتختفى فى انعطاف الطريق عند الكازينو البعيد.

وأمام الكابينة مباشرة فجأة رأيت جسمها يدور تحت عجلات السيارة أمامى، ناعمًا ولدنًا بدون مقاومة، فستانها يطير ويتقلب تحت السيارة، والذراعان تهتزان، والجسم يلتف مع العجلات، مرة ومرتين.

أحسست العجلات المسرعة تطأ عظامى نفسها.

وسمعت صرخة ثاقبة فى سكون الغروب.

انخلع قلبى برعب خاطف، هل هذه أمى تحت العجلات؟ كانت آتية إلينا من البحر واصطدمت بها السيارة؟ كان الروع فى قلبى ساطعًا، لحظة واحدة، الغياب النهائى. الفقدان الكامل.

خرجت أمى من الغرفة الداخلية، هادئة، شعرها القصير مسرح ومازال مبلولاً قليلاً على وجهها الذى يشع فى عتمة الكابينة، أبيض.

وأحسست ساقى ترتعدان، خاويتين.

لم اتحرك. ولم أقل كلمة واحدة.

كانت الكابينة صامتة تمامًا والعود وحده على الكرسى الخيزران.

رأيت السيارة تبطئ، بعد أن مرت على الفتاة المرمية على الأسفلت، ساقاها الضامرتان مكشوفتان للهواء، هامدتان، ملويتان إلى جانبها فى وضع لا يصدق. ورأيت، من بعيد، شعرها مفروشًا على أرض الشارع، تحت النور. هب الهواء فارتفعت خصلة منه، تهتز.

وكان الناس يجرون إليها، وأدركت أن رفلة أفندى قد انطلق إلى مكان الحادث. ووقفت أمى على الباب، صامتة، مفتوحة العينين.

لم يتزوج رفلة أفندى إلا عندما كبر جدًا، ونقل مفتشًا ثم ناظرًا فى سوهاج الثانوية بعد أن أخذت الابتدائية بسنتين، ولم يخلف،

ومات بعد أن حصلت على البكالوريوس، وكنت عندئذ فى معتقل الطور، وحرب ١٩٤٨ قد انتهت بضياع فلسطين، وكأنما كتمت مشاعر غامضة كثيرة، فلم أفكر فيه.

فى ذلك الصباح انتظرت خالى كالمعتاد، ولكنه عندما وقف بالأتوبيس نظر إلى من فوق مقعده نظرة غريبة ونهض، على غير عادته، وجاء إلى الباب قبل أن أصعد وقال لى: بلاش النهارده. خليك.. العب هنا احسن. وأحسست توجسًا وقلقًا مستأثرًا فلم أرد عليه، وفعلت ما لا أفعل إلا نادرًا، صعدت بصمت وتصميم وجلست على مقعدى الصغير.

وفهم خالى ناثان أننى فى نوبة من نوبات عنادى التى لا يفلح معى فيها شىء لا أمر ولا رجاء ولا تهديد ولا محايلة، وعاد إلى مقعده وخيل إلى أن التجاعيد حول عينيه الصغيرتين قد عمقت وازدادت.

وعندما اقتربنا من اللوكاندة قال لى: «طب بلاش تنزل»، ألف، وترجع معاى، أخدك لغاية المنتزة، ونروح الكازينو بعد الضهر» ولم يقف، لكننى فى المحطة التالية كنت على الباب بالفعل، وقفزت إلى الشارع مع الناس، وجريت راجعًا، وعبرت الكورنيش دون انتظار من بين السيارات المسرعة التى ارتفع نفيرها الموحش وخفت فى أذنى، وأنا أمرق من بينها.

كان يقف على مقربة من الباب جمع صغير من البوابين والمكوجية والبياعين والفضوليين القلائل، يتهامسون ويتحدثون

بصوت خفيف، وسمعتهم يقولون وأنا أشق طريقى بجانبهم على الرصيف: إمتى؟ حد عرف مين؟ بيقولوا على وش الفجر.. خسارة.. واللّه ست فنجرية وبنت حلال .. ماهى كانت برضو .. اللّه يرحمها بقى.. ما احنا بكره هنعرفوا ... مسير المستخبى يبان .. ربنا على الظالم يا جدع.. وكان على باب اللوكاندة عسكرى فى بدلته البيضاء غير المكوية وطربوشه، وفى يده بندقية ومعه مخبر بالبالطو الميرى والجلابية والعصا الخيزران قال لى بخشونة: رايح فين يا ولد؟ فأزحته بيدى، بقوة لم أكن أعرف أنها عندى، دون أن أرد ولا أنظر إليه، فلا شك أن ما رآه فى وجهى يسكت ولا يفعل شيئًا.

صعدت السلالم جريا، وفى الدور الثالث رأيت بابًا مفتوحًا بالقرب من غرفة ابن عمتى بقطر، وعرفت أنه باب غرفتها، واندفعت إليه، ورأيت ضابطًا بنجمة وتاج يقف فى الغرفة مع اثنين من المخبرين، وكانت الغرفة مزدحمة بهم، وكان ابن عمتى بقطر يقف معه، مهيب الطول صارم الوجه، أنيقا فى «البالطو» الصعيدى «الجبردين» الخفيف على جلابية «سكروته» ناصعة تنزل حتى حذائه البنى اللامع كالمرآة، وطربوشه محكم ومضبوط تمامًا على راسه، وأحسست أنه يتفجر، فى هذه اللحظة بالذات، بشباب عارم مكتوم.

وعندما اندفعت إلى الداخل من بينهم جميعًا، وقبل أن يمسكنى أحد، رأيتها على السرير. كانت مغطاة بملاءة بيضاء، عليها بقع الدم، داكنة، ترشح ببطء وتتسع فى مواقع مختلفة عند الصدر

والبطن، ورأسها ملقى إلى الوراء من غير مخدة، سمرة وجهها شاحبة ولكن عينيها الواسعتين، تحت الجفنين المدورين، مفتوحتان، اخضرارهما الآن ثابت لا يتموج، وكانت تنظر إلى.

أخذنى ابن عمتى بقطر، من يدى، ببطء ودون تعجل وقال لى: تعال معى دلوجيتى يا ود خالى. تعالى. ما عادشفيه فايدة من الوجفة دى ياخال وكانت أول مرة ينادينى كما ينادى أبى، وكما يتحدث الرجل إلى الرجل واهتز صوته الراسخ العميق. ولم أبك، يومها، أيضًا.

واستمر بقطر ابن عمتى يأتى إلى «لوكاندة راحة» كل مصيف، لم يغير من عادته، واحتفظ باعتدال قامته الشامخة، وصرامة وجهه، وشباب نظرته الثاقبة، بعد أن تزوج من الصعيد وخلف. ومات بعد أخيه رفلة أفندى بقليل، وكنت قد انتقلت من معتقل الطور إلى معتقل أبو قير، مرة أخرى، ولم أعرف إلا بعد أن خرجت. وحزنت عليه حزنًا صامتًا طويلاً، وكنت أمر أيامها، بغمرات حب ظننت أنه ميئوس منه، وكنت يائسًا من العالم.

وكنت أذهب، فى مضض هذا الحب الذى لم أكن أعرف كيف أحتمله ولا أعرف كيف ينتهى، إلى كازينو كليوباترا، وأقضى ساعات بعد الظهر المبكر انظر إلى البحر وأحلم أحلامًا مضطرية، أحاول أن أقرأ رواية أو انتظر صديقًا قبل ميعاده بكثير، أو أقرر، خلال ساعات، هل أذهب إلى سينما، أى سينما، أو إلى قهوة الفريسكادور أو باستوريدس فى شارع سعد زغلول، أو سان

جيوفانى فى ستانلى، لمجرد أننى لا أطيق البقاء بين أربع حيطان وحدى.

كنا فى أواخر سبتمبر، وشمس بعد الظهر تصنع على صفحة البحر، تحتى، ملايين النقط اللامعة التى تبرق وتختفى وتعشى عينى، وزرقة الماء تحتها عميقة وداكنة وكثيفة الشفافية فى الوقت نفسه، فأمد بصرى من نافذة الكازينو العالية المفتوحة إلى الأفق الغامض فى اتصاله بخط السماء المهتز بالضوء عندما رأيتها.

كانت تسبح تحت النافذة «بالمايوه» الأزرق الفاتح، محبوكًا عليها، لامعًا تحت سيولة الموج الخفيف الذى يترقرق عليه وينحسر فى حركتها الناعمة، ذراعها لا تكادان تصنعان رغوة فى انزلاقها المنساب على الماء. وعرفتها رانة التى كنت نسيت كل شىء عنها. جسمها فاتح السمرة وغض ولما يكد يكتنز بأنوثيته التى تتفتح وتزدهر، فى أول امتلائها الباكر، ولكنها أصغر سنًا بكثير، فتاة بعد، ولها رشاقة سمكة فى الماء.

خفق قلبى، وتوقف. من هى؟ هل هى أخت لها، صغيرة، لم أرها من قبل؟ كنت موقنًا أنها هى، أم هى الأخرى التى سوف أعشقها، وأفقدها. تعلقت عيناى بها مسحورًا وغائبًا، وعندما انقلبت على ظهرها، تطفو فوق الماء، رأيت وجهها المدور الخمرى، مغمض العينين تحت الشمس، طافيًا إلى، وكان شعرها الخشن قصيرًا حول رأسها، مبلولاً وداكن السواد، أعرف حرافة عبقه المسكر، وخداها الأسيلان يومضان فى استدارة رخيمة كاملة تحت الماء، وهى تبتعد.

ساقاها، فى بضاضتهما المخروطة العبلة، لا تكادان تتحركان، وذراعاها تضربان الماء بحركة خلفية منتظمة إيقاعها هادئ، وهى تبتعد. وعرفت أننى سأحبها، فى آخر العمر، حبًا كأنه الموت، وأن قلبى هو ساحة بحرها اللجى الجياش أبدًا بأمواج لا هدوء لها.

٤ ـ فلك طاف على طوفان الجسد

أنزل للمدرسة فى الثامنة إلا عشر دقائق، على الساعة.

ساعة الحائط معلقة جنب الباب، البندول النحاسى الطويل ينتهى بقرص مدور، ملىء، صفرته وهاجة ومغوية، يتأرجح، ذاهبًا آتيا بإصرار كأن فيه نزقا وخفة، فى بطن الصندوق الخشبى المستطيل، بجسمه البنى الداكن اللامع الدسامة، على حوافة الأربع «كورنيش» مشغول بتفريعات ناعمة اللفلفة، بضة الخشب يدور بعضها علي بعض متداخلة ومتزينة ومتقلبة على الحافة العلوية تموج مقبب عليه فارس خشبى رقيق النحت، له خوذة ينزل من تحتها شعره الطويل المنمنم المتجعد الخصل، وله لحية مخروطة، وعباءته يتطاير بها الهواء المحبوس، وهو يشب على حصانه الصافن الذى يرفع إحدى ساقيه الأماميتين، مثنية برشاقة ثابتة، وطرف الحافر المنطوى لا يكاد يمس الأرض. فطورى، دائما تسقيه بالشاى واللبن، فقط. تفت أمى وجه الخبر الناشف الرقيق، فقد كنت لا أحب بطن الرغيف الخشن المحبب بالردة، وتغرقه بالشاى واللبن حتى يتشربه، ويلين، ولكنه لا يتعجن، فآكله بالملعقة الفضية الخاصة

بى وحدى، عليها نقش تاج صغير واسم لا أنساه: محمد غالى وأولاده، بالخط النسخ الدقيق التدوير وقد أسود وسط لمعان الفضة الثقيلة، أرفع بها الخبز المسقى بالشاى واللبن فأجده سائغ السخونة، سهل البلع وأنا لا أرفع عينى عن الساعة، والعقرب الطويل يقفز من علامة إلى علامة، كل دقيقة حتى يصل إلى الخط الذى أعرف عنده أننى يجب أن أترك كل شىء، وأخطف كتبى من على رخامة البوريه، وأجرى.

كل يوم أحد، قبل أن نذهب للكنيسة، أترجى أمى أن تتركنى أملأ الساعة آخذ مفتاحها الذى له تجويف دائرى دقيق فى ساقه، من مكانه على أرضية الصندوق الداخلية امسح الغبار الدقيق عليها بأصابعى، وأطلع على كرسى خيزران، وأولج خرم المفتاح الطويل فيلف بإحكام وثيق حول سن كالإبرة تبرز من فجوة دائرية فى منتصف وجه الساعة بمينائه البيضاء الساطعة، وأدير المفتاح وأنا أمسك برأسه المفلطح ذى الورقتين النحاسيتين الدقيقتين بين الإبهام والسبابة، فتصر التروس الداخلية، بمتعة، وهى تمتلئ، وتكتسب الدقات المنتظمة الواضحة، أقوى صوتًا وأكثر تجسدًا، وكانت تدق كل ساعة، بصلصلة النواقيس.

تركنا البيت الذى فى شارع ١٢ أمام وابور الدقيق، بالقرب من الكركون عندما دخلت مدرسة النيل الابتدائية، من أربع سنين، وانتقلنا إلى بيت شارع الكروم أمام الإسطبل، قريبًا من ترعة المحمودية، مخصوص لأن المدرسة كانت فى الشارع نفسه، أصل إليها بعد خمس دقائق مشيًا، أو جريًا فى دقيقتين، أعبر تقاطع

شارع سيد كريم، ثم شارع الترامواى، فأجد المدرسة على قمة الشارع التالى على طول.

للمدرسة سور عال، من الحجر، على شارع الكروم، لا يفتح إلا على باب خشبى يفضى مباشرة إلى سلالم ضيقة، معتمة ونظيفة جدًا بين حائطين مضمتين، لا يدخل منه إلا الناظر والمدرسون، لم أصعد عليه، ولم أعرف رهبته إلا مع أبى، وهو يمسك بيدى، عندما جاء ليقدم لى فى المدرسة أول مرة، من زمان، وعندما ذهبت لآخذ الشهادة من مكتب الناظر فى آخر تلك السنة.

أما نحن فندخل من الباب الواسع الكبير على شارع المعارف، من الناحية الثانية، يقف عليه عم ميساك البواب العجوز المشقق الوجه، بشاربه المتهدل وعمته القماش الملفوفة على اللبدة الحائلة اللون، هو الذى يفتحه ويغلقه ويقرر مصائرنا فى الدخول والخروج، والحصص والفسحة، إذ يضرب الجرس النحاسى الصدئ المعلق جنب الباب، على ساعته الفضية المكتنزة المضبوطة بالثانية، مربوطة، فى جيب جلابيته الجانبى العميق «بكاتينة» معقودة بالزر الأعلى فى صداريته التى يبدو قماشها اللامع ضيقًا حول صدره النحيل، من فتحة الجلابية العليا.

وللباب ضلفتان حديديتان مسدودتان، بين قائمين من الحجر العريض، ويفتح على مدخل مبلط صغير تصعد منه سلالم عريضة رخامية بيضاء لها من الجانبين، درابزين حجرى، كالشرفات ويؤدى إلى ردهة تقع الفصول على جانبيها. وعلى مستوى الدور الثانى يبرز من فوق السلالم، ويظللها بناء المدرسة المرتفع، المضلع،

بالحجر القديم الكبير، والزخارف الحجرية الطويلة، وفيه النوافذ العالية الواسعة بضلفها الخشبية الثقيلة.

اندفعت جريًا من جنب عم ميساك إلى الحوش الصغير، إلى يمين السلالم الرخامية، حيث كان يقف «الكبار» الذين يلبسون البنطلونات الطويلة والبدلة الكاملة، والطرابيش والكرافتات.

وقلت صباح الخير لغريب على، فرد على وهو مستند بجنبه إلى السور، طربوشه معووج على زاوية أنيقة من جبهته، و «جاكتته» مزررة، فهى دائمًا محبوكة عليه، لا يفتحها أبدًا، ووجه طويل فيه نظرة حالمة شيئًا ما، مترفعة شيئًا ما. ورد على أيضًا حسن المردينى، بخديه المدورين وعينيه الدسمتين، وسليمان بطرس، الصعيدى الوسيم، لونه بنى محروق.

لعل الكبار كانوا فى السادسة عشرة أو بعدها، ونحن أوائل الفصل، صغار فى السن عنهم، فى العاشرة أو نحوها، وكلنا شيطنة، ولكننا كنا، بمعنى ما، أندادًا لهم، بميزة التفوق التى تجعلهم يحترموننا، وتتيح لنا أن ننضم على قدم المساواة إلى جماعتهم فى الحوش الصغير، نتبادل «الساندويتشات» و «التوفى»، رأسا برأس، حتى لو كانوا هم - كما هو واضح - أولاد عز وآباؤهم أغنياء، بينما كنا على قد الحال، مستورين، ومازلنا نلبس «الشورت» والقميص المفتوح الرقبة والشراب القصير المتهدل على رقبة الجزمة. ولكن الطربوش كان إجباريًا، علينا نحن أيضًا، نلبسه فى الفصل وفى الفسحة، وفى الشارع.

ومع ذلك فقد كنا نعرف، بغموض أننا لسنا أندادا لهم، تمامًا.

كانوا كبارًا، وكانت لهم معرفة بأسرار الجسم التى تحدث للواحد عندما يكون كبيرًا، ولا نملكها بعد. ولهذا، وحده، كنا نكن لهم إعجابًا خفيًا، واحترامًا من نوع خاص، حتى ولو كانوا فى آخر ترتيب الفصل. وكانت لهم مرات، فى صباح الإثنين خصوصًا، يتحلقون معًا، الكبار وحدهم، ويتحدثون بهمس منفعل ويتبادلون أسراراً يسمحون لنا بأن نسمعها.

ضرب الجرس، واندفعنا نجرى على السلالم الرخام، ودخلنا حصة العربى كان خليفة أفندى يتكلم بلهجة فلاحية قليلا، ويعطش الجيم دائمًا، وله شارب كث كشريط مستقيم الحواف تحت أنفه، وعظم وجهه غائر وجاف وكنت فى أول صف، وطلب منى خليفة أفندى أن أسمع المحفوظات. كانت سورة الليل وسورة الضحى مقررتين علينا فى المحفوظات، وكنت حسن الحفظ، فتلوتهما، واحدة بعد الأخرى، مسحورًا بالإيقاع والمعانى، وحل فى الفصل كله سكون تام وأنا ألقى الآيات المنغمة القصار، وكان خليفة أفندى ينظر إلى نظرة ثابتة عميقة، حتى فرغت، وفى الصمت سمعت همهمة خافتة من الفصول الأخرى، والأنفاس كلها معلقة، حتى قال خليفة أفندى فجأة: اللّه.. ! هذا الإلقاء مثل سلاسل الذهب .. فتح اللّه عليك يا بنى فأحسست وجهى يتضرج من الزهو والخجل، وسمعت لغطًا وضحكًا مكتومًا فى آخر الفصل.

فى الفسحة ذهبنا، من يسار السلالم العريضة، إلى الممر الضيق الذى يدور بمبنى المدرسة، ويفتح على حوش مسقوف بالخشب،

مبلط، فيه دكك طويلة وموائد خشبية عارية الخشب، وكان هذا الحوش معتما قليلا، ومفرحًا فى الوقت نفسه، فقد كان مرتعًا للاستغماية والنط فوق الدكك وبين الموائد، وتحت الحائط الذى تقوم أمامه حنفية نحاس نشرب منها بأيدينا، تحتها بقعة غير منتظمة مبلولة وداكنة اللون دائمًا، ولم يكن الكبار يأتون إليه.

كنت منحنيًا على الحنفية، أملأ يدى المتجاورتين المكورتين بالماء وأشرب بعطش بينما الماء ينسرب بسرعة من بين أصابعى، عندما جاء جبره من خلفى، بقامته الطويلة ووجهه الشمعى الأبيض، وابتسامته التى أكرهها، ومعه كمال المدكوك الجسم فى بنطلونه الطويل الضيق المحشور فيما بين ساقيه، ومعهما رمزى، قصير، ومدور الجسم، «الشورت» الذى يلبسه يكشف بإحكام عن فخذين ناعمتين بيضاوين، وعيناه جاحظتان قليلاً، وسمعت جبره يقول بصوت يتعمد أن أسمعه: يا عينى على سلاسل الدهب .. يا حلاوة الدهب.. وضحك رمزى ضحكة كسولة ورفيعة، كالبنات وقال كمال بصوت خشن: إيوه ياسيدى..! اعتدلت وأنا أرتجف من الغيظ، وتمنيت لو كنت كبيرًا فأحطم لهم وجوههم بقبضتى كما كان يفعل روكامبول وأرسين لوبين، ولكن حسن المردينى، على غير عادته، كان يقترب متمهلا، ومعه غريب على، وأنطون زخارى. سكت جبره وكمال فجأة، واستدارا، وابتعدا وهما يمسكان بيدى رمزى، كل من ناحية.

فى فسحة بعد الظهر كنت فى الحوش الكبير المفتوح الذى يحده السور من ناحية، وحيطان البيوت العالية من ناحية، بنوافذها

المواربة التى لا تفتح أبدًا، وظهر مبنى المدرسة من ناحية ثالثة، وينتهى إليه الحوش المبلط المسقوف من آخر جوانبه. كانت الشمس تنصب عليه فيدفأ جدًا فى الشتاء ويتقد حرارة فى الصيف، وأرضه قد اسود رملها قليلاً بتراب ناعم تثور منه سحابات صغيرة تحت أرجلنا من الجرى واللعب والصياح الذى لا يهدأ أثناء الفسحة الكبيرة، وكان من لعبنا الأثيرة أن يخلع أحدنا حذاءه ويمسك به، حرصًا عليه مهما كانت الصداقة، ويقف بالشراب على أكتاف اثنين معًا، ويطل برأسه، بالكاد، من فوق السور، وينادى على المارة أو البياعين القليلين الذين يمرون فى شارع الكروم، ولا يحصل على هذه الميزة إلا من كسب فى لعب «البلى»، أو «صلح»، أو ما نبتكره من ألعاب.

جاء جبره، وكمال ، ورمزى، ثلاثتهم، إلى وأنا فى الحوش الكبير، وطلب منى جبره بصوت كله رجاء، واعتذار، ومصالحة، أن أشرح لهم معانى المحفوظات وإعرابها، فتصالحنا، ولكننى كنت دائمًا أحس معهم بالقلق، وكره ملتبس، وأن ما يدور بينهم فى خفاء جسدى غير مفهوم، جذاب ومنفر معًا.

قال لى جبره أنهم سوف يذهبون بعد المدرسة إلى بيت رمزى فى آخر شارع ١٢، جنب شركة الغزل، وإن رمزى عنده مجموعة مجلات كل شىء والدنيا والكواكب، فى غرفة على سطح بيتهم، وسوف يقنعه بأن يسلفنى إياها لأقرأها فى أجازة نصف السنة، وكان جابر يسمع الكلام، فجاء إلى فى آخر حصة، وكنا قد حفرنا أسماءنا

على خشب الأدراج، وأخرجنا المحابر الخزفية البيضاء من فوهاتها الغائرة ووضعنا بعضها فوق بعض، رصات رصات، على مائدة المدرسين، وطيرنا دبابير من الورق فى سماء الفصل وكتبنا بالطباشير الأحمر على زجاج النوافذ «تحيا الإجازة». وقال جابر بغموض: خل بالك لما تروح مع الولاد دول عند رمزى، خل بالك وكنت فرحا بالإجازة الطويلة ومتوثبًا بالعفرتة والفرح فلم أهتم بما قال.

خرجنا مبكرين فى هذا اليوم الأخير قبل إجازة نصف السنة، وكان عندى وقت قبل ميعاد العودة التى كانت أمى تحاسبنى عليها، بالدقيقة، على الساعة. وذهبت مع جبره وكمال الذى وضع ذراعه على كتفى وهو يقول إن خليفة أفندى وسامى أفندى، ضابط المدرسة الشاب، أصحاب وينامون معًا فى بيته بالليل. خطوت إلى جنب، بعنف، وابتعدت عنه، وقطعنا شارع ١٢ حتى آخره، وصعدنا السلالم النظيفة المعتمة، وعبرنا الأبواب المغلقة الصامتة، حتى السطح. وقال جبره إن رمزى سيأتى حالاً من تحت، ودخلنا غرفة، على السطح، خالية، لها ثلاثة جدران فقط من الحجر الخشن العارى، وفيها شباك واحد عال منور فى الحائط ليس له ضلفة، وفى وسطها، أمام لوح الخشب الكبير المفتوح الذى يحل محل الحائط الرابع، عمود عريض من الأسمنت تخرج من صلبه أطراف حديد ملتوية رقيقة وصدئة، يحمل السقف من المنتصف تمامًا. كان النور خفيفًا فى غرفة السطح، وفى المكان كله نوع من السر والتوتر،

قال جبره، بصوته اللزج وفيه غنة لينة إن رمزى صعد معه إلى هنا، يوم الأحد الماضى. وحكى كيف أنه ركع على يديه ورجليه واستند إلى العمود وقال إنه لم يصرخ بل كان يكز على فمه فقط، ولم أفهم شيئًا ولكننى أحسست فجأة أننى فى كمين، وأن شيئًا ما، خطرًا ومرعبًا وغامضًا يدور من حولى، قلت يجب أن انزل الآن، بيتنا بعيد، واندفعت أجرى نازلا على السلم وانا أسمع كمال يقول إن رمزى سيجىء بالمجلات حالاً، لم أرد عليه كنت أجرى فى شارع ١٢ أجرى فى شارع الكروم، أجرى أعبر شارع الترامواى، لا أتوقف ولا أخذ نفسى، حتى وجدت نفسى فى فسحة السلالم داخل بيتنا، فوقفت وأنا أنهج واكتشفت أننى أضم كتبى إلى جنبى بشدة، وأن الدم يضرب فى عروقى كلها. وكان كل شىء مستغلقًا على وغريبًا وأريد أن أنساه.

تجنب هؤلاء الثلاثة بقية هذه السنة الأخيرة فى مدرسة النيل الابتدائية، وكنت لا أريد أن أرى الابتسامة الكريهة على وجه جبره الشمعى، ولكننى أحيانا، كنت لا أملك أن أرد عينى متأملا جسم الولد رمزى المدور الكسول.

استرددت نفسى، وطلعت السلم، كل درجتين فى وثبة واحدة، وعندما خبطت على زجاج ضلفة الباب المغبشة فتحت لى خالتى سارة الصغيرة التى لم تكن تكبرنى إلا بسنوات قلائل، وكانت تحمل، على يدها الأخرى، الصينية المرآة المستطيلة ذات المقبضين وعليها أكواب «المغات» السخن رائحته شهية، داكن الصفرة تطفو عليه

طبقة السمن بدوائرها الصغيرة المزيدة مغروزًا فيها فتات من فصوص البندق واللوز وعين الجمل.

كانت أمى قد ولدت أختى لويزة، وعملنا لها «السبوع»، وجاء أبونا سمعان وصلى على رأس أختى لويزة فصرخت وهى فى قماطها الأبيض الوثيق وبخرها ورش البيت كله بالماء المصلى عليه الذى حمله معه فى زجاجة صغيرة أخرجها من جيب جبته السوداء الحرير، وهز مجمرة البخور التى كانت أمى قد أوقدت النار فى قطعة فحم صغيرة فيها، حتى احمرت، فامتلأ البيت برائحة عبقة وحريفة كرائحة الكنيسة من سحب البخور المتقطعة، ومن الشموع الموقدة حول قلة منتفخة البطن، مصبوغة بالأحمر، على المائدة فى فسحة البيت، فى صينية نحاسية، ونيران الشمعات السبع خافتة فى عز النهار ومدببة وصفراء، وكل شمعة مغروزة فى طبق فنجان، زرعت فيها سبع حبوب على أرضية من القطن المبلول، وسقيت برش الماء طول الأيام السبعة الماضية، الترمس والفول والشعير والغلة والحلبة والذرة والعدس أبو جبة، وكانت النباتات الرقيقة الرفيعة جديدة الخضرة تكاد تكون شفافة من رقتها، وقد ارتفعت حول جذوع الشمع البيضاء المدورة. وكانت أمى، فى عز شبابها، تقوم من سرير الولادة ثانى يوم، وتعمل شغل البيت، وكان أبى يرسل للبيت الفراخ، بالقفص، طول أيام النفاس، تحملها عربة «كارو» من مينا البصل لغيط العنب.

عندما دخلت، سمعت ثرثرة الستات واللغط والصيحات الناعمة والضحكات النسائية العالية، كانت أمى عندها ضيوف، جئن يهنئن

بالسلامة، ورأيت على كنبة الفسحة ملاءاتهن السوداء خلعنها ورمينها من غير نظام، وعلى «البوريه» كومة صغيرة من الأساور والحلقان والعقود والخواتم الذهبية. كانت الكومة الذهبية متهدلة الخيوط والحلقات بعضها فوق بعض، تومض وتشع بخفوت، وكنت أعرف أن زائرات أمى عليهن أن يخلعن كل ما يلبسن من ذهب قبل أن يدخلن عليها، طول أربعين يومًا بعد الولادة، خوفًا من «المشاهرة». وكانت هذه الكلمة، وهذا الطقس كله، يسحرنى ويحمل إلى معانى غامضة عما يحدث للنساء من أشياء غريبة.

نادتنى أمى فخجلت أن أدخل وكل هؤلاء النسوة معها ولم أرد، فنادتنى مرة أخرى بصوت عال، وجذبتنى خالتى سارة من يدى، وعندما دخلت الغرفة كانت النافذة مغلقة والمصابح الكهربائى متقدًا فى داخل كمثراه الزجاجية المورقة المفتوحة وزجاجها بلون اللبن. وفغمتنى روائح كثيفة مختلطة من الرضاع والمغات وفوح الأجسام النسائية، وكانت أمى نصف مضطجعة مستندة بظهرها إلى مخدة طويلة على قائم السرير ذى القضبان الحديدية اللامعة المتجاورة، وإلى جانبها لويزة الملفوفة فى قماطها، مغمضة العينين حمراء الوجة، وذهبت إلى أمى أخطو بين النساء اللاتى تربعن على «الكليم»، تحت السرير، فى ثيابهن المشجرة المقورة الفتحة عن أثداء مستريحة وفيرة وانكشفت أفخاذهن قليلاً من فوق الركبة، وهن يشربن المغات ويثرثرن بعضهن مع بعض. وسمعت الست وهيبة تقول لامرأة ممصوصة الوجه حادة الشفتين لا أعرفها: لا ياختى،

اسم الله عليه ده زى الملاك اسألينى أنا. ووقفت أمامها صامتًا وقلبى يدق فمدت يدها تحت المخدة وأخرجت صرة صغيرة جدًا ملفوفة بقطعة قماش بيضاء معقودة بعقد كثيرة وأعطتها لى فأحسستها طرية كأن فيها قطعة لحم حية، واقشعر جسمى، وقالت لى أمى أن أذهب، فى صفار الشمس، إلى تقاطع شارع الكروم بشارع سيدى كريم، واقف أمام بيت روزا الخياطة بالضبط فى وسط الأربعة مفارق، وارميها بعزم ذراعى، فوق، فوق خالص..

ظللت ممسكًا بالصرة الصغيرة اللينة الجسم وذهبت إلى شرفة بيتنا المطلة على إسطبل الخيل وحوش العربيات «الحنطور»، وعندما رأيت أن الشمس تميل للغروب على المحمودية نزلت جريًا، وفى يدى الصرة، وكنت سمعت أمى تقول وهى لا تعرف أننى أسمعها إنه «خلاص» أختى لويزة، ولم أعرف ما معنى الخلاص ولكن خيالى النشط صور لى أنه شىء ينزل مع البنات فقط عند الولادة ويجب الخلاص منه وأن أختى الوليدة لن يكون لها خلاص من عذابات النار بعد الموت إلا بذلك. ولكن السؤال الذى كان يحيرنى هو كيف أن هذه المفارق أربعة، هل هى أربعة شوارع، يعنى؟ لكنهما شارعان فقط، ولم أستطع أن أحل هذا اللغز، ووقفت بالضبط فى نصف تقاطع الشارعين وكان بيت روزا الخياطة من دور واحد، وعريض، وله جنينة واسعة أمامها سور من قوائم الخشب القصيرة وله باب خشبى بضلفتين، وفى الجنينة تعريشة عنب كثة بالورق العريض والأغصان الملتوية وأمام الجنينة رصيف

مبلط بالبلاط الأبيض يفتح عليه باب البيت ونوافذه المنخفضة الكبيرة وكان البيت صامتًا تمامًا، ومظلمًا فى هذا الوقت من النهار، فقد كانت الخياطة العجوزة الشامية الأصل تعيش وحدها وكنت أعرف أن البنات يأتين للشغل عندها فى النهار ويذهبن لبيوتهن على العصر وكنت أخاف قليلاً من المرأة الشمعية الوجه الحادة الأنف، بشعرها الأبيض الجاف الملفوف دائمًا فى منديل ملون تربط عقدته خلف رقبتها.

كان الشارع خاليًا من الناحيتين، على طول البصر. كل شىء فى آخر النهار كان هادئًا ومهجورًا وساكتًا تمامًا، والنخيل فى جنينة روزا الخياطة يهتز سعفه بصوت خشخشة خافتة.

رميت بالصرة الصغيرة التى كنت أمسكها طوال الوقت كأننى خائف من قوتها الكامنة ومقدرتها على الإيذاء، وطوحت بها ذراعى إلى أقصى ما أستطيع. وارتفعت اللفة الصغيرة الطرية فى الهواء، عاليًا باندفاع كأنه آت من داخلها، ارتفعت، بقوة، ثم اختفت، تمامًا. كأنها ذابت، فى انطلاقها إلى أعلى، إلى بعيد، كأن شيئًا ما، غير مرئى، قد التقطها فى الفراغ وراحت.

استدرت على وجهى، وانطلقت أجرى إلى البيت بأسرع ما تحملنى قدماى. كأننى أفر.

فى حصة الدين كان الأولاد المسلمون يذهبون إلى غرفة المدرسين حيث يتجمع زملاؤهم من الفصول الأخرى، ويعطيهم

خليفة أفندى درس الدين وأسمعهم، من الشباك، يقرءون القرآن معًا بصوت عال منغم له إيقاع ملىء يحتشد له قلبى بالرهبة، وأحسدهم وأريد أن أكون معهم. أما نحن فيدخل إلينا جرجس أفندى مدرس الإنجليزى، وكان صعيديًا وقصيرًا ونحيلاً وله وجه قاس أسمر، ويحفظنا قانون الإيمان والوصايا العشر ومزامير داود وموعظة الجبل وكتابًا صغيرًا فيه أسئلة وأجوبة. وفى إحدى الحصص وقف أنطون زخارى فجأة وقال للمدرس بصوت عال: أفندى الوصية الثالثة مش فاهمها يعنى أيه لا تزن؟ فضحك الكبار ضحكا مكتومًا وقال جرجس أفندى بهدوء: طب أجعد.. هى دى اللى أنت مش فاهمها؟ لما تكبر ها تعرف، مستعجل ليه؟ وكنت أنا، حقا، لا أعرف، بأى شكل، ومع ذلك فإن شيئًا ما يخجلنى أن أسأل.

بعد أن خرجنا من المدرسة، وقفت مع الأولاد الصغار أما الفرن، حتى يمر الترام فى الشارع بصلصلته البطيئة وعرباته الزرقاء اللامعة، وسألتهم بصوت فيه تحد وشيطنة: حد فيكم بقى يعرف يعنى أيه بيوت الدعارة؟ كنت قد قرأت خبرًا فى «الجهاد» عن تفكير الحكومة فى إغلاق بيوت الدعارة، ولم أفهم ماهى هذه البيوت، وقلت لنفسى إنها لابد البيوت القديمة التى سوف تسقط على أصحابها. ولم يعرف أحد ما هى، وسكتوا، ومع ذلك لم نسأل أحدًا.

فى يوم الإثنين من الأسبوع الأخير للمدرسة كان الحوش الصغير دافئًا ومشمسًا فى فسحة بعد الظهر، وكان الكبار متجمعين معًا.

سمحوا لنا، لأول مرة، أن ننضم إليهم فى حديثهم الخافت الحار عن مغامراتهم فى كوم بكير يوم الأحد الذى فات وكأنهم قد اتخذوا قرارًا باننا كبرنا نحن أيضًا ونستحق هذه الجائزة، إجازة الصيف الأ خير توشك أن تأتى، فمن يدرى هل سنلتقى، ومتى، بعدها فمن حقنا الآن أن نعبر العتبة التى كانت محرمة علينا. وقفنا فى حلقة متضامة متزاحمة نسمع بلهفة، وقلوبنا تدق، عن أشياء مبهمة تمامًا على، ولا أستطيع أن أتصورها مهما حاولت، ولكننى أحس لها سحرًا لا مقاومة له. وبينا انطلق انطون زخارى يهمس بصوت حاد، وسريع ومبحوح قليلاً كان الأولاد يقاطعونه ويهتفون بأصوات فيها انكسار البحة الأولى. ويضمون رءوسهم بعضها إلى بعض ويدورون حوله ويستحثونه بالسؤال عن التفاصيل. كانوا يعطوننا نحن الصغار ظهورهم كأنهم وقد تركونا ندخل الحلقة نفضوا أيديهم منا. وكان انطون رفيعًا جدًا وطويلاً ويداه عصبيتين وعيناه ذكيتين قلقتين تدوران حولنا كأنهما لا تريانا وهو يصور بيديه وتقاطيع وجهه المسنونة وانفه الكبير كيف أن المرأة البيضاء السمينة أعطته ظهرها وانحنت وعلمته شيئًا ما لم التقط، فى وسط الزحمة، ماهو، ولا كيف يكون، ولم أستطع أن أتصور ماذا كان يحدث عندئذ، وإن كنت أهتز بنوع من الروع، والمتعة الخفية بخيالات غير محددة، أما غريب فقال إنه دخل على واحدة خلعت له قميصها الحرير الأبيض وكانت عارية تمامًا تحته، وسألته عن اسمه وأين يسكن ولما عرفت أنه من غيط العنب ومن شارع الكروم تركته يفعل ذلك مرتين إحداهما بعد الأخرى ولم تأخذ منه أى مليم وقالت له

إن اسمها حسنية وأنها سكنت مرة فى شارع الكروم وإنها تراعى الأصول وعليها دين لناس طيبين هناك تريد أن تؤديه، وقال إنها كانت رفيعة وسمراء وملتهبة كالنار وحنونة أيضا، وكان صوته المترفع البارد يرتعد قليلاً على غير عادته وكأنه خجل من ذلك. وقال إنها طلعت أو نزلت شرموطة بنت كلب وانه سيرجع إليها ويعطيها فلوسها على الجزمة ويضربها إذا فتحت فمها، أيضا، وكنت أستمع للحكاية وقلبى يرتجف مليئًا بالغموض ولم أصدق انها هى، أبدًا.

وقررنا نحن الصغار يومها ونحن نعود نحمل كتبنا ولا نريد أن نلعب «البلى»، أننا عندما نكبر ونروح الثانوية، سوف نذهب إلى كوم بكير نحن أيضا ونطرق هذا المكان وبيوته السرية الواعدة بمتعات وملذات جنونية لا نعرف طعمها ولا نتصورها، حتى. وكنا نعرف مع ذلك أنه يقع بين السيالة وشارع توفيق قريبًا من كركون اللبان وقال جابر إنه يعرفه بالضبط.

وتعهدنا أن نذهب، جميعًا، أنا وجابر وفرنسيس وإسكندر حتى لو تفرقت بنا المدارس فى الثانوى، ولم نف بهذا التعهد أبدًا.

كان جابر أكبر جماعة الصغار، ولكنه من الكبار أيضًا، يضع رجلاً هنا ورجلاً هناك. وبعد الامتحانات التى عقدت فى تلك السنة، لأول مرة فى حياتى، تحت خيمة عالية نصبت فى الحوش الكبير ولها فتحات وقماش ملون ومزخرف كقماش شوادر الأفراح والمآتم، قال لى جابر إن عنده سحارة ملآنة بالمجلات والكتب

والروايات فقلت له إننى أريد أن أقرأها، كلها، فى الإجازة، فقال لى تعال، ووصف لى أين بيتهم.

كان بيتهم فى شارع ١٢ ناحية كرموز، دخلت من الباب الخشبى من فوق عتبة رخامية ممسوحة، وفوجئت بالسماء فوقى، وكان فى جانب الحوش الذى جرت فيه الفراخ من أمامى، فرن موقد جلست أمامه سيدة بملابس سوداء وطرحة على أطرافها غبار أبيض من الدقيق، تخبز. سألتها عنه فرحبت بى وقالت لى هو انت صاحبه؟ يا أهلا يا ضناى ونادته بصوت عال، ودخلت معه إلى البيت وكان غرفة واحدة فقط، وكان أبوه راقدًا على «كنبة» ومغطى بملاءة مصنوعة من خرق ملونة قديمة مخيطة بعضها إلى بعض ويسعل بشدة، وركع جابر أمام الكنبة وفتح لى غطاء قائمًا عموديًا يفتح إلى جنب فى بطن «الكنبة» التى كان يرقد عليها أبوه، وأحسست بحرج شديد ونوع من الإثم. ولكن الرجل العجوز قال لى اتفضل يا بنى خد اللى أنت عايزه دا جابر أخوك وكلمنى عنك كتير ربنا يخليك يا بنى ويديك الصحة أنت واللى زيك يارب يا كريم. ومد جابر يده استخرج أكوامًا من الكواكب وكل شىء والدنيا والمصور واللطائف وروايات جرجى زيدان وروكامبول، وجلست على الأرض أمام الكنبة أنتقى منها ما لم أكن قد قرأته من عند الست وهيبة أو عند أصهار خالى سوريال، وتشجعت فمددت يدى أيضا تحت الرجل الراقد بضعف واستسلام، مغمض العينين شاربه الكبير مصفر تمامًا وجهه متهضم جاف وملىء بالتجاعيد الخشنة، وخرجت يدى برصة ملفوفة بدوبارة من أربعة كتب ذات جلدة ورقية خشنة صفراء،

والكتاب الأول عليه رسم ساذج الخط ومغو لامرأة جالسة على ركبتيها، تضع فخذيها تحتها، قدمها، فقط، بأصابعها المتجاورة، ظاهرة تحت ثوبها، وإلى جانبها خفها العربى مدبب الطرف، وهى ترفع ذراعها المحملة بأساور غليظة وتشير بيدها إلى شيخ له لحية طويلة، مربعة، مفروشة على صدره، متربع، ظهره إلى وسادة ويسند رأسه إلى يده، أما المرأة فثدياها أحدهما قائم ومكور والآخر متهدل ومستدير والحلمتان قائمتان بارزتان منهما، وامرأة أخرى تجلس على البساط وتنظر إليهما بنظرة رعب.

وقرأت أعلى الرسم «ألف ليلة وليلة» بالخط الرقعة، وعندما فككت الدوبارة رأيت الصفحة الأولى تقول إنها ذات الحوادث العجيبة والقصص المطرية الغريبة لياليها غرام فى غرام وتفاصيل حب وعشق وهيام بالصور المدهشة البديعة من أبدع ما كان ومناظر أعجوبة من عجائب الزمان، وخفق قلبى بشدة. سمعت عنها من الكبار، وتردد جابر فى أن يعيرنى الكتاب ولكنى أغريته بمجموعتى من «عشرون قصة» ورواية سافو، فوافق على أن يعطينى الجزء الأول فقط، وعندما أعيده يعطينى الثانى، وهكذا، وعدت إلى البيت أجرى جريًا من شارع إلى شارع، فى نشوة يطير بها جسمى، حافيًا. تخففت من الشبشب أمسكه فى يدى، مع الكتاب ومجلات الكواكب، ودخلت البيت بعد أن نفضت رجلى من التراب ولبست الشبشب وأخفيت الكتاب تحت جلابيتى الخفيفة وضممت ذراعى، وفيها المجلات، عليه..

وفى الغرفة الطويلة ذات الشرفة الخشبية المقفلة المسقوفة التى تطل على أسطبل عربات الحنطور، رقدت على الكنبة الإسطمبولى، جنب مائدتى الرخامية البيضوية المفروشة بالجرائد التى كنت أذاكر عليها دروسى، والجرامفون ذى البوق ورسم الكلب. انزلقت قدماى إلى أرض ألف ليلة ولية، ودخلتها، ولم أخرج منها حتى الآن.

ذهبت فجأة إلى قديم الزمان وسالف العصر والأوان، ودخلت قصر شهريار ملك ساسان وأخيه شاه زمان ملك سمرقند والعجم، ورأيت امرأته تواقع العبد مسعود مع جواريها العشرين اللاتى يواقعن العبيد العشرين وما صاحب ذلك من بوس وتقبيل وما تلاة من تنكيل وتقتيل، والأميرة شهرزاد تنزل من «أتومبيل باكار» مقدمته مربعة الشكل ولامعة، أمام سينما محمد على فى شارع فؤاد، وينحسر الفستان الحرير عن فخذيها السمراوين تنفرجان عندما تهبط فأرى العتمة الغامضة بينهما. أفزعتنى المردة الهائلة تخرج من القماقم، وركبت الخيل الحديد تطير على عنان السحاب، وهبطت إلى مدن الأبنوس والنحاس الخاوية من البشر، وانحدرت على السلالم الأربعين إلى الأقبية الخفية والسراديب فوجدت القردة والدببة الشبقة تعاطى النساء من اللذة ما لم يعرفه بشر، وارتقيت ظهور الجن العمالقة وركبت البساط السحرى إلى جزائر الهند والصين، ودر صدرى بالشفقة والخوف على أولاد المساتير المسخوطين كلابًا تنبح وتتغطى منهم الحريم حياء والمسحورين حميرًا وبغالاً تعتل الأثقال وتدور بأحجار الطواحين الثقيلة فى

سرجة معتمة نازلة تحت الأرض والرجال الذين لا ينامون أبدًا يضربونها بفروع من خشب الجميز، والزيت يتقطر ويرشح ببطء فى طسوت واسعة جدرانها الصفيح سوداء ولزجة، وعرفت جب الخصى بالسكاكين واستلال المحاشم وصب الزيت المغلى على الجسم الحى المتنزى وطيران الرءوس على حدود السيوف والموت صبرًا فى الغيران والآبار والزنازين والحبوس، والعبيد يكدون وتنقصم ظهورهم فى الوديان والمحاجر والأهوار، والجوارى الرافهات اللاعبات بالدف والعود، وقتلى الحب، وصرعى المكائد، والأياء يؤخذون بجرائر الماكرين، والصعايدة يحملون شوالات الدقيق البيضاء الدسمة الانبعاجات على ظهورهم القوية القضيفة التى لا يكسوها إلا خيش شوال مقطوع الجانبين تبرز منهما أذرع عارية سوداء معقدة العضلات، والبنات الحيات، والبنات الغزلان، والشطار والعيار، والعماليق والبطاريق، والقسوس والنصارى بقلانسهم وزنانيرهم وصلبانهم والسحرة والمجانين والدراويش والهائمين، والمجوس عبدة النار، والسود عبدة الأصنام، والقراصنة. والربابنة، والقهرمانات والطواشى، والرهبان والمجاهدين والصناع والجواهرجية والصياغ والمزينين والحمالين والخلفاء والوزراء وشهبنادر التجار، والبنات الصغيرات صدورهن ضيقة ومخسوفة وشعورهن الخشنة ملفوفة بالمدورة البيضاء غير النظيفة ينحنين طوال النهار بالإبرة والخيط وجوههن الشاحبة تلتصق بالقماش الأسود فى مشغل روزا الشامية يفقدن عيونهن فى عتمة الغرفة الطويلة المنخفضة السقف، وتلوت الرقى والتعازيم وحللت الطلاسم

وحملت الأحجبة وملست على العمدان وأشعلت المجامر ولبست الخواتم السحرية ووجدت حجر الفلاسفة ونشقت البنج والنشوق وسففت العقاقير والزرنيخ والجير ولعبت بالدرر واللآلىء والزبرجد والياقوت وتنزهت فى البساتين ذات الأشجار الباسقة الفارعة والعريضة والعقيمة والمثمرة والمتشابكة والجرداء. النخل والجميز والتين الهندى والسنط والكافور والنبق وأم الشعور، واغتسلت فى الحمامات، وانسربت فى الدهاليز والرواقات ونمت فى الخانات على المصاطب والسرر المفروشة بالحرير، ورميت بالسهام والرماح من الأبراج والحصون، وامتطيت صهوات الخيل فى الإسطبلات بينما الرجال يحكون روث الخيل الداكن اللون طبقات مكومة فوق طبقات، والروث الجديد فوقها مدور مصفر اللون يصعد منه البخار، وأبحرت على سفن كالجبال تمخر البحار إلى الهند والسند وجزر واق الواق، وكنت هناك والتراموای يدهم الصبيان وتطير أشلاؤهم الدامية، سيقانًا عارية مقطوعة ورءوسهم تتدحرج على حجر البازلت الأسود النظيف، انسللت أمام زرائب الجاموس المظلمة، أرضها الترابية عليها أكداس من التبن الأسود المعجون بالروث ولها رائحة نفاذة حارقة للأنف يعمل فيها رجال سود ليس عليهم إلا سراويل كالحة من العبك متصلبة بالنفايات الجافة عليها وصداريات ذات صف عمودى من أزرار صغيرة مدورة كثيرة، كثيفة القماش من الوسخ يكسحون الروث بأيديهم يملأون به جرادل ضخمة مدورة ويلقونه فى أكوام لزجة جنب الباب ويضربون ما بقى منه بالتبن المكدس على الأرض، ونساؤهم، بعيونهن الجائعة

وملابسهن السوداء الملوثة بالبلل، يحلبن الضروع الثرة باللبن الذى يسقط له خرير فى الأسطال المعدنية اللامعة، ثم يركعن أمام أكوام الروث ويصنعن أقراص الجلة يفرشنها فى الشمس على أرض الشارع.

وعندما عدت تجولت فى شوارع بغداد متنكرًا مع هارون الرشيد، وسمعت شجو الأغانى مع الموصلى وبراعة القريض، وروعتنى فاجعة البرامكة وأحسست عنقى فى يد مسرور السياف وذراعى ورجلى مقيدة بالكلاليب والجنازير، وصارعت الأحناش والتنانين وفتحت الكنز المرصود عن ذهب وماس ولؤلؤ منثور، وأكلت من أصناف الطعوم المطبوخات والمشويات والحلويات والنقل من لوز وجوز وبندق وزبيب وحسوت القهوة والشربات والنارنج والنبيذ الأصهب كالزعفران، وشممت الآس والياسمين والنرجس والقرنفل، وعجبت من أفعال الرجال فى ثياب النساء والنساء فى زى الرجال المحاربين، وعاشرت العفاريت الكفرة و الجن المؤمنين والغلمان كالبدور والقيان كالشموس وعرائس البحار والبنات الطيور اللاتى يخلعن ريشهن فإذا لهن حسن يدوخ العقول ، كأنهن الحور العين، ونعمت بملمس القمصان البندقية، الذهبية منها والمشمشية والمطرزة بأسلاك الفضة، على نساء لهن شعور كالحرير ووجنات كرحيق الأرجوان وأنوف كحد السيوف وشفاه كالعقيق أو حب الرمان، وأعناق تلعاء كالعاج وصدور كبلاط الحمام عليها نهود كفحول الرمان أو حقاق المسك والريحان، وخصور مختصرة كأنها من وهم الخيال وبطون كأنها العجين الخمران مكسورة بشقائق

النعمان وأكثر بياضًا من المرمر كل عكنة من أعكانها تسع أوقية من دهن اللبان وفككت تكك السراويل المعقودة على فصوص الزمرد والمنقوشة بأشعار الهوى والتدله والتحريم، فإذا سيقان من رخام دافئ مسنون فوقها كثبان من البلور ناعمة ومربربة واعدة بالنعيم، وأفخاد كالعمدان ألين من الزبد وأنعم من الحرير، وجلت بيدى فى جميع الجهات حتى وصلت إلى قباب كثيرة الحركات والبركات عرفت من أسمائها خان أبى منصور وحبق الجسور والسمسم المقشور، وفهمت أسرار البوس والمص والعض والغنج والشهقات واشتعل جسمى بالشوق فتيقظت واشتددت وتوتر البرعم النابض المنتصب وجلجلت نواقيس الساعة وسطع العالم للمرة الأولى بلب المعرفة وانهمر الطوفان ووجدت نفسى فلكا طافيًا على الغمر وليس بين أمواج اليم العاتية من طريق، ومازلت أطفو وأغوص.

٥ ـ غربان سود فى النور

الطفل يحس جسمه يتيقظ فجأة فى الليل، فى غرفة النوم الدافئة المغلقة الباب. ويجد أنه على سرير عال ثقيل بالأغطية، ليس سريره. وأمه بجانبه، مرتفعة الجسم، تملأ السرير والغرفة. ويعرف أن أباه ليس هنا، ولا يعرف أين ذهب، ولماذا هو غائب لا ينام هنا، ويتحرك الطفل على يديه وعلى قدميه،، يلف من تحت ساقى أمه النائمة التى تتنفس بهدوء، بصوت مسموع وينزل من على هذا السرير إلى صندوق كبير لا يكاد يراه فى ظلمة الليل، مغطى بالألحفة والملاءات المطوية الناعمة التى تتلقى سقطته عليها من غير صدمة.

لماذا كان يريد أن يذهب إلى سريره، مُسَوًّى، نظيفًا، لم ينم عليه الليلة، عريضًا وموحشًا؟

عندما صعد من على الصندوق إلى سريره الخالى، وقف غير ثابت القدمين على المرتبة الطرية، ومشى، يهتزّ، حتى جاء إلى النافذة المواربة، ونظر منها إلى الشارع، تحت. كانت النافذة عالية جدًا.

عمود نور فى الشارع الخاوى يتّقد بالغاز الأبيض الساطع شعلته لا تكاد تهتز فى داخل فانوس الزجاج المربع النظيف، فَتْحَتُه من تحت، والنور يسقط من العمود على شجرة كثة الورق، خضرتها، فى الليل، تلمع بضوء الغاز، وتحت العمود، بعيدًا جدًا تحت، يقف العسكرى، بحلته السوداء أزرارها الصفراء تومض وتنطفئ، والبندقية الطويلة، ترتفع من وراء ظهره مصوبة إلى أعلى، إليه مباشرة، والأبواب كلها مغلقة أمامه، والشارع واسع أسود الأرضية وطويل جدًا. صدر الطفل ممتلئ بدقات قلبه العالية، وهو يرى على الشجرة وبين الورق المتراكب فى الظل والنور، سربًا من الطيور السوداء، طويلة الجسم، كثيرة، كثيرة بلا عدد، واقفة، صامتة، ظهورها مقوسة قليلاً ومناقيرها مطبقة وممدودة إلى الأمام.

يسقط إلى الخلف، يرى خطوط النور البيضاء، متجاورة، مستقيمة تقع على ظلمة سريره من خلال خصائص النافذة.

يحسّ أمه تثب إليه من السرير الآخر، تحيطه بذراعيها العاريتين، نعومتهما على ظهره، ليس فيهما أمان، بعد، وتقول بصوت خفيض مُلِح: اسم الصليب اسم الصليب، وتحتضنه إليها فيغمض عينيه ويدفن رأسه فى صدرها الغنى لا يكاد يحتمل دق الدم فى صدره.

يقول لأمه بلهفة: فين بابا؟ فين بابا؟ فتهدهد خوفه ياختى، يا يسوع. مالك مَسْرُوع كده، إيه اللى قوّمك بس؟ طب تعال، تعال نام واتخمد كده. سرعتنى. فيسأل ثانية: فين بابا؟ فين بابا؟ ويحس عينيه تغمضان.

وبعد أن ضربته الحياة كثيرًا، وأحبطته، ولانت له أيضًا، وأمتعته بعمق، مثل كل الناس، ظل يرى المشهد نقيًا، كأنه حدث بالأمس، كأنه يحدث الآن.

فى قاع المياه المضطربة حصاة بيضاء، مدوّرة، ناعمة، لم تترسب عليها شائبة من عكارة السنوات وطينتها .

ظل يحتفظ به طوال عمره، يتأمله ويسترجعه، يهدهده فى خِفّة. ويعتقد انه أول ما يذكر، أول ما بقى، واضحًا، وحاضرًا، وفعّالاً. ويظن أنه كان عندئذ فى الثالثة من عمره بالكثير بل يجب أن يتصور انه كان فى الثانية من عمره حتى، ولكنه يقول: الثانية؟ غير معقول. لا أظن. هذا مبكر جدًا، أليس كذلك؟ فى الوقت الذى يظل فيه أميَل إلى هذه الفكرة لا يتخلى عنها، ويقول: ولم لا؟ صحيح. نعم. كنت فى الثانية، أو نحو ذلك على أى حال، صحيح... ولا يستطيع طبعًا أن يحسم الأمر، بل ينظر إلى الطفل الذى كانه، ويبتسم قليلاً، وكأنه آخر، وإن غير غريب. وما زال يشعر بخوف ذلك الطفل، ومضضه، وبحثه الملتبس.

قال لنفسه: مَنْ هذا الطفل؟ وأين هو؟

وقال: ومَنْ الصبى الذى كان بعد عشر سنين، وبعد أن طفا فُلكًا متطوحًا على طوفان جسده، وحده، تتخبط به أمواج ملتطفة وساطعة وملتبسة؟

انتقل أبواه، مرة أخرى، من بيت إلى بيت، بحثًا عن شقة إيجارها أرخص، وأقرب إلى العباسية الثانوية، وهربًا من الحجز

على عفش البيت وفاء للأجرة المتأخرة المكسورة شهرًا على شهر، حتى استقروا فى بيت عبده فى محرم بك.

وانقطعت صداقاته بزملاء النيل الابتدائية فى غيط العنب وكان يحس نفسه وحيدًا وغريبًا بين جمهرة تلاميذ العباسية الثانوية، كثيرين جدًا، ملابسهم أغلى وأحسن، كلامهم وطريقة سلوكهم تختلف، والمسلمون فيهم أكبر عددًا بكثير. وتعلّم ان يأكل، حسب الأصول، فى مطعم المدرسة الفواح برائحة الأكل الشهى والمدوّم بلغط الأكل البهيج، الطبيخ والأرز واللحم أو الفراخ والحلو كل يوم، وقبل الأعياد هناك الأكل الصيامى اللذيذ للأقباط، مخصوص، أما فى رمضان فيصرف لهم سندويتشات، موضوعة فى علب ورق بيضاء. وفى الفُسَح الطويلة بعد الغداء دخل فى زمالات وصراعات، ولعب الكرة الشراب وتسلق أشجار الجنينة الممنوعة فى بيت الناظر، وضرب وانضرب، وعرف المكتبة الفنية وغرق فى كنوزها، وطُرد من المدرسة لأنه لم يدفع قسط المصاريف وعاد بعد أن دبر أبوه الجنيهين و ٣٠٠ مليم وأخذ بها إيصالاً رقيق الورق أحمر اللون.

كانت أمه قد أطلت من البلكونة على البائع الذى كان ينادى من تحت «بيكا . بوتيلْيا ..» وقالت له: تعال. وكان صعيديًا يلف على رأسه عمامة من قماش أسود وحول رقبته الطويلة كوفية سوداء، وساومته طويلاً وقال لها صلّى على النبى، طَبّ مجّدى سيّدك، ما هى جايبة حَقّ المشال. حتى رضيت بأن يأخذ البوريه، بمرآته البلجيكية الثقيلة، على جانبيها دواليب صغيرة أبوابها الخشبية مشغولة ولها

زجاج محبب أصفر وأحمر داكن ورخامته المحمرة مجزعة بتشريحات بيضاء متشعبة، وأدراجه التى كان يرسم على خشبها الداخلى الأبيض، وهو طفل، رسوم رجال لهم وجوه دائرية مقطوعة فيها عينان وشَرطة فم وأيد وأرجل كالعصى، وكتب عليها اسمه من غير حروف المد كلها، بحروف منفصلة م خ ء ل. وذهب الرجل وعاد معه «شيال» صعيدى ثقيل الجسم فَكّ أجزاء البوريه وحملها على ظهره ونزل بها السلالم.

كان جابر هو الصديق الوحيد الذى ظل يأتى من غيط العنب. كان قد قضى العام كله فى المدرسة الزراعية فى شبين الكوم، حيث عاد أبوه، ما زال يعانى من المرض، والكحة، ولكن عنيد، وصلب العود، ليعمل مزارعًا فى عزبة البيه القريبة من البلد، وقال له إنه سقط فى امتحان آخر السنة، وأنهم عادوا إلى بيتهم فى غيط العنب، وأنه اشتغل ظهورات فى البلدية ويكسب الآن عشرين قرشًا فى الأسبوع، كل يوم سبت، نعمة من عند ربنا، وكان يأتى إليه بأعداد رجوع من مجلة أبوللو، وروايات الجيب، وأهداه صورة قطعها من مجلة أبوللو، على ورق حِسّه ناعم، بألوان مضطربة، وفى أسفل الورقة علامات خروم الدبابيس التى كانت تثبته بالمجلة، وعنوان: نفرتيتى والمثال.

نفرتيتى تجلس على منصة عالية بدرجتين عن الأرض، وبجانبها أصص زرع بنفسجى وحشى مهتَدل تحت ستارة ثقيلة زرقاء عليها رسم أعواد اللوتس القائمة الطويلة تنتهى بازدهار مقوس تخطيطى

الزخرفة. تاجها الأزرق المقطوع السطح معقود بشريط مذهّب التطريز، وكأنها تنظر إلى ما وراء الصورة، وجهها صارم ودقيق فيه شبه ابتسامة، وصدرها عارٍ تمامًا لا يغطيه إلا عقد عريض متعدد الحلقات بالأزرق والأصفر وثدياها صغيران وقائمان فى دورانهما ليونة متماسكة مخروطة، وينسدل على فخذيها ثوبها الحريرى الأبيض اللدن الطيات. أمامها، من بعيد وإلى تحت، المثّال. يضع اللمسات الأخيرة فى تمثالها، جالسًا على كرسى بغير ظهر وإحدى ركبتيه مثنية، نصف جسمه العلوى عارٍ خشن الأضلاع وشعره جَعْد مربوط بعصابة رفيعة من القماش الأبيض، ويلفّ على حقويه إزارًا معقودًا بحزام قماش أحمر، لا يصل إلى ركبتيه العاريتين. وهو يرفع إليها عينين عابدتين. وبجانبه قِصاع الألوان الصغيرة وفُرَش التلوين، والقادوم والإزميل والمساطر والإبر الطويلة وسائر عدّة مهنته.

زرقة الحلم الداكنة هى لون العالم.

وعلى ظهر الورقة البيضاء الأملس مكتوب بخط كبير: إهداء من جابر بسيونى إلى ميخائيل قلدس ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨، فى داخل إطار مستطيل له ثلاثة خطوط بالمسطرة والقلم الرصاص الذى بهت الآن.

كان أمام بيت عبده، فى محرم بك، فيلا قديمة من الحجر، مربعة، مسطحة الجدران، ووراءها حديقة لا يرى منها، خلف البناء المتين، إلا أعالى النخل وشجر المنجة والتوت الداكنة. ولم يكن

يعرف عن أصحاب هذا البيت إلا انهم أغنياء، مترفعون، لا يختلطون بالجيران بل لا يكلمونهم، وانهم أم عجوز لم يرها قط، وولد فى مثل سنه كان يخرج إلى البلكونة، فى مقابل بلكونة بيتهم، كثيرًا، وكان يذهب للمدرسة فى سيارة فورد سوداء عالية ومربعة، واخته الأكبر منه بعدة سنوات، جميلة جدًا، ولم يعرف أسماءهم ولا جرؤ أن يسأل، وكان يعرف أنهم من أصل تركى.

كان يقف فى البلكونة المطلة على الفيلا، أعلى منها قليلاً، ساعات. لا يفعل شيئًا، ينتظر فقط أن تخرج إلى الشرفة المقابلة.

وكانت لا تخرج إلا لحظة واحدة، ثم تدخل على الفور.

كانت بيضوية الوجه، ناصعة البياض، شعرها الفاتح ينسدل على كتفيها وتلمه وراء عنقها بربطة زرقاء رقيقة، ودائمًا تخرج فى «روب دى شامبر» حريرى، أزرق سماوى عليه رسوم ورد أحمر وأصفر كبير، ملفوف على جسمها اللدن، سابغ يؤكد انسياب ساقيها الطويلتين، وكان لحذائها الصغير ذى الكعب العالى قليلاً وقع على بلاط شرفتها، يسمعه فى الشارع الساكت.

يحبها جدًا، ويحلم بها أحلامًا مبهمة غير متحددة، ولم يفكر قط فى أن يعرفها أو تعرفه أو تنعقد بينهما علاقة من أى نوع. فقط ينتظرها، وينظر إليها، وترفع إليه عينيها أحيانًا، ويحبها جدًا.

الحلم لم ينطق. اسودت شفتاه.

نعمتى بئر عينيها عميقة تومض بلمعة سوادها، وكان الصراع بين جسدينا لا ينتهى، ومعركة الحنان بيننا لا شفاء لها، جسمها

كالعجين الأبيض المتماسك، والسواد الشفاف يبرق نسيجه المُهفْهَف كالموج، بالليل، على رمالها الدمثة، وهى تنفتح عن ربوة فينوس المتحدرة، شِقّها الطرى ملتئم بنعومة وشوق، وشفتاى منطبقتان على ثمرة البلح الصغيرة الداكنة، استطعم سُلافتها المسكِرة، وأنين المتعة كأنين الموت، لم أجد فى الجسم الإجابة التى أنشدها ولوعتى إليها لاعجة، أبدًا، الطائر الأبيض الرءوم يطبق علىَّ بجناحيه الأسودين الوثيرين، يرفرفان، حنانه قاتل ولا غنى لى عنه واختناقى فى الريش اللين كأننى أريده وآوى إليه. الغراب الحداة الأنثى الخصيبة المعطاء، بَذَلتْ لى جسم عمرها، وعرفت فى صدرها الطيّب قوة الحب والمقدرة على البقاء، فأين مهبّ الهواء الفسيح فى الأفق الواسع المفتوح؟ وأين عصف الرعد بموسيقى الحرية والفرح، ومياه المطر الهامرة، مدرارًا مُنبرِثة؟ عدت إلى حضن طائرى بعد أن أحرقنى عقيق برق العشق، بعد أن اشتعلتُ فى نار العليقة القائمة أبدًا لا يبقى منها إلا جذع أسود الجمال، متفحم وصلب ومستضىء، لا يسقط ولا ينكسر.

كان أبوه أيامها قد ترك عمله عند الشيخ المراغى تاجر البيض والبصل والمسلى فى شارع انسطاطى بسبب قضية ما ظلت غامضة عليه حتى الآن، وكان بالكاد يعمل حسابات التجار الآخرين باليومية، أو بالمقاولة، يشتغل يومًا أو يومين، أو أسبوعًا أو أسبوعين ثم لا يجد شغلاً بالأسابيع، ولكنه ينزل كل يوم على الصبح، فى ميعاده، بعد أن يشرب قهوته التى يصنعها بنفسه على «السبرتاية» ولا يعود إلا على المساء. جفّ وجهه ونحل وغارت عيناه الثاقبتان

المليئتان بالذكاء واليقظة، ولم يعد يشرب خمسينية «الكونياك» على العشاء إلا فى النادر، ولكنه ظل أنيق الملبس، أمى تنظف له «البالطو» بالفرشة صباح كل يوم، والجلابية المفتوحة الحرير «السكروتة» مكوية دائمًا تهفهف، شقها مطوىّ على الشق الآخر بحزام مضفور دقيق، والطربوش حادّ الدوران، جافّ الحافة من غير أثر للعرق ليس عليه ذرة غبار.

وقرأ فى اللطائف المصورة أن حضرة صاحب السعادة مراد سيد احمد باشا عيّن وزيرًا مفوضًا لمصر بألمانيا بعد أن كان يشغل هذا المنصب فى بلجيكا خلفًا لسعادة سيزوستريس سيداروس باشا وترك اثرًا جليلاً فى التمثيل الخارجى، وتأمل قليلاً فى صورته، بالطربوش القصير والنظارة المدورة اللامعة والشارب المشذب، والياقة «البمباغ» والمعطف «الأسمو كنج»، ممتلئًا باعتدال وكبرياء.

عاد أبوه مرهقًا، هالكًا من البحث والفشل، وسمع أمه وهى قاعدة على الأرض فى الفسحة تقول باللهجة الصعيدية التى تعلمتها منه رغمًا عنها: يا حِزْنى يا حِزْنى... يا ميلة بختك يا سوسن.. ودخل ابوه غرفة النوم وأغلق بابها على نفسه وسمعه يصلى وارتفع صوته من وراء الباب بنشيج مكتوم ودعاءٍ للّه، محروق القلب، فثارت نفسه عندئذ على أبيه وامه معًا، واعتمل قلبه بالسخط الغامض عليهما معًا، والغضب، وهرب إلى الغرفة التى فيها مائدته الرخامية أمام «الكنبة»، فتح كتابًا لم يقرأ فيه، وعندما نادته امه على العشاء مع أخوته قال لها إن نفسه مسدودة فقالت

إنها ستترك عشاءه على ترابيزة الوسط فى الفسحة وقال له أبوه ربنا يرضى عليك يا وَلَدى وينجّحك ويفرّح قلبى بيك.

قال: وقامت الحرب بعد ذلك، وانصلحت الأمور قليلاً وانتظمت، ودخلتُ الجامعة لأدرس الهندسة؛ لأن أبى كان يريد أن يرانى مهندسًا وبَنَّاء عظيمًا ولكنه مات فى ثانى سنة لى فى الجامعة ولم يفرح قلبه بى.

وقال: مثل ناس كثيرين، جدًا، وليس مِثل أحد.

استيقظ من النوم متأخرًا، فوجد أن أخته التى كانت تنام على نفس سريره قد قامت قبله، ووجد أن صباح الجمعة يمتد حائرًا وخاويًا أمامه. نزع ملاءة السرير المغضنة من عليه ولمّ جلابيته حوله، وعندما فتح الشباك دخل الذباب إلى الغرفة، وكان كثيرًا وعنيدًا وراح يدور ويئزّ. فذهب إلى المطبخ الكبير الخالى، وكان معتمًا ونظيفًا، وإبريق الشاى يغلى على الوبور وفطوره جاهز، تسقية الخبز الناشف المكسر والمكوم فى صحن غويط، وكوز اللبن المغلى بجانبه. وسمع أخته عايدة وأخته الصغيرة هناء تلعبان فى البلكونة وتثرثران بذلك الذى تثرثر به البنات فى سنهن، أيًا كان، لا يسمع إلا أصواتًا طفلية مستغرقة فى اهتمامها بنفسها، تمامًا. وصبّ لنفسه اللبن على التسقيّة، وجلس يأكل بملعقته الفضية الخاصة به منذ كان صغيرًا جدًا، وكان يصنع فى ذهنه شعرًا حزينًا ويردد لنفسه: «حالت من الروض ورُودُه، وماء الحسن قد جف عوده.. وذوى النّبت يا طول ما ماست قدوده» ثم قام ليغسل وجهه.

قال لأمه: عايز مصروفى النهارده. نص فرنك. كفاية بقى. أنا ماخدتش حاجة بقى لى أسبوع بحاله.

فنظرت إليه بصمت، وقالت: حاضر.

قال ملحًا: دلوقتى: أنا نازل بعض الضهر.

فقالت مرة أخرى: حاضر، ورآها تذهب إلى دولاب الملابس، واشتغلت بما فيه مدة ترفع الأشياء التى فيه وتقلبها وتحطها، وعادت إليه تحمل شيئًا ملفوفًا فى ورقة جرنال، أعطته له فأحسه لينًا وطرىّ الطّيّات فى يده من وراء الورق الخشن الذى له حفيف.

قالت له أن يذهب إلى محل الرهوناتى الذى فى آخر شارع محرم بك، على اليمين، بعد شارع عِرْفان، سيجد يافطة باسمه، اسمه يواقيم إسكندر. قال لها: آخذ كام؟ قالت: اللى يديهولك. وحولت عنه وجهها.

نزل السلالم بالجلابية، لم يغيرها، يحمل اللفّة المطوية، بعناية، ورفع رأسه إلى البلكونة المقابلة ودق قلبه؛ لأنها كانت خالية، وخرج من الشارع الترابىّ العريض إلى شارع محرم بك وهو يسير بسرعة، والترام يهتز فى صباح الجمعة الموحش، وعربات الحنطور تجرى بجانبه تحت الأشجار، ومر من على المقاهى، خجلاً ومضطربًا يتخيل أن كل الناس تعرف، وعبر أمام محل عينو فى تقاطع الإسكندرانى ومحرم بك، وسار تحت الأسوار الحديدية للبيوت القديمة كأنها سرايات، بأبراجها الحجرية الكثيفة الشجر، حتى وجد الدكان، عليه اليافطة، وبابه من الصاج المضلع، مرتفعًا فى

إسطوانة كبيرة ملفوفة إلى أعلى. وكان واسعًا ومعتمًا، والبلاط الرمادى رطب تحت حذائه القماش.

وكانت المنصة الرخامية سوداء وعالية، يقوم فى منتصفها حاجز النحاس من الحائط للحائط، له قطبان رفيعة لامعة صفراء، متجاورة، فى وسطها فتحة مدورة صغيرة، ومد الرجل يده، من الفتحة، بصمت.

رأى وجهه الغليظ تحت طربوش قصير داكن الحافة ضيّق على جبهته الناتئة وأنفه حادّ، أقنى، عيناه صغيرتان قال لنفسه إن فيهما نوعًا من الفهم والحزن وقال لنفسه لا ليس فيهما شىء.

انفكت ورقة الجرنال وسقطت، وأحس فى يديه النسيج الصوف القديم بلونه البنفسجى الفاتح عاريًا وساخنًا من طول إمساكه به، فتّل الصوف واضحة متقاطعة، كثيفة، وشم نفْثةً خفيفة من رائحة العرق وهبوةً لا تكاد تحس من الحاجز الذى يعرفه. تناول الرجل الفستان من يديه، وفرده وراء الجاحز النحاسى وهزّه أمامه، ورأى الكمّين الطويلين الضيقين، يهتزان بين يديه الغريبتين، وانسدال النسيج من تحت الحزام العريض وفتحة الرقبة المشغولة بكلفة من غير القماش نفسه خالية، وقال الرجل بصوت طرىّ. من غير اهتمام، وحاسم، ثمانية صاغ. وأحس صوته مخنوقًا قليلاً وهو يقول: طيّب. وكتب الرجل على ورقة مشرشرة من منتصفها، ثم مزقها من عند الشرشرة بصوت سمعه مفاجئًا، قاطعًا، فى عتمة الدكان الفسيحة، ورشق نصف الورقة بدبوس فى رقبة الفستان،

وأعطاه النصف الآخر وقال له: شهر، فكّ الرهنيّة بعد ٣٠ يوم. من النهارده.

أعطاه الفلوس، قطعة بخمسة، وقطع نصف فرنك مدورة صغيرة وقرشين تعريفة مخرومين.

وخرج من الدكان. أعشى عينيه نور الشمس الحارقة، فلم ير فى الشارع شيئًا.

تغدوا يومها متأخرين جدًا، نزلت أمه بالملاءة السوداء، وعادت معها لفة طرية الشكل فى قطعة قماش سوداء مربوطة، عندما فكّتها على رخامة المطبخ اصطدمت بها، بصوت مبلل، أرجل الفراخ بأصابعها المفرودة وجلدها الخشن المجعد على العظام المحزوزة بالسكين، أطرافها داكنة اللون ورءوسها المفتوحة العيون، ملتصقة بالرقاب، مقطوعة، بعضها فوق بعض على الرخامة البيضاء المنقورة بحبيبات دقيقة. أكلوا فتة عيش بالخل والثوم، وشوربة فراخ.

وبعد الغداء أعطته أمه القطعة الفضية المدورة الصغيرة التى كان قد جاء بها من دكان الرهوناتى.

جاء جابر بعد الظهر، وخرج يتمشى معه حتى شارع المحمودية المظلل بالشجر الكثيف، والمراكب البطيئة تنزلق على الماء الضيق الرصاصى، وحكى له جابر عن شبين الكوم، وعن ابن أخته فلفل وعن جارته امرأة البقال التى لم تخلف له، وكيف نام معها فى ظهر يوم حار ونعم بذلك كثيرًا، وندم على ذلك كثيرًا، وصام كفارة سبعة أيام لا يأكل إلا بعد صلاة المغرب، فتذكر صلاته هو المُحرقة، لإلهه،

وندمه ودموعه، هو، على لذّاته السّرية، كل مرة، وغَرَقه، بلهفة ومتعةٍ مجلجلة الضجيج وصامتة جدًا وساطعة، كل مرة، فى موجة جسده الملتطمة. ولم يحك لصديقه شيئًا.

وذهب مع جابر إلى «كازينو غيط العنب» أمام الكوبرى. وطلب جابر اثنين شاى، ولذعَ السائل الساخن المسكّر الثقيل اللون والطعم لسانه وكاد يشرق به وأحس الدم يكاد ينفجر من عينيه. وكانت القهوة محاطة بحيطان من الزجاج والحديد، ومشتعلة بالنور من المصابيح الكهربية القوية، وغاصّة بالعربجية وعمال الزرائب والصعايدة يقرقرون فى النراجيل التى يغرغر الماء فى بطونها المدورة، ويشفطون الشاى بصوت استمتاع عال، ويثرثرون بلهجتهم التى يحبها لأنها لهجة أبيه، وأصرّ على أن يدفع ثمن الطلبات، جاء الجرسون بجلابيته التى فى مقدمتها جيب كبير مبلول، فأعطاه كل ما معه، القطعة بقرشين، وكان قد حرص على أن يتلمسها وهى صغيرة، روّاغة، فى جيبة طول القعدة، ليتأكد أنها هناك، وأمام إصراره لم يمانع جابر كثيرًا ولكنه عندما رد الجرسون القرش تعريفة الباقى، على سبيل البقشيش، قال جابر همسًا، إن هذا كثير، اثنين ثلاثة مليم كان كفاية.

ويقول لنفسه: أين أنت الآن يا جابر؟ هل تعيش فى إسكندرية، ما زلت، ولك أولاد - كبار، وأحفاد، ربما؟ هل متّ، وانقضيت؟ وما أغرب هذا كله، كيف لم يرك هذا الصبى، بعد، طوال خمسين عامًا أو تقل قليلاً؟ أين ذهب كل هؤلاء الصغار والكبار؟

ويقول: ما معنى هذا التوجْع الصعب، وضعف النفس، ولذع الحنين القديم؟ وما قيمته؟ أليس هذا كله معروفًا ومأثورًا، قرب نهاية الأمر؟ فما عكوفك، المثير للسخرية قليلاً، على ما باد واندثر؟ حذار.. خلّ بالك.

فى آخر ذلك الصيف رُصَّتُ الكراسى الخيزران صفوفًا فى الحوش الضيق المترب، بين حيطان البيوت المطبقة عليه. وتُركت مساحة، تحت الحائط، فيها كراسى فارغة، مواجهة. كانت «الكلوبات» تئزّ بنور حجرى أبيض، والمصابيح الكهربية كرات صغيرة لامعة بالضوء الأصفر معلقة يهتزّ بها الهواء فى حبال عرضية، مرتخية، بين حائطين.

الصبىّ يجلس، بجلابيته البيضاء النظيفة وحذاء «باتا» القماش الذى اغبّر من التراب، على كرسىّ غير مريح فى أول صفّ، على الآخر جنب نافذة مغلقة الشيش يتخايل من ورائها نور الحجرة، وإلى يمينه سيدة بدينة فاض جسمها من على الكرسى والتصق به، فى فستانها «الساتان» الأخضر تحت ملاءتها التى سقطت على ظهر الكرسى وراءها، وعلى حجرها طفل نائم بعمق فى ضجيج النداءات والهتافات وصراخ أطفال يجرون بين الكراسى يثيرون التراب أو يتشبثون بفساتين أمهاتهم. كان أعضاء التخت يجريون موسيقاهم، أصوات العود التى ترن فى جوف الخشب والكمنجة التى تئن فجأة بنغمات خادشة زفيمة، والعجوز الذى يلبس طربوشًا ينزّ العرق على حافته يحضن عوده ويتمطّق بشىء بين فكيه

المطبقين، وبجانبه الطبّال الجسيم وجهه مدور وأسمر ومنقور بحفر جدريّ قديم، فى جلبابه الأبيض ذى الياقة الجافة المفتوحة على لغد مترجرج، ينظر إلى الناس بعينين نصف مغلقتين من الدهن حولهما، بجانبه الرقّاق النحيل فى بالطو وجلابية، يداه عصبيتان وأصابعه طويلة جدًا لها أظافر مدبّبة ولامعة، يمسك بالرق ذى الصاجات التى تصلصل قليلاً جدًا فى يده، أما «الكمنجاتى»، فى بذلته السوداء التى تبدو رمادية تحت نور الكلوب وياقته «البمباغ» التى تدور حول رقبته بصلابة تتدلى منها عقدة «بابيون» سوداء ضافية القماش على صدر قميص أبيض منشىّ، فقد أسند رأسه إلى يده، وترك «الكمنجة» على حجره، وبدا كأنه نائم.

ثم حدث لغط وحركة،وانفتح الباب الخشبى المطل على الحوش، وخرج منه أولاً صبىّ العالمة، قصيرًا ورفيعًا فى جلابية حريرية بيضاء تشفّ عن «فانلة» رفيعة الحمالات، تظهر من ورائها ساقاه النحيلتان، وكان أنفه أقنى ومدببًا، وحاجباه مقوسين بعناية، وهو يقول بصوت مشروخ وسّعْ يا جدع وسّعى يا أمى خلّ بالك يا ولد، ووراءه الراقصة تكاد تحتكّ بالحائط فى الممر الضيّق بين البيت وبين الكراسى المصفوفة المتزاحمة الغاصة بالناس،، حتى جاءت إلى أول الصف، ومرت من أمامه قريبة جدًا إليه، شمّ منها رائحة عطر الياسمين النفّاذ والبودرة ونفخ الجسم النسائى الخاص. وكانت عارية إلا من بدلة الرقص اللامعة الصفراء تلفّ على الثديين المحبوكين والبطن المدور بترتر فضى صغير سريع الاهتزاز، فى حركتها، ولحم الثديين مكور مضغوط نصفه ظاهر ومسكوب من

النسيج المزدحم بحشوه اللين؛ نوع من موسيقى الرشاقة المنسابة، كانسلال القطط الممتلئة، فى حركة ساقيها القصيرتين نوعًا ما، والبطن المقبب المحبوس فى القماش تحت السرة التى وقع النور على غورها المدور القريب وعلى الردفين الممسوكين بقَمطة سوداء عريضة ذات شراشيب، يهبط منها، حتى الأرض، قماش أسود شفاف بخروم دقيقة مفتوح نصفين، علق التراب بأطرافه السفلى، وفيه مزقة طويلة مرتوقة بخيط مفتوح نصفين، علق التراب بأطرافه السفلى، وفيه مزقة طويلة مرتوقة بخيط أسود ضيق الغُرزَ، شعرها خشن وقصير صلب الشكل، وعلى وجهها الأبيض المربع العظام المفروش بالبودرة، لا مبالاة، وتحدى البذاءة، وفى عينيها المكحولتين بثقل والجاحظتين قليلاً، نظرةٌ بلادةٍ ووخامة أرضية، ورأى على ذقنها المنحدر للوراء نقطة وشم زرقاء. وعلى الفور انتبه التخت ونشط، وناح العود نواحًا ضعيفًا والكمنجة تصاحبه بينما دقات الطبول تحت اليد المكتنزة الأصابع تتابع وتتسارع. وقف الرقاق بجسمه الضاوى المشدود يهزّ الصاجات وراء الراقصة، فانخرطت مباشرة فى هزّ جسمها ببطء وكسل يمينًا ويسارًا، ورفعت ذراعيها المدملجتين، عليهما أساور فضية ثقيلة، عن الإبطين بطيّاتهما الصغيرة الداكنة اللون قليلاً مكان الشعر المنزوع، وأخذت تتحرك على إيقاع التخت فى المساحة المتربة الضيقة أمام الكراسى، حذاؤها الذهبى الناصل اللون يضغط بسيوره الرفيعة على لحم قدمها وأصابعها الغليظة. اقتربت منه جدًا، ثدياها يترجرجان فى ضيق البدلة، وبطنها العارى يهتز فوقه السرة

الدقيقة المعجونة بليونة، وتحته القبة الصغيرة كاملة التدوير فيها شقّ واضح غائر بين الخدّين الصغيرين تحت النسيج الأصفر الملتصق، محددًا بأقراص الترتر السريعة التموج، ورأى أن أطراف النسيج ناصلة ومفكوكة الخيوط ومُشَعَّثة قليلاً. ابتعدت فجأة، واستدارت إليه بظهرها وردفاها يتراوحان فى كتلة واحدة كبيرة، وأحسّ بين ساقيه بالتوتّر الصلب يفضحه نتوء الجلابية، وتضرّج وجهه بالدم. كانت البودرة قد ساحت قليلاً على ظهرها والصبى قد تسمّرت عيناه بالجسم الجميل العارى الذى يلف ويدور وينحنى ويقوم ويرتعد وينفجر ويهدأ ويميل ويتحرك بليونة وآلية معًا، على ضبط التخت وأنينه، كأنه مشدود إلى الموسيقى الخشنة بخيوط غير مرئية، وكأنه فى الوقت نفسه شىء منفصل، يقوم بعمل مرسوم، مخطّط، لا صلة له به حتى انقطع التخت فجأة، وصمت.

عاد اللغط والنداءات، وصراخ النساء على أولادهن، وعادت الراقصة إلى البيت من الباب الخشبى المفتوح على الحوش. ثم انفتحت النافذة المجاورة له تمامًا، فتحة صغيرة مواربة، ورأى، من الشق الطولى، صبىّ العالمة النحيل القصير، خصل شعره الأسود ليّنة على وجهه الأسمر الطويل، وهو ينحنى يفتح حقيبة من الخشب. تناول من بين الأشياء الكثيرة فيها علبة مدورة كبيرة عليها رسمُ ورد ملون، وحَفَن منها حفنة بودرة، وراح يمسح على ظهر الراقصة، وبطنها وفخذيها، وذراعيها، وأعلى صدرها، بنظام وترتيب، يجفف العرق بالبودرة، بيدين مدرّبتين حاذقتين، فى حركة بطيئة فيها ملاطفة ناعمة نسائية الإيحاء، ورأى انه هو ايضًا متوتّر

وهناك نتوء مرئى تحت جلابيته الحريرية الشفافة المنسدلة عليه تهتز وهو يعمل، وسمع الراقصة تضحك فجأة بخفوت وكأنما بمتعة وملل فى الوقت نفسه وهى تقول: خلصينى بقى يا أختى وَرَانا شغل تانى. وفوجئ بهذا النداء. وقام بسرعة قبل أن تعود الراقصة للحوش، ولفّ من وراء البيت. وقف فى الشارع، فى هواء الليل، أصوات الفرح المختلطة غامضة الآن، تحت سماء داكنة الزرقة حريرية الملمس، مثقوبة بنقط فضية لامعة، حتى جف وجهه الغارق فى العرق قبل أن يصعد السلالم إلى بيتهم، ووجد صحن الفول على ترابيزة الوسط فى الفسحة، وأكله بشهية وجوع وغضب.

فى الليل، فى ضوء المصباح الكهربى القوىّ، كان وحده، على الكنبة الإسطمبولى، وحده يقرأ رواية السهم الأسود على مائدته الرخامية البيضوية المفروشة بكتبه وقواميسه، وإلى جانبه دولاب الملابس العالى، خشبه البُنّى لامع ومصقول، وعلى كل من ضلفتيه مرآة بلجيكية سميكة بلورية النقاء. ساقان بيضاوان يومضان باللحم الناعم وينضمان على المثلث المقبب المَمْسود، والنسيج الأسود «الساتان» يلتصق بالاستدارة الصغيرة وينتهى تحت تكوّر الردفين بنمنمة «الدانتيلا»، يتراوح سوادها المشغول بين خرومها الدقيقة مع بياض الجسد المتنزى المتقلّب الذى يحتضن انبثاق الصلابة الجياشة بالدم والمتعة المحبوسة، حتى تنبجس، من جديد، سورة مياه الطوفان، ويتقوّض الجسم.

جاء من محرم بك، ماشيًا إلى محطة الرمل، ترك وراءه أحزان صباح ثقيل السحاب فى سماء الإسكندرية الفضّية، المقفلة على

نفسها فوق البحر، وعَبَر السلسة، ووقف عند الشاطبى. ترك الكورنيش، ونزل على سلالم متعرجة منحوتة فى الصخر المتآكل الزلِق تحت قدميه، وكانت السلالم تغوص فى مياه بحرية هادئة ويهتزّ موجها فى دوائر تتسع حتى تصل إلى حافة جدران الصخر فتصطدم به بخفة، رغوتها متقلبة الزبد. وتحت قدميه العاريتين، بالضبط عند التقاء الماء بالصخر، طحلب مخضر كثّ الوبرة، مُخْضلّ بالبلولة اللزجة، إذا انحسرت عنه موجة الماء الشفافة، الهفهافة القوام، جفّ الطحلب بسرعة، واصفرّ لونه قليلاً ونشف الماء تماما، يبيضّ جسد الطحلب شيئًا فشيئًا فإذا هو غضّ وناعم وأملس يلتفّ بلدونة ملتصقًا بحافة الصخر الدائرية، حتى يرتفع الماء فجأة، ويلطمه برفق، فيبتل من جديد، ويعود أخضر غضِرًا كثيف اللحم.

النور يأتى من فتحةٍ علوية واسعة منقورة فى السقف الحجرى مضطربة الحواف، فيغمر هذا الاتساع الداخلى المحصور بين صخور مشقّقة عليها طبقات بارزة قليلاً ملتوية الخطوط بلون أكثر صفرة كأنها هشّة ومتماسكة بالكاد. وينفتح، إلى جانبه، فى الجدار المحبّب، نفق منحدر نصفه الأعلى القريب منه جاف، مدور، أرضيته رملية مفروشة بقواقع صغيرة بيضاء كثيرة، ثم يهوى النفق إلى الماء وتلتطم الأمواج فيه ويرتفع سطحها المتراوح المرتطم ويضيق حيزّ الفراغ فوق الموج حتى يغوص النفق تماما فى الماء الذى يملؤه، بلونه الأزرق الداكن، حتى العمق المدفون الذاهب إلى تحت فى ظلمة القاع.

يعرف أن فتحة النفق التى تدعوه مُغوية، ومُفضية إلى التهلكة، وينزل بثقة على سلالم يعرف أنها ستهبط به فى الماء، إلى كهوف أخرى، واحدًا بعد واحد، منقورة كلها فى قلب صخر البحر الداخلى، تحت الأمواج، عالية وفسيحة يخبّ فيها نسيم رقيق ملحىّ الطعم، منيرة بضوء خاص من غير شمس ولا مصابيح ولاشموع، فيها فتحات على الرمل الأبيض الذى تغمر سطحه بالكاد، مياه قليلة، مترجرجة.

حتى وصل بعد رحلة لا جهد فيها ماشيًا كأنه يسبح فى الهواء، إلى أرض رملية فسيحة غارقة فى شمس السماء تحيط بها أسواره المُصمتة العالية سميكة وساخنة، إن دَقّقت عليها جاءك صدى أجوف عميق، لا باب فيها؛ دائرية تمامًا ولكن شاسعة لا يكاد البصر أن يحيط بدائريتها المرمية على أقصى سعة الأفق، بإحكام لا منفذ منه، ولا رغبة له فى الخروج منها.

وإلى هذه الساحة الرملية الخاوية سوف يخرج، بعد أن يغتسل ويتطهر فى البحر المالح.

يخرج إليها الماء يقطر منه، يضع رأسه على فخذيها اللدنتين العاريتين، وهى جالسة على الرمل، تبتسم، وشعرها الفاتح ينسدل على كتفيها الرشيقتين، ويغمض عينيه بالقرب من بطنها المدور المحبوك، ويرى من خلال جفنيه المطبقين، دوائر مشعة ملونة بالأحمر الداكن، تتسع وتتسع وتضيق، ويأتى بعدها نور حريرى

ناعم لا ألوان فيه. وأعرف أن الظلال السوداء عندئذ، سوف ترفرف عليّ، وتسقط، من السماء الخاوية.

لماذا أنثر حبات قلبي على الرمال، تحت أقدام العابرين، من سوف يلتقطها؟ وماذا سيفعل بها؟

٦ ـ النوارس بيضاء الجناح

سمع الطفل رفرفة أجنحة الملاك.

غرفه نومه كأنها واحدة، متكررة فى بيوت متعاقبة، دافئة وليلية ومزدحمة بالسرير العالى ذى الأعمدة الأربعة، داير السرير التُلّ الأبيض المخرَّم، عليه نقوش مشغولة، لسلال مخصوفة متهدلة بالورد المفتوح، يحاصره من فوق، ثابتٌ وساقط فى النور. «لمبة الجاز» نمرة خمسة معلقة على الحائط، كأنها قريبة إليه جدًا، شُعلتها البيضاء مدببة، لسانها رفيع صاعد يذوب فى سن من النار ترتعش وتتجدد من وراء زجاجها الرقيق.

والألم فى أذنه كان ثاقبًا، ودائمًا، لا يخفّ ولكن ينبض، يهزّه بإيقاع متكرر، مستمرّ والطفل كان قبل هذا الألم الذى لم يكن الرجل يقبله، أبدًا. ورقبته كانت ضخمة، متورّمة تملأ عليه إحساسه، ملفوفة بريطة بيضاء عليها قماش ملوىّ بعضه على بعض طرى بشىء لزج داكن اللون والنار كانت فى وجهه، ورأسه، كأنها قد أصبحت مادة جسمه نفسها. كان قد سكت الآن يُغفى قليلاً كأنه

يحس أنه نائم، ويستيقظ فى الليل، وكأنه نائم، ودقات الوجع الممزّق فى جانب وجهه، منتظمة بإصرار لا ينتهى، وهو يرى شعلة النار الدقيقة باردة، وكبيرة.

كانت أمه راكعة تحت سريره، لا يرى فى عكس النور إلا ظلمة راسها المحنىّ المسنود على حافة السرير، وشعرها القصير المضطرب كتلة واحدة من غير تفاصيل، وكان يسمع من خلال خبطات الألم المسدودة، صوتها الخافت الحار الملِحّ، تصلّى.

قالت له: كان عندك سنتين، يمكن، تلاتة. وكنت هتروح منى.

وقالت إنها سبَّحت على بحر الليل بطوله، وإنها نذرته للملاك إن وصل للبر.

كان راقدًا لا يتحرك الآن، جسمه يتّقد بهدوء، ساكنًا بسطوع الألم واللهب المستديم، ولم يكن للخوف معنى، بعد، ولا للحركة. وعندما بهتت شعلة «لمبة الجاز» واصفرّت، آخر الليل، وبطنها الشفاف أصبح داكن الزجاج قليلاً، ودخل الغرفة ما يشبه نور الأشياء عندما لا تعود مظلمة، كانت أمه قد تركت راسها على حرف السرير، وهى ما زالت راكعة ولكنها كانت هادئة تمامًا، منتظمة الأنفاس، نائمة كان الليل فى آخره صامتًا فسيحًا جدًا وصامتًا.

عندئذ سمع رفرفة الأجنحة، واهتزّ داير السرير فوقه، وتموّج، وهبّت فى الغرفة المقفلة الكثيفة أنفاسُ ريح باردة منعشة، وكأنها نفحة من بخور خفيف عبق بعذوبة لم يعرفها أبدًا من بعد.

ولا يذكر شيئًا آخر.

كُنّا فى بيت بسيونى، فى شارع الأنهار الذى ينتهى ببيت أم توتو.

وله شرفة واسعة تطلّ، عبر الشارع الترابى النظيف، على جنينة فيها شجر ونخل، وكانت أمى تقوم فى آخر الليل وتعجن فطير الملاك فى قصعة فخار واسعة، فى هذه الشرفة، وأستيقظ على طبطبة العجين فأجرى حافيًا وأقف أراقبها، وفى أول الصبح تأتى أقراص الفطير ساخنة من الفرن، هشّة مكورة ومنداحة قليلاً، وجهها محموش محروق الصفرة لامع من زيت السيرج وعليه النقوش باللغة القبطية والصليب المُورق الأطراف. وكانت أمى كل سنة، تضع الأقراص فى «كرسى عباس» زجاجى كأنه زهرة بلورية ضخمة مفتوحة التويج، ساقها الرشيقة قائمة تومض فى الضوء، تحمل السَعَة الشفافة الرقراقة المُضلَّعة وترسل منها فى أطباق واسعة مسطحة من الصينى الأبيض المنقوش بزهور صغيرة زرقاء إلى الجيران والحبايب، وأم محمود، وأم حسن، وأم توتو، وخالى حنا، وخالتى لبيبة، وكان جيرانها من المسلمين يرسلون إليها أطباق العاشوراء فى موسمها، وأباريق الخُشاف فى رمضان، ونتبادل أطباق الكعك والبسكويت والغُرَيّبة والقراقيش باللبن، فى أعياد القيامة والأضحى والميلاد والفطر، مكسوةً بفوَط ناصعة البياض، مكوية، أو ملونة بمربعات ذات شراشيب، وتظل أمى تقارن بين فضائل كعك كل جارة وعيوبه، ولدونة العجميّة فيه أو صلابة قوامه، ونعومة الغُرَيبة أو حُبيبيتها، وتُخمّن، بالتذوّق والاستطعام، نوع

السمن، بقرى أو جاموسى، صعيدى أو فلاحى، المصنوع منه البسكويت.

ومن هذا البيت أخذتنى خالتى سارة، من يدى، أول مرة، وذهبت معى إلى روضة الكرمة القبطية الأرثوذكسية فى شارع نزيب. وكانت خالتى سارة صغيرة لا تكاد تكبرنى إلا بسنوات ولكنها كانت «الألْفَة» فى درس مدارس الأحد التى تقام فى الروضة بعد خروج الكنيسة، تنظّف الغرفة الكبيرة وتعدّها وتمسح السبورة وترصّ أصابع الطباشير الملونة بالأحمر والأصفر والأخضر، وترتّب الصور الدينية التى تُوزَّع على الصغار مجانًا، تجمع كتب الترانيم بعد الدرس.

ويومها كانت الدنيا أمطرت طوال الليل، وكان الشارع موحلاً، وكان حذائى الأسود الجديد يغوص فى الطين، وهى تمسك بيدى، وشرابى الأبيض الناصع انتثرت عليه نقط الماء الطينّى الأسود وحزنت عليه جدًا ودخلت معها غرفة الناظر، وجلست على كرسىّ عالٍ علىّ جدًا ، وكان على حيطان الغرفة المدهونة بطلاء أصفر لامع صور معلقة للأسد والجمل والزرافة، وخريطة لمصر ملوّنة بالأخضر والأزرق والبنّى المُحمر، وفى أسفل الصور الورقية المبطنة بالقماش المسدلة بين قضيبين خشبيين عريضين، بلونٍ داكن، كتابةٌ عرفت بعد ذلك بكثير أنها بالعربى والإنجليزى وتعلمت أن اقرأ أسماءها.

دخل منصور أفندى الناظر، طويلاً، قائم العود، صارمًا وحنون النظرة، وجهه أسمر وفيه نُقَر الجدرى القديمة الدقيقة الغائرة.

وأحببته على الفور لأنه سلَّم عليَّ باليد، وكلّمنى كما يكلّم الرجال، ومعه «مس كاترين»، نحيلة وبيضاء الوجه كالأطفال وشعرها البنّى الفاتح ينهمر ناعمًا، ومصقولاً على كتفيها، وقبّلتنى على خدّى، وكانت هى التى علّمتنى الأبجدية بالإنجليزى وأنا أقول الأرقام وأستهجى كاتْ.. ماتْ.. مانْ.. رانْ.. تحت صور القطة والحصيرة والرجل والولد الذى يجرى بلا توقّف.

وعندما رجعت من الروضة، مليئًا بالأخبار والحكايات، كانت أمى قد ذهبت، بالملاءة السوداء، إلى حلْقة السمك فى الأنفوشى ورجعت بالترام إلى غيط العنب، ومعها شروة سمك، بلطى وقراميط وثعابين، وجمبرى. وقبل أن يغلبنى النوم دخلت المطبخ، أشرب. وكان مظلمًا تمامًا فى أوّل الليل، وبمجرد أن عبرت باب المطبخ انخطف بصرى، وتوقّفت، مسحورًا.

كان الجمبرى الكبير شفافًا ومنيرًا فى الظلمة، طافيًا وممددًا فى الطشت النحاسى الكبير المملوء بالماء، على الأرض. كل واحدة على حدة، إحداهما فوق الأخرى، وجنب إحداها الأخرى، تملع بنورها، مرسومةً بخطوط فسفورية مضيئة فى عتمة الماء، من الرأس حتى الذيل، والخيوط الرفيعة السوداء تُحدّد هيكل العظام الدقيقة، واللحم الأبيض، متوهّج تحت القشرة الهشة، يضوء بإشعاع ساطع، وذيولها تتحرك أهون حركة، ترسل فى الماء الذى يغمرها بالكاد رعشات صغيرة.

وأحسست بموسيقى الموت البطىء.

هذه الموسيقى كنت أحسها، خفيةً وتسحرنى، كأنما تترقرق فى زجاج الصورة التى يحيط بها إطار خشبى عريض بلون الجوز، وفيه الرجل براسه الأصلع، المدوّر ولحيته الشهباء، متّقد العينين، ينحنى على الطفل يسوع الذى تشعّ هالة من نور فضّى اللون حول رأسه الصغير، والرجل قد ألقى على إحدى كتفيه حرملة حمراء فوق القميص الأزرق اليانع الواسع التقويرة على صدره العظْمىّ، والطفل يرفع إليه عينين واسعتين مدهوشتين. وعندما كبرت كنت أحبّ أن أنظر إلى هذا الشيخ، كثيرًا، وأحسّ حنانه. قلت لأبى: صورة مَنْ؟ قال أبى: كان رجلاً بارًا تقيًا. أوحى إليه الملاك أنه لا يرى الموت قبل أن يرى الرب. سمعان. سمعان الشيخ وقال لى أبى: أنا تعبت يا ولدى. جاهدت الجهاد الحسن. فقط تتخرج أنت، وتأخذ شهادتك. حتى أستطيع أن أقول وقلبى مرتاح: «أكملت السعى، وحفظت الإيمان. الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام. لأن عينىّ قد أبصرتا خلاصك».

وفى ليلة باردة جدًا من ديسمبر كنت فى غرفتى أذاكر، وأرسم تصميمًا لا نهاية له، بالمسطرة والمثلث والبركار، وكانت الواحدة صباحًا. سمعت الشهقة فقط، فى صمت الليل، شهقة واحدة، حادة، انقطعت مرة واحدة جاءت أمى تجرى إلىّ: أبوك.. أبوك.. إلحق هات دكتور.

لما رجعت من ظلمة الليل فى إسكندرية كان الهواء حادّ البرد، وكان قد مات. بسلام.

لم أكن قد أكملت سعيى، ولم أكمله، ولم أعرف ـ حتى الآن ـ ما الخلاص.

فى حارة الجُلّنار فى راغب باشا، كان البرد فى بيتنا لاذعًا للعظْم، ولكنه لم يكن أبدًا جافًا ولا قاسيًا، بل كان مبلولاً بشكلٍ ما، ورطب الهواء ،وكنت أنزل فأشترى الفحم من عم عبده البقال، ونضع قطع الفحم الهشّة، تلمع بقطرات الجاز القليلة المصبوبة عليها، على التراب فى الموقدة الفخار، وعلى أصابعنا آثار سواده الناعم، يدخّن الفحم قليلاً برائحةٍ نفّاذة، ثم تتطاير ألسنة النار الصغيرة ونحن ننفخ عليها، حتى تتّقد حبات الفحم وتسطع ويتحول جسمها الهشّ إلى جمراتٍ متوهجة الحمرة فيها خطوط رقيقة أكثر اتقادًا وحمرتها أكثر التماعًا، وتتكون عليها طبقةٌ من رماد أبيض كالدقيق، وتظل محتفظة مع ذلك بشكلها، وتَكَسُّر حناياها الحادة وطبقاتها المتراوحة الحمرة، ولا تنهار إلا إذا حرّكنا الموقدة، وجدّدنا الفحم، ووضعنا عليه حبات «أبو فروة» بقشرها البنّى الجافّ المتجعد، نتخاطفها ساخنة ومحمرة البطن ولها عَبق خفيف فيه نفحة من حلاوة السكر وطزاجة الفطير فى الفرن.

وكان أبى يجلس على الشلتة، على الأرض، وأمامه الطبلية المنخفضة، عليها خمسينيّة «الكونياك»، وشقائق البيض المسلوق المقشر وقد عُصِرَ عليها الليمون، ووِرْك الفرخة المحمّر، وشرائح الجبنة التركى الصفراء يابسةً ومشقّقة وندية فى الوقت نفسه بزيتها الناضح من لحمها الداخلى، وأرغفة الخبز الصغيرة المقبّبة

ووجهها المحموش الرقيق مغروسٌ بحبّة البرَكة المنقّطة والسمسم السريع التفتّت. وكان يحكى لنا حكايات، ويضحك قليلاً جدًا عندما أغالط أخواتى فى عدد «أبو فروة» وأستولى لنفسى على واحدة أكثر، ولا يأخذ منه شيئًا.

المطر يقرقع على زجاج الشبابيك بإيقاع مطّرد سريع، الدفء داخل الغرفة يصنع غشاءً كالضباب، رقيقًا على لوحة الزجاج الخارجية، وأرى أنوار الحَارَة من خلال نداوته المُغبَّشة على زجاج كأنها نجوم صغيرة كثيرة متشععة، وعندما يَنْغَقُ البرقُ فى خطفات ساطعة تثب فيها البيوت وسطوحها وسحب السماء فى ضوءٍ فضىٍّ باهر ثم يختفى، تتلوها بعد ثوان قرقعة الرعد المليئة الصدر، يُجلجل متلاحق الارتطام، كالطبل الضخم، كان قلبى يبتهج جدًا، وتصرخ عايدة أختى صرخة صغيرة وتجرى هناء إلى حضن أمى، فتضحك أمى ويُهدى أبى من رُوعها، وأحسّ مع ذلك لمسة من الخوف تحبك البهجة أكثرَ إثارة وأكثر توهُّجًا، وإحساسًا بالأمن والكِنّ فى الغرفة التى دفئت، وطابت، والفحم قد صفا، نارُه رائقة، وبعد اصطفاق صنوج الرعد الهائلة الفسيحة المدى يكون للفحم هسيسٌ خافت، ووشيش مكتوم فى اشتعاله الفرِح الهادئ.

وفى الحرب غلا الفحم، وشحّ، وكنت فى الثقافة العامة، أتدفّأ «بوابور الجاز» أضعه يفح ويئز أزيزًا متصلاً ملهوفًا، فوقه كوز ملىء بالماء، جنب رجلى، وأنا أذاكر دروسى على مائدتى الرخام المثقلة الآن بالكتب، وأفتح «كتاب التنين للشعر» طبعة أكسفورد ١٩٣٦،

بجلدته الصلبة الزرقاء الداكنة، وأقرأ شيلى بالإنجليزية، يتغنّى بأوزيماندياس ملك الملوك الذى تحت ساقيه الهائلتين المكسورتين تمتد الرمال موحشةً ومُصَوّحة ومُسوّاة إلى بعيد، بينما الغرفة تمتلئ برائحة «الجاز» المحروق الممتزج ببخار الماء ووشيش «الوابور» المستمر، وكان اسم أوزيماندياس يسحرنى، وأمجاد الهوى المشبوب الذى نَحَتَه شيلى فى وجهه المقوّض المُلقى على الرمال الساخنة تزلزل قلبى، بينما يسقط المطر يدقُّ خشب البلكونة المقفل دقات متلاحقة، لا تنقطع، تجعل جسمى المُتوتّر مشدودَ الجوارح، لا ينطفئ. وكانت شهوات الصبا ومعاشِقُه حادة ناتئة الشظايا.

وكأنما كان أبى يسير معى، ممسكًا بيدى، وأنا أسير فى شارع الفراهدة فى أول المساء، وأعمدة النور معلقة بها الكرات المدورة الزرقاء تُريق ضوءها الشاحب، وكنت أفتقده جدًا، ومخازن الخشب العريضة مقفلة الأبواب. ظهرت من آخر الشارع جماعة من العساكر الإنجليز، يجرى بعضهم وراء بعض، ويصرخون بأصوات ثاقبة، صبيانًا فى مثل سنّى، سكرانين من يقينِ الموت القريب، محترقين بلدغات الأجسام المقضىّ عليها من الآن، وأهل البلد القليلون يسيرون بسرعة، على جنب، فى حالهم، ويتبع العساكر ولد سَفْروت أكرت الشعر، على ساقيه السوداوين المصوصين «شورت كاكى» واسع ومقطوع، وعلى كتفيه «جاكتة» بحّارى زرقاء باهتة فى نور الليل حافى القدمين، أراه يقتفيهم بحذر وتربص حتى يهدأ ضجيجهم قليلاً، فيقترب بجرأة ويدخل معهم على الفور فى مفاوضات سريعة منخفضة الصوت وملّحة، بإنجليزية شوارع

إسكندرية فى الحرب ويقودهم بثقة وهم ينحرفون معًا فى حارة جانبية مظلمة. وأنا أمرّ أمام «البارات» الصغيرة، المتعاقبة فى الشارع، تتدلى فوق أبوابها فوانيس محمّرة داكنة على اللافتات المكتوبة بالإنجليزية، القط الأسود، كنج جورج، نجمة لندن، الحصان الأبيض، والباب ينفتح فجأة عن نور صاخب مدخّن يقطع أسفلت الشارع وموسيقى حادة ولغط الشرب ودندنة السكارى وطنين الحديث تقطعه ضحكة نسوية فاقعة ثم يصمت فجأة بارتداد الباب، ويعود الظلام.

بعد سنة أو أكثر من موت أبى كنت أشتغل مساعد «مخزنجى» فى مخزن ٦ للبحرية البريطانية، فى كَفْر عَشْرى، وأواصل دراستى الهندسة. أستيقظ من النوم فى الخامسة صباحًا لكى أفتح المخزن فى السادسة، وأعمل حتى الثالثة بعد الظهر. وكنت أنقل المحاضرات من صديقٍ نوبىّ دمِث الوجه ومنخفض الصوت دائمًا، ذهبتْ به أمواج الأيام عن كل شواطئى، ولم التقِ به أبدًا بعد أن تخرجت، وما زال صوته الهادئ يطوف بى حتى الآن. وكنت أستأذن أحيانًا من مستر لى، رئيس المخزن، لكى أخرج فأحضر العمل أو أقدّم المشروع، فكان يأذن لى، غالبًا، بل يأمر سائقه المجنّد فيوصلنى لغاية الكلية فى محرم بك، بسيارة جيب مفتوحة من سيارات البحرية البريطانية، وأعود بالترام، وأشتغل ساعتين أو ثلاثًا فى دورية بعد الظهر فيحسبها لى «أوفر تايم» أو لا يحسبها، حسب المزاج، أو أخبار الحرب.وعند وصول البواخر بشحنات جديدة أطبّق ورديتين فأصل بيتنا فى راغب باشا قبيل منتصف

الليل، ميّتًا من التعب، وإذا وجدت أن عباس قد ترك لى الكشكول أسهر فى نَقْل المحاضرة، ومع ذلك أقرأ فى السياسة أو فى الشعر من مجلات كانت تصل إلىّ بالبريد من فرنسا وإنجلترا، قبل أن أنام ساعتين، وتوقظنى أمى فى الخامسة، وأخطف منها خمس دقائق نوم زيادة، ثم ألحق بأول ترام فى شارع راغب باشا وأغيّر إلى ترام القبارى، وأفتح المخزن فى السادسة.

كنا فى ١٩٤٤، وكنت فى الثامنة عشرة، ومزعزع الإيمان وشديد الوَرَع، غارقًا فى جسمى وطُهْرانيًا لم أذهب إلى امرأة قط، وأعتبر نفسى «حر الفكر» وسوداوىّ المزاج، على الطريقة الرومانتيكية.

وكنت فى مخزن ٦ مسئولاً عن العمال المصريين، أشغّلهم وأترجم لهم وعنهم وأحسب أجورهم. وفى الأوّل كنت غريبًا بينهم، قليلاً، ولكننى عندما أكلت معهم العيش والملح والبطاطس المقلية والجبنة التركى، وتعلمت أن أشخر لهم بالإسكندرانى وأن أشتمهم بالأب والأم والمِلّة، حتى الآخر، وأطلب لهم مكافآت خاصة فى الوقت نفسه وأزوّد لهم قليلاً فى الأجر الإضافى، ووصلنا إلى اتفاق عام مُضمَر بالتغاضى عن السرقات الهايفة فأقيّدها فى الأذون والدفاتر «خسائر» أو «مفقودة عند التفريغ» وأن أبلغ فقط، مع الريس نونو، عن السرقات الكبيرة المحترمة؛ عندئذ قبلونى واحداً منهم، وكنا يعزّ بعضنا بعضًا جدًا. وما زلت أحنّ ـ بسذاجة ـ إلى صحبتهم.

ليلتها بعد أن انصرفتْ الوردية الثانية، فى العاشرة تمامًا، قال لى مستر لى أن أنتظر، ودخل مكتبه الزجاجى وتكلم بالتليفون،

ونادانى وقال لى إن عندنا وردية ثالثة طوارئ، وإن باخرة وصلت الآن فجأة بشحنة كبيرة، وإن سيارات النقل العسكرية ستصل من الميناء فى أى وقت الآن، وقال إنه متأسّف جدًا لأن سائقه اليونانى قد أخذ السيارة ليعيد التذاكر التى قد حجزها لحفلة الساعة التاسعة فى سينما رويال، وإنه سيصرف لى بدل انتقال لأن علىَّ أن أذهب إلى بيت الريّس نونو أكلفه أن يتولّى جمْع العمّال، بما فيهم عمّ على الونْشمان، والأسطى مُرسى النجار، من منازلهم ومقاهيهم، وإننا سنشتغل، كلنا ومعنا مستر ويلز ومستر رينشو حتى نفرّغ الحمولة ونرصّها فى المخزن. وأعطانى عنوان الريس نونو: ٣١ حارة القاضى الفاضل المتفرع من شارع الفراهدة، وقال إن الساعة الآن العاشرة وسبع دقائق، وإنه ينتظر الريّس نونو والعمّال فى تمام الساعة الثانية عشرة وقال «الثانية عشرة، على دَقّة الساعة، من غير معلهش، فقلت له بحدة: «الثانية عشرة» على دقة الساعة وليس هناك معلهش ومن فضلك لا داعى للأفكار الجاهزة ولا للانحيازات، لأن أولاد البلد ـ هؤلاء «النيتفْز» أو «الوُجْز» كما تقولون ـ يعرفون معنى الواجب والشرف فى العمل». فابتسم لى بعينيه فقط من وراء زجاج نظّارته السميكة قَعْر الكوب، وقال «رايت أو». فقط.

ركبت ترام السبع بنات، ونزلت فى محطة كركون اللبان، وخرّمت على الفراهدة مباشرة، لماذا افتقدتُ أبى، فجأة، وانا أسير فى الشارع، بأنواره الزرقاء، وباراته، وبيوته الغامضة؟.

انطلقتْ قريبًا منّى عربة «حنطور» مثقلة بالعساكر الاستراليين، مكوّمين فيها ومتدلّين من جانبها ومعلّقين بمؤخرتها، بقبّعاتهم المدوّرة العريضة وجثثهم الضخمة الشاهقة، عملاقٌ منهم أخذ مكان «العربجى الذى انحشر جنبه فارغ اليدين مُسلمًا أمره لله، والعملاق أخذ يفرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان فراح يعدو كأنه قد جمح بالعربة المائلة إلى جانبها بخطورة، والأستراليون يصفّرون صفيرًا ثاقبًا يائسًا ويصرخون باستماتة: هَا.. شى.. شى.. بأعلى أصواتهم، فى صمت الشارع الخالى.

وجدتُ حارة القاضى مباشرة بعد أنقاض البيت الذى سقط عليه «طوربيد» طليانى، السنة اللى فاتت، وتكومت أحجاره القديمة وترابه وخشبه ونَبَتتْ فيها عناقيدُ مُلتفّة من النباتاتِ والحشائش شَكّلَها بالليل مهدّد وكانت رائحة البحر دافئة.

عندما دخلت الحارة الطويلة احسست بأمان أكثر، كانت مصابيح النور الزرقاء متباعدة وأبواب البيوت مفتوحة ومظلمة كأنها لا تغلق أبدًا، ورأيت جماعات صغيرة من العساكر «الأفريكان» السود الضخام، والإنجليز الشُقر الناحلى القامات، وعددًا قليلاً من أهل البلد بالجلاليب والبلاطى الخفيفة أو البنطلونات، معظمهم كبارٌ فى السنّ جدًا، يخرجون ويدخلون البيوت بصمتٍ وسرّية. ومررت، وأنا أحاول أن اقرأ أرقام البيوت، على بار واحد ضيّق الباب وعليه كلمة واحدة بالإنجليزية «بار» تومض وتنطفئ لمبة كروية حمراء فوقها، وعلى قمة الحارة التالية عربة الكِبْدة والطحال،

عليها صينية مدوّرة فوق «وابور» جاز يفحّ بصوت واضح أبحّ فى سكون الليل، ونشيش مرقة الكبدة ورائحتها المقلية تَقْمعمنى وتفتح نفسى للأكل.

وصلت البيت رقم ٣١، وخرج إلىّ من الظلمة وراء الباب، فجأة، رجل طويل ومخروط الوجه وشمعىّ اللون، يعرج قليلاً خفيف الساقين سدّ علىّ الباب وهو يسأل بخشونة: رايح فين يا فندى؟ بلهجة ممطوطة ومُنذرة. ترددت لحظة ولكنى أجبت طائعًا: عايز الريس نون. مش دا نمرة ٣١ برضو؟ فنظر إلىّ نظرة ثاقبة كأنه يزن صدقى، ومعدنى، وأفسح الطريق بخطوة جانبية مفاجئة وقال: اتفضل. الكاتْ التالت فوق. اتفضل أمال يا فندى.

هبّت علىَّ من بير السلم رائحةُ رطوبةٍ قديمة، وكانت الأنوار تتخايل على السلالم، فوق.

كانت أبواب الشقق كلها مفتوحة وساطعة. وكانت درجات السلالم الحجرية البيضاء ناعمةَ الحواف، انبرتْ من الرِجْل طالعة نازلة.

فى أول دور، على الباب الذى يتّقد فى الفسحة وراءه مباشرة «كلوب غاز» متوهج، وقفتْ بنت، فى الثانية عشرة؟ أصغر؟ عارية تقريبًا، صدرها لم يكد ينهد، صغيرًا وقليل الصلابة. كانت تستند إلى قائمة الباب من الداخل، والنور يسقط على شعرها المجعد القصير الخشن اللَفلَفة، تلبس قميصًا بحمّالات، موجزًا جدًا، أسود ولامعًا وواسعًا قليلاً يكشف كلّ كتفيها النحيلتين وظهرها أو ينزل

إلى أعلى فخذيها الرفيعتين المدوّرتين، ترفع يدها المطليّة الأظافر بالمانيكير الأحمر، بسيجارة مشتعلة لا تدخّنها، إلى شفتيها الداكنتين بحمرة قانية، وفى يدها الأخرى المدلاة إلى فخذها العارية علِبة بلايرز إنجليزى زرقاء فاتحة، وتخشخش حلقتان من الأساور الكهرمانية الصفراء على ذراعها السمراء الضاوية، وعيناها ثقيلتان بالأسود الذى يحددهما، وعظام وجهها تومض، وهى تنظر إلىّ.

لمحت فى الشقة بنتين أو ثلاثًا من سنّها أو أكبر قليلاً، كأنّهن أسماك ملونة داخل «أكواريوم» زجاجى منير، فى درجات متراوحة من العُرى، جالسات بصمت وانكسار على «كَنَبة إسطمبولى» طويلة، ناحلات، مسوخٌ صغيرة مُزوّقة ببذاءة. وسمعت فجأة صوتًا مبحوحًا أجشَّ من الحشيش، لم أرَ مَنْ صاحبته، أو صاحبه، من داخل الفَسَحة: اتفضل يا فندى، عندنا حاجة على ذوقك والنبى. وبربُع جنِى بسّ، اتفضل يا خويا. على عينك يا تاجر. واللى ما يشترى يتفرج. وتمتمت بشىء كأنه متشكّر أو ما يشبهها، وكدت أتعثّر بالسلالم، والصوت يُلاحقنى بضحكة مبحوحة محمّلة بإيماء لم افهمه: يُوه.. هو انته من بتوع فوق يا جَدَع..! ياختى بَلا وكْسة..!

فى الدور الثانى كانت دكة خشبية موضوعة أمام الباب المفتوح، تكاد تسدّه، شوّرَ لى الرجل الذى يجلس عليها، بيديه. كان باهظ البدانة، عليه جلابية ممزقة غليظة النسيج و«جاكتة كاكى» فوقها من غير أكمام. خرجت من فمه المتدلى أصوات مليئة مُلحّة وأدركت

أنه أخرس، كانت فى حشرجته دعوة خشنة مباشرة وفيها يأس لا يأتى إلا فى أصوات الخُرْس التى تجاهد، بشقّ النفْس، للطلوع. ومدّ إلىّ يدين متضخّمتين حيّتينْ، أظافرهما طويلة انحشرت تحتها خطوط سوادٍ قديم، وأوشك أن يجذبنى إليه بقوة خارقة وهوه ما زال يزوم ويحزق ويغصّ بالحمحمة والمجاهدة، رأيت وراء الدكة شلتة عريضة نام عليها ولدٌ صغير السن، طويل الجسم، يلبس جلبابًا أبيض شفّافًا يكشف عن قميص بناتى فُستقى اللون بحمّالات، وقد رفع أمامه ساقيه العاريتين الملساوين بحيث أخفى عُرى ما بينهما، وكان ينظر إلى السقف، وفمه مصبوغ بما يشبه الدم وعيناه مكحولتان بدقة وحاجباه قوسان رفيعان مدوّران، ويبدو كأنه لا ينتظر شيئًا ولا يريد ولا يرفض شيئًا.

وفكرت أننا ربما ما زلنا أول الليل وأن الزبائن لم يصلوا بعد.

كان دمى قد نشف عندما خبطت على باب الريّس نونو، وخرج إلىّ، منتفخ العينين قليلاً، بالصدارى واللباس الإسكندرانى المنفوخ المتراكب الطيّات، ورحّبَ بى جدًا. وكنت أعرف أنه قد طلّق امرأته وأنها تعيش مع أولاده فى السيّالة وأنه وحده فى هذا البيت الغريب، ولكنه عَزَمَ علىَّ بشاى ثقيل عمله بنفسه وقال لى: ولا يهمَّكْ يا فندى، طَبْ وحياة اللى خلَقك، وسيدى المُرسى أبو العَبّاس، دول كلّهم غلابة، واهُو كلّه اكّل عيش بَرْضُو.. وضحكنا، ونزل معى حتى باب الشارع. ولم نتكلم.

وكان البيت، ونحن ننزل مظلمًا وهادئًا، والسلالم صامتة تمامًا، والأبواب مغلقة.

وفى الثانية عشرة إلا دقائق كان الريّس نونو، وعمّاله الصعايدة والبحاروة وأولاد البلد وعمّ على بعمامته البيضاء وجاكتته ومعرفته السحرية بأسرار «الونش» والأسطى مُرسى وعامل «البوفيه» أيضًا كلهم، بريطة المعلّم، من «أبو شنب» العجوز الخشن الصوت الذى يتحرك بصعوبة إلى «حميدو شُورتى» الولد السَفَروت الذى فى جسمه قوة رَجُلين، كلّهم، على باب المخزن. وكانت السيارات الضخمة، تقف صفًا فى الظلام، عالية وسوداء ومغطاة بالتاربولين المطّاط الداكن المشمّع اللمّعة، تكاد تسدّ الحارة أمام المخزن. ودخل العمال من الباب الحديدى الكبير وهم يسلّمون على عسكرى الحراسة اليونانى الذى يعرفهم واحدًا واحدًا. وبدأ الشُغل فورًا، على الأنوار القوية، وهم يغنون، والريس نونو يحثهم ويمد يديه فى الشغل ويقود الغناء وأنا أهتف بهم وأشتم ضاحكًا وأناديهم بالاسم، وهم يعتلون الصناديق الكبيرة والبالات الهائلة، وأزيز الونش يصعد بها إلى النافذة المفتوحة الكبيرة فى الدور الثانى، وينزل، سلاسلُه الحديدية تصلصِل وتصطفق، حتى الفجر. وفرشوا حصيرة نظيفة فى الحوش، وصلّوا الفجر، وتكوّموا جنب الحائط العالى المُصمَت فى الحوش، يشربون الشاى بشفّط مسموع، ويتكلمون بأصوات خافتة، مهدودة.

وقفت بجانب «الونش» على حافة النافذة الكبيرة المفتوحة بعرض الحائط كله، من غير حاجز، خطِرة ومُغوية، وكنت أنظر إليهم، فى نور الفجر الغامض الشاحب. وارتعدت من نسمة البحر التى هبت باردة، مفاجئة، وكنت غائر القلب، غاضبًا.

قبل ذلك بسنتين تقريبًا كنت قد أخذت التوجيهية، علمى، بتفوق. وكنت أبحث عن عمل فى أول الإجازة الصيفية. كان أبى يقطع من لحمه الحى ليعطينى مصروفى اليومى المتراوح من نصف الفرنك إلى الشلن، أو البريزة فى أيام الشبرقة الخاصة جدًا. وكنت قد تعلمت المرواح للسينما، ريو أو بلاز، بل ورويال - أحيانًا قليلة. فقد كانت تذكرتها بستة صاغ ونصف - وكان صاحبى جورج يدفع تذكرته ويستلف منى القرش التعريفة ليشترى ثلاثة سجاير فرط، ماركة الفيل، وكنت لا أدخن ولا أسترد السلف. واشتريت أيامها، بأربعة قروش صاغ أول كتاب إنجليزى وكان اسمه «آرييل»، كتبه «أندريه موروا» عن «شيلى»، وكانت طبعة «البنجوين» خفيفة الورق وغلافها داكن الزرقة. جاء إلى بيتنا فى راغب باشا صاحبى جورج الذى كان أبوه ناظر محطة ترام سيدى جابر، خط الرمل، وعنده دكان بقالة صغير فى شارع دارا فى سيدى جابر أمام بيتهم مباشرة، وقال لى: إن له قريبًا يشتغل فى شركة فرنسية اسمها باتينيول تبنى مشروع الميناء فى الدخيلة، وإنهم يريدون ملاحظ عمال، باليومية، وإنه أخذ لى ميعادًا هناك فى الثامنة صباحًا يوم الإثنين بعد غد.

صحوت مبكرًا جدًا، من القلق والتشوق، كأننا فى شم النسيم. ونزلت من راغب باشا فى السادسة صباحًا وجريت وراء ترام المكس ولحقته، وركبت مع العمال وصغار الموظفين الطالعين على رزقهم فى أول الصبح الصيفى المنعش البرد، ذاهبين إلى الميناء والفبارك ومخازن القطن والسكة الحديد فى القبارى والورديان وكوبرى

التاريخ ورصيف الفحم، والمدابغ التى هجمت علىّ رائحتها النفاذة وأنا فى الترام المتأرجح بعد أن خلا قليلاً من ركابه، وقرأت على واجهة المبنى العريض ذى البوابة الحجرية الواسعة كلمة «آباتوار» الفرنسية بحروف بارزة من طراز القرن التاسع عشر. وفى المكس عبرت «الكوبرى» الخشبى الرقيق المهتز، بفلقه الخشبية المنفرجة قليلاً أرى منها الماء فى لسان البحر الضيق، وركبت «الأتوبيس» إلى الدخيلة وخرّمت ناحية البحر، على الرمل، حتى وصلت إلى الكشك الخشبى الذى أقامته الشركة، تحت لافتة ضخمة باسمها وعنوانها فى فرنسا، فى موقع العمل على حافة الصخور، والخلجان الصغيرة بينها يضرب فيها الموج ويزيد قليلاً على الحصى والرمل الخشن، برغوته البيضاء المستنفدة.

لم أكن البس ساعة فى تلك الأيام، وسألت سواق «الأوتوبيس» الذى ذكرنى بخالى ناثان، على نحو ما، فقال «الثامنة إلا ربع»، وارتاح قلبى.

كان الكشك مغلقًا، ومن نافذته الصغيرة المسدودة بشبكة خضراء دقيقة الخروم، ضد الذباب والناموس، رأيت وجهًا مدوّرًا متهدل الخدين، وصدر الرجل السمين المرتخى فى قميص مفتوح حتى بطنه الذى يضغط على مائدة خشبية محملة بالمساطر والمثلثات ولفات ورق الرسم والأدوات الهندسية، وعندما طرقت الباب الخشبى سمعته يقول بالفرنسية «ادخل» وفهمت أنه المهندس الفرنسى وليس قريب صاحبى، وصبّحت عليه بالفرنسية فرد

باقتضاب وشيء من الدهشة وقلت له بفرنسية جاهدت أن تكون صحيحة كنت قد تدربت عليها وحدى الليلة الفائتة: إننى جئت من أجل الوظيفة، وأكملنا الحديث كله بالفرنسية، واضحة ومحددة وبطيئة النطق وسليمة النحو. قال اقفل الباب من فضلك، بلهجة ممطوطة فأدركت أننى أخطأت وأقفلت الباب بيدين مضطربتين، وعاد ضوء المصباح الكهربى العارى المائتى شمعة يتقد بصمت فى عتمة الكشك الداخلية كأنها قمرة مضيئة تغوص فى عمق البحر، وتأملنى الرجل قليلاً بعينين كعيون السمك ولكنها زرقاء فاتحة جدًا وقال لى، بأدب، إنه آسف حقًا ولكن المركز قد شغل بالفعل. اكتب لى اسمك وعنوانك على هذه الورقة وسنتصل بك عندما نحتاج إلى خدماتك. ومد إلىَّ ورقة رسم عليها تصميمات وخطوطًا رأسية وأفقية ومساقط ومقاطع وكتابة بحروف مفردة كبيرة، فانحنيت وأنا واقف وأحسست عينى مبللتين بالعرق، وكتبت بقلم الأبنوس الذى تدفق حبره فجأة بعد لحظة جفاف وجيزة، ولم أكن ألبس نظارة ولم أعرف أننى كنت أرى العالم كله غائمًا ومتميع الحواف إلا بعد ذلك الصيف عندما دخلت الكلية وفى كشف النظر دهش الدكتور وقال لى كيف تقرأ وتكتب؟ وكتب لى على نظارة. قال لى المهندس الفرنسى بصوته الدهنى قليلاً ورأسه الأصلع يلمع فى النور، وجسمه العريان المتراكب الطوايا ينضح بعرق خفيف: نهار طيب إذًا، وقلت له نهار طيب. ولم يتصل بى أبدًا خرجت إلى بهرة شمس أخذت تحمى قليلاً ولكنى أحسست رعدة مفاجئة تنفض جسمى. وكان الهواء باردًا على وجهى، وكان العمال جالسين تحت سور

حجرى منخفض على الشاطئ أمام الكشك، فى حلقات صغيرة غير مستبينة، يتكلمون بأصوات منخفضة ويشربون الشاى، ولاح من بعيد فندق «سى جل» حيطانه بيضاء حائلة اللون ناحية البحر، شبابيكه مغلقة بالخشب الأخضر الباهت، وكان صاحبى جورج قد حكى لى كيف أنه يأخذ المرأة الإيطالية التى كان يرافقها إلى هذا الفندق، يستأجران غرفة باليوم ويقضيان النهار هناك، وقال: إنه مكان هادئ جدًا لا يسأل فيه أحد عن شىء ويمكن أن يُقتل دون أن يحس به أحد. وقال: إن هذه المرأة كان زوجها قد اعتقله الإنجليز عندما دخلت إيطاليا الحرب، وإنها علمته من فنون صنع الحب أشياء وأشياء، ولم أسأله، عن شوقى إلى السؤال، وكان حصيفًا فلم يدخل فى التفاصيل.

ودخلت الكلية بنصف مجانية ومات أبى فأخذت مجانية كاملة واشتغلت فى المخزن ولم يدخل صاحبى جورج الجامعة، وتطوّع مجندًا فى الطيران الإنجليزى وبدأ يتعلم الطيران، ورأيناه فعلاً فى حلة عسكرية بريطانية «كاكى» أنيقة وعلى كمه شريطان بالأخضر، ثم رأيناه بعد ذلك من غير اللباس العسكرى، ولم يشرح لنا أبدًا لماذا لم يستمر فى الجيش البريطانى. ولكن دكان البقالة الصغير فى شارع دارا كان محطًا وموئلاً لجماعات متعاقبة من العساكر الأفريكان والأستراليين والإنجليز، وكان جورج يجيد الحديث معهم، كلاً على مقتضى الحال، باللهجات الكوكنى والأسترالى والأفريكان كأنه من أبناء كل بلد على حدة، وكنت عندما أمرّ عليه أجدهم يقفون فى الدكان يأخذون كأسًا أو كأسين من برميل «الكونياك»

الصغير ذى الصنبور الخشبى الدقيق، خفية وبسرعة، فلم يكن عنده تصريح بتقديم الخمر، وكانت عربات الجيش الإنجليزى المحملة تقف أمام الدكان فى ساعات محسوبة بدقة، بين ورديات «البيكيت» الحربى، وتفرغ جانبًا محسوبًا بدقة فى حمولة «البلوبيف» أو «البلاطى» العسكرية وبر الجمل التى كانت مطلوبة جدًا فى السوق، أو علب اللبن المركز المسكر، أو البطاطين، تختفى فى المنور خلف الدكان، على الفور. وكانت له أيضًا شبكة علاقات واسعة مع النسوة اليونانيات والإيطاليات والشاميات فى الإبراهيمية وكامب شيزار ومع العساكر والضباط، فى الوقت نفسه، وكانت ساحة «الباتيناج» فى «سبورتنج» هى مكان التواعد والتعرف وإنهاء الصفقات. وبعد الحرب اشترى جورج عربيتين «لورى» واشتغل بالنقل وفتح الله عليه. وكانت عنده غرفة على البحر، فى فندق سيرانادا فى ستانلى، صيفًا وشتاءً. وكانت الغرفة زجاجية كلها من ثلاث نواح، وداخلةً فى قلب الخليج الواسع.

تخرجت واشتغلت فى المتحف اليونانى الرومانى بعد فترة تعطل طويلة وانخرطت فى الحركة الثورية التى كان يتمخض بها البلد ويمور، وطلعت فى المظاهرات واشتركت فى تنظيم الاضرابات وكوّنت خلايا سرية، وكتبت بيانات وتحليلات ومنشورات، ودخلت المعتقلات، وخرجت منها، ويئست من العمل السياسى، ومن الحب، ومن الحياة، ولم يكن جورج يفهم ماذا أفعل ولماذا، طوال الوقت، ولم يكن يبالى، ولكنه كان على الأقل لا يسخر منى وينصحنى فقط بأن

اكون عاقلاً ويتمنى أن يتوب ربنا علىَّ وكنا قريبين جدًا أحدنا من الآخر، ثم تباعدنا، ولا أعرف، منذ سنين طويلة، ماذا حدث له.

وفى ١١ فبراير ١٩٥١ كنت أتوجس من حملة البوليس التقليدية علينا فى ليلة عيد ميلاد الملك، وطلبت من جورج أن أبيت فى غرفته فى ستانلى فأعطانى المفتاح بصمت وقال لى عدٌّ علىَّ بكره الصبح فى المحل، فقط. وكان موظف الاستقبال فى فندق سيرانادا يعرفنى من زمان فحيّانى بهزة من راسه، وكان الممر المفضى إلى الغرفة خاويًا ومعتمًا ووقع أقدامى على البلاط الأسود المغسول له رنين. ودخلت، وأدرت زر النور، فوجدت الغرفة، حية، وأحاطت بى.

كانت الغرفة ضيقة ودافئة، والسرير صغير ولكنه ناعم لين رقدت عليه فورًا من التعب والقلق، وغاص بى، وعلى الأرض سجاد عميق الوبر طوبى اللون، وعلى الحائط صور زيتية لنساء عاريات، راقدات وراكعات، ولحمهن محمر النسيج وأملود الحنيات، كأنهن سمكات أنثوية، فارغة العيون تمامًا.

كان البحر مصطخبًا أسمع عجيجه من وراء الزجاج المغبش بالندى، والأنوار على الكورنيش الطويل أراها من ورائه بقعًا صغيرة لها أسنة مشععة مهتزة، ممتدة واحدة بعد الأخرى بعيدًا. ولم أستطع أن أقرأ فأطفأت نور الحجرة الكبيرة ونور «الأباجورة» الحمراء جنب السرير، ودخلت تحت البطانية الصوف الكثيفة الناعمة وأحسست جفاف الملاءة النظيفة البيضاء تحتى، وكان ضجيج الأمواج يلتطم تحت الغرفة، يضرب أحجار المبنى وأعمدته،

وأسمع رشاته المليئة تخبط وتنحسر ثم تعاود ارتطامها بصخور البحر وحيطان الفندق المتينة، وكنت أحس نفسى وحيدًا جدًا، ومغلقًا علىَّ تمامًا، فى قلب هذا الهدير الرتيب الذى ما عدت أسمعه، فى دويه المتصل، وحيدًا وغريقًا أتنفس هواء غرقى الدفىء المريح، ونمت أخيرًا وأنا أفكر فى غموض الليل الذى يدوم بهدير الموج الملح المتراوح لا يكف عن الارتفاع والهبوط من جديد، ولا أفكر فى شىء آخر.

وفى الفجر فتحت عينى فجأة، وقمت، وفتحت النافذة فى الواجهة الزجاجية. نشقت الهواء الملح الرطب المنعش، ملء صدرى، وفكرت: هل عدت الليلة على خير؟ وكان البحر هادئًا تمامًا، وقد انجابت العاصفة، وسطحه ساج ممتد، زيتى السكون فى النور الوليد الذى يضفى على العالم صمتًا مائيًا كأنه ترقب، وانتظار للفرح.

كانت ترتفع من مرآة البحر الرصاصية اللون صخرة نائتة عريضة رأيتها مكسوة بأكملها بالنوارس، كأنما حطت عليها سحابة كثيفة مبطنة بالريش الأبيض، ساكنة عليها، متشبثة بها. النوارس متجاورة متزاحمة، الجسم المطوى يلتصق بالجسم المطوى، وقد أحنت رءوسها وأدخلت مناقيرها الطويلة فى صدورها، محدبة الظهور، أجنحتها مطبقة إلى جانبها، وكانت كلها تبدو جافة، مكسورة.

وألوان البحر قد أخذت تتخطط، أمام عينى، بنفسجية وزرقاء وبيضاء فضية مشعة تحت سحاب أبيض تختفى الشمس وراءه،

وتضيئه باحمرار سائل مشاع، وهدوء البحر عميق، صفحة مبسوطة لا تكاد تترجرج، وشوشة الموج الذى يترقرق، على مهل، ناعمة، أسمع صوت الصمت المطبق تطرزه وتنمنمه، فجأة، زقزقة العصافير التى تتواثب على الرمل الطرى، وتنقر العشب اللزج والودع والصدف الحى بمناقيرها الصغيرة السريعة. ومن بعيد صدى نداء يتردد على الكورنيش: سيد.. حسونة.. لا يكاد يسمع، وعلى آخر المدى أرى عاشقين غامضين على الرمال العذراء. فى هذا الفجر؟ أى هيام لا يقاوم؟ أية رغبة مبهمة وخرساء، مطلقة تدفعهما يمشيان على هذا الشط الموحش المبلول؟

عند التقاء الرمل بالموج خط الطحلب الأخضر الذى يبيض حينما ينحسر عنه الماء، غض ويابس على التوالى، بلا توقف. قلت لنفسى: أبدى، دائم، أمام فنائنا وانتهائنا.

وقلت: أوقوف، بلا رحمة ولا دموع، على ما باد من طلل، واندثر؟ فماذا يجدى؟ وبم يقام؟

وقلت: وهل من معلول ـ بالعكس ـ إلا على الرسوم الدوارس؟

الشاطئ طويل هش مشدود، ملقى بين الفراغ والملء، خصر هضيم ضامر مسحوب، قابل للانكسار فى أية لحظة، فى أية بقعة، لا بؤرة له يتكثف وراءها ويحميها بنطاق وراء نطاق من الحواجز الواقية، خط متموج يقع على حرف هوّة لا قرار لها، متلاطمة، وخادعة عندما تهدأ، لأنها دائمًا مهددة بالعصف وضاربة بحبال الماء، سحرها جذاب لا يقاوم، وجمالها لا يمكن أبدًا الإحاطة به ولا

الانتهاء من تملى مفاتنه، قوية الأذرع ممدودة إلىَّ تدعونى دعاءً لا أعرف كيف أصده، دعاء فى الاستجابة له وقوع القضاء الذى لا مرد منه. على هذه الحافة الهشة القلقة، بين الحياة والعدم، وطنى الذى لا أعرف كيف أستقر إليه.

أنظر إلى البحر وأفقه الغامض، أعرف أنه لا شيء وراءه، أبدًا، هذا امتداد لا نهاية له للعباب المجهول، إلى ما لا نهاية له. وكأننى أرى شاطئ الموت نفسه، سوف أعبره، بلا عودة ولا وصول.

مياه كثيرة لا تغرق عشقى، والسيول لا تغمره. صخرة ناعمة الحنايا أنت فى قلب الطوفان، سفوحها ناعمة غضة بالزروع اليانعة، بالسوسن والبيلسان، ترابها زعفران، خصب وحى، ترف عليها حمامة سوداء جناحاها مبسوطان حتى النهاية، لا تكف رفرفتها فى قلبى.

٧ ـ السيف البرونزى الأخضر

كأنَّ ساحة المنشية عنده - هو ساكن غيط العنب - ليست من هذا العالم.

لأن العالم كان غيط العنب.

الفراغ الشاسع فى ميدان المنشية، ومبانيه الشاهقة بأعمدتها المدورة الرخامية الشكل، ونخيله السلطانى العالى بجذوعه البيضاء الرشيقة الناعمة، تميس صفوفًا على طرفى الحدائق الطويلة، اليانعة دائمًا بعشب غضّ وطرىّ، والترام يتخطر ويدور حولها، أصفر ونظيفًا ويومض، وعربات الحنطور خيولها الصهباء، سنابكها تدق موسيقى مُوقّعة على الأرض السوداء تلمع بالبلل، وهذا الهدوء، والجمال، والسعة الفسيحة، هذا أسطورىّ مخيف قليلا، ومُغوٍ جدًا.

أما هو فيعيش بين البيوت الصغيرة، من دورين أو ثلاثة بالكثير، مبنية غالبًا من الطوب الأحمر القاتم، العارى من غير ملاط، والشوارع بينها ترابية وأشجارها وجناينها كثّة وريفية الشكل.

قال: لم أكن أعرف أن البكاء على الأطلال موجع بهذا الشكل.

أطلال الطفولة والصبا والشباب التى تقوّضت ومازالت رسومها ماثلة، غير دارسةٍ بعد، وأنقاض القلب الذى دمّرته أمجادٌ معاشقه ولكن أعمدته قائمةٌ لا تريد أن تنقضّ ولا تريد أن تنقضى.

فى يوم أحد الشعانين ذهبوا إلى الكنيسة وحضرَوا القُدّاس وعادوا بالسَعَف اللبنىّ الخضرة، أبيض تقريبًا وغضّ الجلد، مخصوفًا على شكل صلبان صغيرة وكبيرة وأكاليل مُشّبكة ومدّورة متداخلة مازال ظلّ الماء المقدس يبللها. وفى العصر زارهم فارس افندى، وكان صديقًا لأبيه، وزوجته الست أم أليس من حبايب أمه، وكان موظفًا بالسكة الحديد وقصيرًا بدينًا مكوّر الجسم ويلبس نظارة سميكة الزجاج وطربوشًا ضيّقًا على جبهته المنحدرة إلى الوراء. كان يسمعهم أحيانًا يقولون إن اليس لميخائيل، وكانت البنت البيضاء المدورة تُنفّره جدًا بضحكتها البلهاء ونظرتها الزيتية وجلس فارس افندى مع أبيه على كرسى الصالون الجديد، كان كرشه المتضخم المحزوق فى «بنطلونه» المرفوع قليلا يستقر على فخذيه القصيرتين المدملجتين، براحة، وكان فى كلامه خُنّة خفيفة. دخل الولد يسلّم عليه، ألحّت أمه عليه: أدخلْ بقى سلّم على الراجل أدخل يالّلا، فسمع أباه يحكى للضيف حكاية مضطربة متقلبة الأدوار عن النحاس باشا عندما كان مسافرًا مع الزعماء إلى مؤتمر فى بنى سويف، فحاصر الجنود المحطة بأسلحتهم وأوقفت الحكومة سفر القطار كله فلم يدخل المحطة أصلا، وقضى النحّاس باشا

ليلته على رصيف المحطة فى بنى سويف، ونام على مقعد خشبى طويل من مقاعد الانتظار. وعندما اقتحم الناس المحطة فى الصباح، فى صفوف متراصة وسط الرصاص، ضرب العساكر النحاس باشا بالعصىّ الغليظة وافتداه سينوت حنّا بك بذراعه فانكسرت، بينما كان الناس يحطمون، بالبُلَط والفئوس، سلاسل الحديد الممدودة على باب المحطة، وقُتل وجرح كثير. وكان فارس أفندى غاضبًا وقال إن النحاس باشا زعيم الرعاع، ولم يكن يعرف هذه الكلمة، ولكنه فهم فورًا أنها شتيمة وأن الناس رعاع، وردّ أبوه بحمية على صديقه وقال إن النحاس خليفة سعد وزعيم الأمة وعدو الاحتلال الإنجليزى وإنه يحمى البلد ساكتًا ولم ير أباه يتكلم أبدًا من قبل بهذا العنف وهذه الحدّة.

وفى يوم اثنين البَصْخَة، بعد الظُهر، نزل مع أمه ليشتريا حاجات العيد الكبير، ذهبا بعربة حنطور إلى شارع انسطاسى، ووقفت أمه بعيدًا، قليلا عن باب المحل وذهب هو يجرى إلى أبيه فخرج معه من الشغل قبل ميعاده، وقطعوا شارع السبع بنات مشيًا حتى المنشية، ولفّوا على المحلات بين كنيسة سانت كاترين والكنيسة اليونانية فى المنشية الصغيرة ودخلوا هانو وشركة بيع المصنوعات المصرية. واشترت أمه خمسة أمتار من قماش حريرى منقوش ستفصّلها فساتين لأخواته البنات ومترين بوبلين أزرق فاتح مقلّم لتصنع له جلابية جديدة على العيد، وبكرات الخيط الأبيض والملون و«فانلات» والبسة وشرابات وحذاءً جديدًا له من الجلد الأبيض السميك له نعل كثيف، وأحذية ملونة بسيور وزراير لأخواته،

واشترت لنفسها قميص نوم فضى اللون «ساتان» لامعًا بحمالات له وَبَرة خفيفة ناعمة ومُوشىً بالدانتيلا من تحت ومن فوق، ولم يشتر أبوه لنفسه شيئًا وقال إنه الآن عنده كل شىء ماداموا قد اشتروا هم لوازمهم وعادوا يحملون اللفف والرِّبَط وعلب الجزم الملفوفة «بالدوبارة». وعلى مقدم المساء ركبوا ترام غيط العنب من أول محطة فى ميدان المنشية.

كانت بهجته بملابس العيد الجديد، وتشوّقه إلى فرحة شم النسيم يوم الاثنين القادم، تمتزج بحسه المُمِضّ الغريب بأن أسبوع الآلام قد بدأ وأن المسيح سُيرفَع على الصليب، فى العراء، يوم الجمعة الحزينة وعلى رأسه تاج الشوك، ويطلب ماءً فيعطى شرابًا من النبيذ والخل، وأنه سيموت من أجلنا وإن كان رئيس الملائكة ميخائيل سيدحرج الحجر على فم القبر المقدّس ليلة سبت النور، وسيقوم المسيح، مجيدًا، من بين الأموات.

كان الترام خاليًا، تقريبًا، والمصابيح الكهربية القوية الشكل تصب نورها الثابت الأبيض على المقاعد الخشبية، مقوسة ومتينة، من أضلاع خشبية مصقولة فى لون الكهرمان الفاتح، متلاصقة، وأرضية الترام من ألواح خشب عريضة متجاورة، بينها شقوق رفيعة جدًا، تربطها سيور عريضة لامعة فيها مسامير ممسوحة الرءوس. وكان الولد يحسّ، فى جسمه، وثاقة «الترام»، وطاقته المنطلقة بقوة كامنة، وهو يدور حول الميدان الفسيح.

الحصان يقوم فى وسط الميدان، عاليًا وساكنًا. رقيق الخصر، صافنًا، يرفع ساقه الأمامية مثنية كأنه يهمّ بالانطلاق ولا يتحرك

أبدًا، والفارس فوقه شامخ ومتمكن، داكن الخضرة، عمامته كبيرة ومتعددة الطبقات، يطير الهواء بثيابه وعباءته الفضفاضة، والسيف البرونزي الأخضر مدلىّ إلى جانبه، كامُن شرُّه وتهديده، مخبوء، ولكنه ماثل.

وحول قاعدة التمثال الرخامية الناصعة حديقة صغيرة مدوّرة لها سياج حديدى من حلقات واسعة متداخلة، دائرىّ، تعلو فوقها مصابيحُ النور، عناقيد خُماسيّةٌ من حبّات كبيرة بيضاء لدنة النور، تصبّ ضوءها اللبنى على الخُضرة اليانعة القصيرة العشب.

كان هواء الليل يدخل إليه من نافذة «الترام» المفتوحة، يهبّ على وجهه الذى يحسّه مندّى بعرق بارد، قلقلة «الترام» تهزّ معدته فتطفو، وتَمُوع، فى داخله، ويتجلّد، يعلّم كيف يصبر على نفسه، كيف يقاوم اضطراب أحشائه، بينما العجلات تصرخ وتئزّ فى احتكاكها بالقضبان التى تدور.

أحس بأرضيّة الترام ترتفع إليه، كالموج، ومعدته يقبض عليها تشنّج لا يُقاوم، وتتكون فيها على الفور عُقدة قوية طاردة، ولم يستطع، أخيرًا، أن يحبس نفسه، دفع برأسه من النافذة الزجاجية المفتوحة، وسفعه الهواء البارد بينما أحشاؤه تنقذف دفعة واحدة إلى الخارج، صوت التقلص خشن وغريب، وهو ينحنى على نفسه ويتهوّع، مرة، مرتين. ويتطاير الرذاذ الأبيض بعيدًا عنه. تلتصق بجدار الترام الخارجى، المندفع، قشرةٌ طرية بيضاء تتسع مع حركته إلى الأمام. أحس بيد أبيه تمسك به من ظَهره تُثبته وتسنده

وأخرجت أمه منديلا أبيض، فيه نفث عطرِها الخفيف، جافًا ومطرزًا بدانتيلا صغيرة جدًا سمنيّة اللون ودقيقة الخروم، فمسحت به أركان فمه، وذقنه، وهو يسقط إلى المقعد، فى راحة، مفرغًا، خاوى الجوف، قلبه يدق.

وانطلق الترام فى الشارع الضيق الهادئ، أبواب المحلات الكبيرة مغلقة، ولكن واجهاتها الزجاجية العريضة منيرة على الملابس والأحذية والأقمشة المفرودة، وله جلجلة بهيجة ذات صدى.

أغفى الولد قليلا من الحركة المهتزة المتأرجحة، وتعب النهار، والهواء الطلق، وحسه بالفراغ والاطمئنان فى معدته، ورأى فى غبشة النوم والصحو كأنّ النحاس باشا واقف بالليل على رصيف محطة مصر، تحت سماء معتمة فسيحة، وكأن صدره عارٍ ونحيل على رأسه ما يشبه الطربوش ولكنه حادّ الحافة مُسنَّن بأسنان سلك شائك، وكأن عسكريًا رومانيًا بخوذة ودرع، يندفع إليه فى فراغ المحطة الخاوية، وعلى حقوية شرائط معدنية تلتفّ حول ساقيه المتينتين ويضربه بالحَرْبة الطويلة فى جنبه، وكأن الحربة تغوص فى ذراع رجل أسمر عريض بشارب قوىّ فى كامل ملابسه الرسمية، وكأنّ صوتًا قال له: سينوت حنّا بك. ولكن الدم ينز ببطء من يدى النحاس باشا المبسوطتين المدقوقتين بآثار ندبة غائرة سوداء، وكأن جماهير غفيرة من الناس تهجم وهى تزار بهتاف يدوّى كالهدير، ويصطفق، كأنه رعد. فانتفض، وأحس أباه يهزّه برفق ويقول: اصح يا سيدى.. يابن ستى.. وصلنا خلاص، ورأى الترام يصل إلى نهاية الخط، أمام الكركون، بالقرب من بيتهم.

وعندما نزلوا من الترام كان يحس ساقيه مفرغتين وليس لهما قوام، فأمسك بيد أبيه بقوة، وهو يصعد سلالم بيتهم المظلمة دائمًا، الغامضة بحياة محتشدة وخفيفة دائمًا. وفتحت لهم خالته وديدة، وكانت بيضاء الوجه ومنتفخة العينين قليلا وفيهما حَوَل خفيف، شعرها المجعد بنّى داكن وخشن الملمس، ورشيقة الجسم هضيمة، أطول من كل أخواتها. وقالت له: ياختىّ..! مالك يابنى يا ضنايا وشَّك زى اللبن الحليب.. تعالَ معايا. وأخذته إليها، ناحية غرفتها وأخرجت من صدرها، خفية، قطعة «تُوفى»، أحسّها فى فمه دافئة ولدنة.

كانت هذه الغرفة الكبيرة، فى آخر البيت، فيها سريران متجاوران بينهما ممر ضيق. وكانت جدته أماليا تنام أحيانًا مع بنتيها، وأحيانًا فى سرير جده، يكتشف ذلك عندما يستيقظ مبكرًا جدًا ويجرى فى البيت النائم ويدخل عليهم فى هذه الغرفة الخفية بأسرارها، وكان ذلك كله يحيّره جدًا ولا يستطيع أن يسأل عنه. وتُحيّره أيضًا قطع الملابس النسائية المتناثرة على سرير خالتيه وديدة وسارة. قمصان النوم وملابس الخروج والملابس الداخلية الملونة الرقيقة. وكانت تسحره السوتيانات الصغيرة الكئوس بقماشها الدقيق الخروم أو الشفاف وسرائحها الطويلة الرفيعة التى لا يعرف كيف تتصل وفيم تنعقد وكيف تنفكّ، يفكر فى ذلك قليلا ثم ينسى ويَذكره من جديد عندما يراها مغسولة ومعلقة على الحبل فى سطح البيت، تتقطر بالماء الخفيف والشمس تنفذ من نسيجها الناعم الملون.

وكانت خالته وديدة متحذلقة وذربة اللسان، والوحيدة بينهم جميعًا التى تستطيع أن تقول «تشيكوسلوفاكيا» أو «طلعت أدبّ نزلت أدبّ لقيت الدبّ يقزقز لب»» بسرعةٍ خاطفة، دون أن تخطئ. وكانت تحكى لهم حكايات فى ليالى الصيف على السطح، يتحلقون حولها: هو وأختاه عايدة وهناء، وإسكندرة الجميلة بنت خالة أمه، ووطواط الفاتح السمرة ابن خالته حنونة وأخته مارية اللامعة السواد، وقد أتى كل واحد بمخدة أو شلتة وجلسوا على الحصيرة فى الهواء المنعش. وكانت تسحره تقلبات مصير الشاطر حسن وحِيله لصعود القصر العالى لكى يرى ست الحسن والجمال ولكى يهرب من أمِّنا الغولة، ومصير الأميرة بنت الملوك والسلاطين عندما تسخطها العجوز السحّارة إلى بقرة حلوب خصيبة تُذبَح وتُجمع عظامُها فى حفرة حتى يأتى الأمير ابن ملك البلاد التى فى آخر الأرض عند جبل القمر، فيضم العظام التى تئن وتتوجع فى حضنه، يُدْفئها بحبّه ويغمرها بدمعه، فيعيدها عروسًا باهرة الحسن والجمال. وتمضى الحكايات وتتجسد له شخوصها، فى الليل الهادئ الصامت، وجسده مغمور بالقمر، ويقترب أكثر من خالته وديدة حتى يحس أمنها، ودفئها، بجانبه، ويستيقظ فيجد نفسه فى سريره، فى غرفته، فى أول الصبح، بجنب أختيه النائمتين، لا يعرف كيف وصل إلى هناك.

ويستيقظ بالليل فجأة على سريره العالى المزدحم باللحاف الثقيل، أعمدته الأربعة السوداء تحاصره، والكُرات النحاسية داكنة الصفرة، عيون جاحظة ومقفولة تنظر إليه مع ذلك، تعرفه. واللمبة

نمرة خمسة مضيئة على الحائط، بنور مُحمَرٍّ شرير متراوح الظلال.

البيت الغاصّ بالناس كأنه مهجور، وقد ناموا جميعًا وتركوه وحده.

أحس فى دفء الغرفة، وصمتها الليلى، أنفاسًا غريبة، هواؤها ثقيل ورأى على الحائط ظلَّ شىءٍ ما، يتحرك ويتموج فوق الدولاب، ويهتز على خشب النافذة المغلقة.

لكنه لم ير ما هو، أحس فقط حضوره المهدِّد، يراوده، يتربصّ به، ويقصده.

أحس به يقترب، مازال لا يراه ليس له جسم، ولكنه هناك، لفْحُ أنفاسه بارد، وظله يتكاثف، ويتجسم من غير أن يُرى، ويقترب ويقترب. كل الرعب الذى فى قلبه لم يعد يُطاق.

صرخ صرخة تمزق لها الليل، والصمت.

صرخة لم يعد فى العالم إلا طَلَب النجدة النهائية فيها، طلبًا ثاقبًا، يجأر، ينادى ملأ كل فراغ، وخرج من كل حصار.

والأقدام تجرى إليه، وأخته الصغيرة تبكى فى غرفة نومها مفزعة، وهو يضع رأسه فى حضن أمه، ويغمض عينيه فى صدرها، ولم يكن يبكى، بل جسمه كله ينتفض. وفى اللحظة التى غاص فيها فى حضن أمه رأى أباه واقفًا على الباب فى عكس نور مصباح الفَسَحة الخارجية، لم يرَ وجهه، بل قامة طويلة مظلمة، ولكن شامخة وحنون فى الوقت نفسه.

سمع أمه: أنا عارفة السَرْعَة دى بتجيلك ليه يا ضنايا..

صرخته نفسها التى مازال يجأر بها على حافةِ نومِ شيخوخته، مهما حاذر منها ودار حول تهديدها.

وحْشةُ النور الخافت بعد جلجلة الصرخة، خاوية وصامتة. وهو يدخّن سيجارته، مستندًا إلى ظهر سريره، مستَنْفَدًا، وحوله من يحبهم، قد آبوا إلى نومهم. حُنوُّه لهم، وعرفانه، شريانٌ يتموّج فى جسم الليل.

القلوبُ ومَثواها، والذى هدهدها وأشجاها، منفيّة أبدًا فى أحلامها ومُناها.

نزل من «الترام» فى تقاطع شارع النبى دانيال وشارع فؤاد، ومشى بقية المشوار إلى «البطرخانة». كانت بدلته الصوف الجديدة خشنة الوبر قليلا، وحذاؤه الأسود ثقيلا ولامعًا تحت الشراب الأبيض الممسوك «بأستك» عريض على منتصف ساقه. واشترى من بائع الجرائد، على رصيف الشارع، مجلة اللطائف المصورة، ورأى على غلافها صورة مرسومة تخيلها الرسام، ولكنها شديدة الواقعية لقطار تطايرت عرباتُه وتناثرت، والعساكر الإنجليز ممدودو الأذرع والسيقان فى الهواء، طوّح الانفجار بخوذاتهم وبنادقهم، وتحتها أنّ الثوار الفلسطينيين الشجعان قد نسفوا قطارًا حربيًا محملا بالمؤن والذخيرة والعتاد العسكرى. وكانت جماعات الناس الفرحة تدخل إلى ساحة البطريركية من الباب الحديدى الضيق العالى.

كان القُداس طويلا، يعلو ويهبط، والكنيسة مزدحمة بالناس الذين يحملون الأطفال الصغار فى لففهم البيضاء. هل كان هذا أحد التناصير؟ جوّ العيد، وتراتيل الشمامسة، وصراخ الأطفال، وصلصلة المثلّث النحاسىّ، والقسيس يهزّ المجمرة يتصاعد منها البخور، والسيدات والبنات فى الجانب الأيمن وفى الشرفة الحجرية التى تدور بصحن الكنيسة، ورءوسهن مغطاة، وملابسهن ملونة، وهو يقف ثم يجلس ثم يقف مع المصلّين، وقد شبع من النظر إلى الأيقونات الأربع والعشرين العالية المتلاصقة: التلاميذ الاثنا عشر مكررون مرتين، ألوان الأيقونات فى إطاراتها الذهبية زيتية داكنة الخضرة والحروف القبطية صغيرة رأسية على كل جانب كل أيقونة. ورفع أبونا يديه فوق الرءوس ورشّ بأصابعه الماء المُصلَّى عليه فتناثرت قطراته على المصلين مع ارتفاع التراتيل، وأحس طلّ الماء المبارك على وجهه ثم تسلّل من أمام المقاعد الخشبية المزدحمة وخرج إلى الردهة الرخامية النظيفة بين الأعمدة المدورة، ونزل الدرجات العريضة، وكانت ساحة الكنيسة مليئة بالناس، وباعة الصور المقدسة الصغيرة، والأولاد يجرى بعضهم وراء بعض ويصيحون ويتنادون والناس يخرجون ويتحركون مسرعين، متلهفين. وفجأة تزاحم الناس كتلة واحدة تحت البيت البطريركى فى الممر الرملى الذى يفصله عن جدار الكنيسة العالى المصَمت، واشتد الزحام حوله، والرءوس كلّها مرفوعة إلى أعلى، والأجسام تتكاثف حوله، والناس يقول بعضهم لبعض فى فرح: سيدنا.. سيدنا.. وفجأة ارتفعت صيحة تهليل واحدة من الناس جميعًا، الرجال

والنساء والأولاد، يهتفون: باركنا يا سيدنا.. باركنا.. باركنا، حتى ظَهَر الوجه الضاوى النحيل، شفّافًا فى سمرته الرائقة وكأنه مضىء بلحيته البيضاء السابغة، وعمامته السوداء المدورة فى النافذة الضيقة اشتد الصياح والهتاف بلوعة وفرح، وامتدت اليد الرقيقة على الرءوس فنثرت أشياء معدنية صغيرة براقة سقطت على الناس، قِطعًا من العملات الفضية الصغيرة والبرونزية اللامعة تنهمر من بين الأصابع الرفيعة الطويلة التى تهتز، كان الوجه مريضًا ومقددًا ولكنه منير، وجه رجل عجوز، وجهه الأخير. ظهر لمحة خاطفة، وهو يتمتم، يبارك الناس بشىءٍ لم يعد بعد مسموعًا، فى نشوة الصراخ والنداء والتوسل من الساحة التى تلاصق فيها الناس، ثم انحنى الجميع على الأرض، يلتقطون من الرمل النظيف ومن على الأذرع والأكتاف قِطَع نصف الفرنك والملاليم، كلّها جديدة ومُشعة، أو يحاولون الإمساك بها فى الهواء وهى تهبط كالمطر المتفرق على الرءوس. من بين الأرجل المتدافعة والأجسام المتحركة التقطتُ نصف فرنك فضيًا، مدورًا وصغيرًا يومض وعليه حبّات رمل خفيفة.

احتفظت به، بركة، سنواتٍ عديدة، لكنى لم أعد أجده. أين ذهب؟ كانت عنده قاعدة محبرة خشبية جاءته هدية من ابن عمته بقطر، عندما عاد من القدس ومن يومها كانوا يقولون له المقدّس بقطر.

كانت منحوتة على شكل جَمَل صغير، رقيق التفاصيل، من خشب ناعم صُفرته داكنة ولامعة.

والجمل عنقه أتلع ممدود للأمام، ورأسه غريب، حى، كامل التدوير، وعيناه مفتوحتان حالمتان، وله سنام محدّب تتفتح فيه فجوة مستديرة، وسيقانه الطويلة كأنها تسير وحدها، على أخفافها اللينة المضغوطة، بخَبب هادئ لا يتوقف. كان الجمل قادرًا. لم يضع فيه محبرة أبدًا، وظلت النُقرة المدورة الخام فاغرة، محبّبة النسيج. وكانت قاعدته خشنة الخشب أيضًا، ومكتوبًا على جانبها الأيسر بالحروف القبطية وعلى جانبها الأيمن بالعربية «أورشليم ١٩٣٢».

كان يضع الجمل، بعناية فى درج خاص من «البوريه»، آخر درج من تحت. فيه الأشياء التى تحرص أمه عليها، أمشاط الشعر التى على شكل أقواس مطعَّمة بالعاج وحبوب الصدف المتقلبة الضوء، وثلاث زجاجات عطر مركّز، مغلقة بسدادات زجاجية محكمة، ولكن عبقها نفاذ، من الصندل السودانى، والياسمين البلدى، والعنبر اليَمَنى، وحارق، ومكحلتها الفضية الصغيرة التى على شكل طاووس ناشر جناحيه وبجانبها المِروْد اللامع فى حافته المستدقة الرأس أثرٌ باهت من الكحل، وشرائط رفيعة من القماش الحرير اللدن الملتف بعضه على بعض مُنساب كأنه حىّ يتلوى، والدانتيلا الملونة الدقيقة الخروم، وعلبة معدنية رقيقة الجدران فيها دبابيس وإبر الخياطة وبجانبها المقص الضخم بشفرتيه المضمومتين شريرًا ومنذرًا فى رقدته، يتحدّى أن يمسكه، والجمَل بين هذه الأشياء، كأنه مَلِك. يعتز به، يمسكه يحيط بيديه، ويُخرجه من بين هذه الغابة من الأشياء المحملة بشحنات غامضة فيهدأ جَيَشان قلبه عندما يراه فى النور والهواء شامخًا ومتكبرًا ووديع النظرة معًا.

ضاع منى بعد ذلك بسنين ولم أجده مهما حاولت ومهما بحثت.

وأحسست حرجًا مكتومًا غائرًا لا يندمل، ولعله لم يندمل حتى الآن.

كانت أمى، وخالتى وديدة وستى أماليا يقلن عن عم مقار - زوج خالتى حنونة - بصوتٍ فيه سخرية خفيفة أحيانًا. وغيظ: العبد التَنْتُون.

كان هائل الجسم، وجهه أسمر لامعًا وطيبًا، ويعمل فى السكة الحديد.

تزوجته خالتى حنونة - وهى صغيرة جدًا - عن طريق الكنيسة، فلم يكن له أهل يعرفهم، الكنيسة ربَّته، وعلّمته، وشغّلته. ووافق جدّى ساويرس، أما ستى أماليا فكانت خائفة على عَدَل البنتين وديدة وسارة، ولم يرضَ قلبها على عم مقار إلا بعد ذلك بسنين طويلة، عندما شاخت جدًا، وكانت عندهم فى البيت، وكان هو الذى يؤكلها بيده، وكان جسمها قد ضمر، وصغر، ولم تعد تستطيع أن تمشى فكانت تزحف على الأرض، وكان عم مقار هو الذى ينظِّفها كل يوم عندما توسخ نفسها، ويُحمّيها بالماء الساخن فى الشتاء، والماء البارد فى الصيف، بيده، وكانت تدعو له ولأولاده بالصحة وطول العمر وأن يحفظهم المسيحُ ويطرح فيهم البركة.

وكان عندهم بيت مِلْك على قمة شارع كريم وشارع العيون فى آخر غيط العنب، بالقرب من جامع سيدى كريم، وكان عندهم مجلات مصر والمقتطف ومجلة السكة الحديد اللامعة الورق

نصفها بالعربية ونصفها بالإنجليزية وفيها صورة قاطرة تاريخية ورسوم هندسية للصمامات والغلايات والمكنات وشوابك العجلات، أتملاها بشغف. وكنت ألعب مع ابن خالتى وطواط وكان وجهه مدورًا وباسمًا وفى لون الكاكاو باللبن وكله شقاوة وعفْرتة، وأحبه جدًا. كنا معًا فى ثانى سنة من مدرسة الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكية، وكنا نهرب، أحيانًا، من المدرسة، فى الفُسْحة الكبيرة، ونجرى إلى بيتهم ونتسلق عمود النور ونقفز منه إلى سطح البيت ونقع بين الفراخ التى تنقّ والديك المُتْلع العنق الذى يُهاجمنا بُعرفه الأحمر ومنقاره المشرَع، بشراسة، بينما تثغو الماعز المربوطة بحبل إلى مسمار فى الحائط، ثُغاءً شاكيًا، وننزل معًا وثبًا على السلالم المفتوحة المبنية بالطوب الأحمر فتفزع خالتى حنونة وهى تخبز أمام الفرن فى الحوش الصغير جالسة على الأرض وتشتمنا ثم تضحك معنا.

كنا نسكن أيامها فى شارع اللبان، أمام وابور الطحين ومدرسة البنات، وللبيت شرفة كبيرة أرضها من الأسمنت الرمادىّ المعجون بالحصى اللامع المَنَعَّم المصقول، ولها حاجز حديدى مشغول، وتطلّ على دوران الترام، بعد مسافة، أمام الكركون.

وكان وطواط ابن خالتى يأتى ونلعب الاستغماية على السطح وندخل أقفاص الفراخ ونغلق أبوابها المصنوعة من السِلْك علينا ونختبئ جنب حائط غرفة الغسيل ووراء الملايات والملابس المنشورة ونجرى على البلاط الأبيض النظيف بين صغار البط بمناقيرها

الصفراء المبططة والكتاكيت التى تجرى مفزّعة ورقيقة جدًا بين أرجلنا، ونصنع بيوتًا من علب السجاير البيضاء وعليها رسم مُذهّب بخطوط رمادية لرمسيس الثانى وعجلة عربته الدائرية وحصانه المنطلق أبدًا إلى الأمام، ثابت الجرى، أبدًا، لا يصل إلى غايته، وقبل الأعياد نعاكس الخروف المربوط فيهجم علينا بقرنيه المتشابكين الغليظين، ويقف عندما يشتد الحبل حول رقبته ويتوتر ويكاد ينقطع وهو يزفر، مُحنيًا رأسه، ونحن نثب أمامه ونصرخ من الرعب والفرح.

وفى عصر يوم غائم وثقيل السماء كنت أقف بالشرفة مع خالتى وديدة وخالتى سارة، ورأينا الترام يأخذ الدوران الواسع قبل محطته الأخيرة، بعيدًا أمام الكركون، وعجلاته تصرخ فى احتكاك حاد، ثم يبطئ فى اندفاعه، ويقف قبل المحطة. وسمعنا نداء الناس وصيحاتهم، ورأيت جسم الولد الصغير يتدحرج تحت العجلات، غير واضح، وأشياءً مقطوعة تبدو لا صلة لها بهذا الجسم الذى غاب تحت أرضية الترام العالية، وأخرج الناس ما بقى من الولد وحملوه على الرصيف والدم يسقط منه فى خيط متّصل مهتزّ، ووضعوه على الرصيف أمام سور الحديقة الكبيرة، القاتم اللون، تحت أغصان الشجر الكثيفة الملتفّة الساقطة على السور. وسمعت جلجلة جرس عربة الإسعاف ورأيت الجسم الصغير المكوّم يحمل على النقالة ويغيب فى بطن العربة الحمراء البيضاء. وكانت صدمة الحادث قد هزّت قلوبنا، وكنا نسأل يا ترى من الذى سقط وقالت خالتى وديدة: يا ضنايا يا حبيبى..! ربنا يصبر قلب أمه عليه..!

لم نعرف إلا فى آخر الليل أن ابن خالتى وطواط هو الذى سقط تحت عجلات الترام، ومات قبل أن تصل به عربة الإسعاف إلى المستشفى الأميرى.

هل كان هذا أول فقدان؟ وهل كانت الضربة من القوة حتى كدت انساها، وانسى أول وأقرب صديق لى فى الطفولة، وآخرهم أيضًا، الذى أحببته ولعبت معه بحرية صافيةٍ فى لُعَب لم أعرفها مع أحد بعد ذلك، إلا فى صنُع الحب مع مَنْ عشقت فى آخر العمر؟ كنت أطوف معه، ومع العيال، القَبَط والمسلمين سواء على البيوت فى ليالى رمضان، ومعنا، كلنا، فوانيس رمضان، ونأخذ النُقل والمكسّرات من على أبواب البيوت ونحن نهز الفوانيس الملونة المشتعلة بنار شمعها البيضاء، ونغنى حاللو يا حاللو رمضان كريم يا حاللو، ونُفرّق ما حصلنا عليه، وبالتساوى بين الكل. وكنا نلعب الكرة الشراب وحاورينى يا كيكة وكلوا بامية، تحت عمود النور بزجاجهِ المربّع الذى يئز بطعنة الغاز الأبيض الثابت، ثم نجلس تحت العمود على الأرض، ونسمع بشغف، وقلوب واجفة، لحكايات العفريت الذى طلع لأكبر الأولاد فى الحلقة وسد عليه السكة، ولم ينقذه منه إلا فارس رومانى فى يده حَرْبة طويلة، وحول رأسه نور باهر يعشى العينين، وعلى درعه علامة الصليب، كبيرة، وهّاجة.

وأنا أستيقظ من نوم قلق على السرير غير المألوف، الغرفة جافة الهواء من التدفئة المركزية، وأفتح شقًا صغيرًا فى النافذة فيهاجمنى نواءٌ قارس قاطع، أنظر من وراء لوحَى الزجاج المزدوج

إلى الساحة التى يغطيها ثلجٌ بلون أردوازىّ باهت كأنه أكوام صغيرة من طباشير رمادى هشّ، تشقّها قضبان الترام وأنهار الشوارع المُسفلتة المتقاطعة، غرفة الفندق القديم مازالت معتمة فى الصبح الباكر، فيها «فوتيى» عريض فَرْشُه الأحمر المضلّع حائل كأن التراب قد تغلغل فى قماشه ورسخ فى فتائل النسيج، والستائر الثقيلة لها شراشيب مشعّثة، مصنوعة من القماش نفسه. وعندما فتحت الدولاب الخشبى وجدت أبوابه صعبة الحركة وفيه رائحة ملتبسة.

كانت صفوف متعاقبة من الناس تأتى إلى محطة الترام فى وسط الساحة، ملفّفة بالمعاطف، والجِلد والفرْو والقماش السميك، ورءوسها مغطاة بالقلابق والشُبّكات، ألوانها كلها قاتمة، ويتدفق الناس، ويركبون صامتين كلٌ مهموم بنفسه، أيديهم مدفونة بعمق فى جيوبهم أو مكفّنة بالقفافيز الغليظة، والترام يمضى بهم، كبيرًا أصفر اللون يتأرجح، وأسمع من وراء الزجاج الثقيل قلقلة عجلاته وصراخها الحادّ فى الدوران. والثلج قد تجمّد بكتلته الصلبة اللينة الشكل مع ذلك، لونه شاحب تحت نور مصابيح المغنسيوم فى الشارع، بصفرته الحادة، دوائر النور الأصفر على أفاريز المبانى القاتمة العريقة وأعمدتها المنحوتة فى الحيطان المتينة الحجر، وعلى أغصان الأشجار الرفيعة المسننة، بجذوعها السوداء كأنها محروقة فى الشتاء.

الطفل الذى كان ترام راغب باشا يمخض قلبه، تحت السيف البرونزى الأخضر، كان يركب معى هذا الترام المضىء الدافئ فى برد أول الصبح، يقطع هذه المدينة الجميلة الشهيدة، عرفتُ متعة

خضرتها ونشوة مبانيها الناعمة فى ربيعها الذى سرعان ما انطفأ، وعرفتُ قسوة الصمت فيها، والحصار، وهبَّت علىَّ من قتيلها كاف المسيخ أنفاسه الدعوب المكتومة فى عالم كابوسه الدقيق الحادّ. كان يرقب أباه وهو يحلق ذقنه كل صباح، وقبل حمّامه، فى المساء ثلاثَ مراتٍ فى الأسبوع أيام الإثنين والخميس والسبت، بانتظام، أو كلما عنَّ له أيضًا فى غير هذه الأيام.

يحلق بموسى طويلة قديمة الطراز، مثل التى عند الحلاقين، من الصلب الأبيض الرقيق القوى، مُقعَّرة قليلا على طول منتصفها، شفرتها القاطعة لونُها أقل لمعانًا من جسم الموسى نفسه، ولها جراب قاتم الملمس من مادةٍ عظْميّة مُفصّل على آخر الموسى بحيث إذا انطوت انثنت على المِفصلة داخلة فى الجراب بصوت ارتطام مفاجئ. ومعه جلِدة عريضة، سميكة، يعلّقها بمسمار فى حائط الحمَّام، يسنّ عليها شفرة الموسى إذ يحكّها بالجلْد بضرباتٍ عريضة منتظمة حاذقة وثيقة الملمس لها صوت طرىّ، حتى تصبح الشفرة رفيعة جدًا ومرهفة وناعمة الحد ليست فيها ذرة من الخشونة. وكان أبوه يُرغى بالفرشاة العريضة من شعر الخيل، فى قصعةٍ عميقة من المعدن الذى يلمع، حتى يرتفع زَبَد الصابون ويتكاثفُ بياضُه بوشيش بارد يخفت تدريجيًا ويهبط بعد انتفاخ، ثم يمر بالموسى على ذقنه بحركة عريضة محكمة، وينفّض الرغوة القليلة المكحوتة، بلونها المغْبَر، نفضاتٍ سريعة فى حوض الحمام، ويترك الماء المنصبّ على الحنفية يغسلها، فتعود الموسى حادة من جديد ولامعة.

فى الليالى التى يستحم فيها أبوه، تُسخن له أمه صفيحة الماء على «وابور الجاز» وتُدخلها له فى الحمّام، يتصاعد منها البخار فى حلقات متطايرة بيضاء. طقوس الخلاص المُتَهلّ الصغير من يَوْمِ العالم، طقوس الخُلوص الحميم الرثّ إلى جِسْم الحب.

وبعد أن يَخلصُ أبوه من الحمَّام ويدخل غرفة نومه، جديدًا وفواحًا برائحة الرجولة والنظافة، وكأس «الكونياك» مليئة، ونسيرة الفرخة أو الديك، وشرائح البيض المسلوق المقطَّع الجاهز تحيط به حبات الزيتون الأسود الغضّة الجلد، كان الولد يرى أحيانًا فى الحمَّام كومة صغيرة مبلولة من الشعر المحلوق الرقيق، أسود وأبيض، لم تنزلق بها المياه إلى الفتحة المدورة المظلمة. ويخطف قلبَه الروعُ وقدماه تكادان تنحدران إلى الفوهة الغامضة الفاغرة، التى تُفضى إلى عالم ما تحت الأرض بما يقطنه من أولئك الذين يأتون إليه فى رعبِ الليل بعد النوم، بأنفاسهم اللافحة وأجسامهم المتموجة، وحضورهم محسوس حى وغير مرئى سيقانهم تدقّ بلاط البيت بحوافر مشقوقة، خطوها مُسترق ومتربّص. ويسمعها تئن أنين الحزن الذى لا شفاء له وبنات الظلام يخرجن إليه على هيئة امه وخالته، أو جارتهم اليونانية أم توتو، أذرعهن الناعمة تدور حول عنقه فى الليل بحنان قاتل معتصر، والبقرة الذبيحة تخرج بعد هبوط النوم، وتجمع عظامها الجافة التى تفرقع وتخشخش، ومازالت عظْمة الكَعْب ناقصة، ضائعة، والبقرة تنوح، من غير العظْمة المفقودة لن ينفكّ الرَصَد ولن تعود البقرة إلى جسمها الأصلى قبل أن تسخطها ضرتها الساحرة الشريرة، امرأة باهرة

الحسن والجمال عارية تسرع إلى تغطية ما بين فخذيها بأوراق شجرة الجميز الخضراء التى لابد أن تضفرها معًا وتجدلها بخيط مفتول من سرّتها المفتوحة تدور فى الشقة المظلمة الآن، تبحث عن سر الرَصَد، وتهمهم بلهفة والتياع.

يتقلّب فى مفازع الكابوس الموحش، وحده، حتى الآن.

كان بين النوم واليقظة، فى غرفة النوم التى تبدو فسيحة وخالية ولكن ثقيلة وغريبة. وكانت الحُمى، ورعشة البرد المتكررة تنفضه، لا يدرك تمامًا أين هو، بينما يسعل سعالا جافًا ممزقًا، يريد أن يطرد من غورٍ عميق فى صدره شيئًا رازحًا ومتشبثًا. ألذلك كان ينام، وحده، على السرير العالى المنصوب، وحده، فى الليل، أوراق الصحف القديمة ملفوفة حول صدره، جفّ السبرتو والخلّ عنها، تخشخش قليلا ويحسّ خشونتها على عظمه، تحت الفانلة والبيجاما؟ وهل كانوا قد انتقلوا إلى بيت عبده فى محرم بك، والأثاث مازال مفكوكًا فى الغرف الثلاث والفَسَحة. جاء الليل عليهم ولم يفرغوا بعد من تركيب العفْش ونقله إلى أماكنه، رصُتْ القفف والسلال والربط، الكَنَبات معووجة لم تفرش بعد، الكراسى بعضها فوق بعض، أخشاب السراير والدولاب قائمة على الحيطان وممدودة على الأرض. أخرجوا الأطباق والحلل والملاعق وتعشّوا على الطبلية، كيفما اتفق! ألذلك كانت أخواته ينمن على مرتبة الكنبة الإسطنبولى المفرودة على حصيرةٍ على الأرض مغطاة بالملاءات البيضاء النظيفة، وهو وحده، لأن عنده حرارة ورعشة ينام

على السرير؟ أكانت أمه قد غلت صفيحة الماء، بعد هدة النهار وكدّ العِزال، وفرغ أبوه من الحمَّام، واستحمت بعده وناما الآن على مرتبة السرير الكبيرة على الأرض، تحته، بعيدًا في ظلمة الليل؟

سمع، في صمت النوم الثقيل، الصوت الخشن، هامسًا، ملحًا. وحفيف الأغطية والملاءات، تتحرك، ولم يكن يرى شيئًا. وجاء الصوت الخافت، فيه تمرد، حاد النبرة: لأ.. لأ.. مش عايزة.. لأ. وعاد الصوت المحبوس القويّ، مطموسًا في لهفته لا يُقاوم، ليس فيه إلا عنف التطلب والاقتحام. أما هو فقد تجمّد في رقدته، انعقد السعال في صدره وتكور ورسخ، صلبًا، لا ينزاح، كأنه مرصود، تحول حجرًا وفَقَد كل حواسه إلا السمع الذي يلتقط الآن، بوضوح الشهقات المتلاحقة، والفحيح العنيد، والارتطام الطرى، والنَفَسَ المتسارع، ثم الأنين الأبحّ المكتوم، آخر دفقات الجهد المبذول، مسفوحًا ودفينًا، ينتهي إلى تنهيدة الراحة، وصمتٌ مفاجئ ميّت.

في غمرات الحمّى كنت قد انزلقت إلى أرض ساخنة عامرة، وكأنني أطوف بأعمدة الجرانيت في «منف»، وباحات الرخام في «كورنثة»، وتحت عقود بغداد وقبابها المنقوشة بالخط الكوفيّ، وكأنّ الترام يتأرجح بي في شارع النبي دانيال، ودخلت إلى عَرَصة حارة ببخار الماء المتصاعد من نوافير تمجّها أفواه سباعٍ مكفتة بالفسيفساء، وكنت عاريًا وحواليّ الجواري الخود، أراهن وأحسهن ناعمات، مليئات الأجساد، ينسبن من بين يدى، ويتثنين عارياتٍ

كاسيات فى غلالات من الخزّ الموصلى، سوداء وشفافة وفضية وهفهافة ومطرزة بالذهب البندقى اللين وملفوفة بوشى مشمشى دقيق الخروم، وكُن كثيرات ومتعددات وواحديّات، يختفين ويظهرن، يتخطرّن مُقبلات علىّ ويَرُغْن، كالنَعَام، يهب بهن هواءُ حار فينحسر النسيج السلسال على أثدائهن مكورة ومخروطة وقائمة ولدنة وكبيرة وتفيض على اليدين وصغيرة وصلبة القوام، لكن منها نبقته فى لون العنبر، أو عِنَبُه الطويلة المترعة بلون النبيذ، بطونهن مقببة من عاج لدن جسدى بحت، وأطرافهن تتموج وتسبح فى لَجة هادئة كثيفة لا أراها ولكنّ مائيّتها تغمرنى، وكن ضارعات وشرسات ومطاوعات ونوافر وحائرات وهائمات فى غسق مُحَمّرّ يسيل كأنه يترك عليهن زَبَدًا داكنًا ينسرب رقراقًا برغوة ذائبة على اللحم الأنثوى المبتلّ الحى بحياة غريبة وأجنبية لكنها حميمة وثيقة القُربى، فى داخلى، وكان الدم يضرب فى جسمى ويدور جائشًا ومتقلبًا فى كل جوارحى، وكنت أعرف من ذلك أن السيّاف هنا، مُشرعًا سلاحه القاطع المخوف، ولكنى لا أراه، وكنت أعرف أن التى تتجاوز الجدار منهن إنما تعبره إلى ساحة مقتلها، وأن أجسامهن المشتهاة تسقط صريعة الضربة المصمية، وكان لضربات السيف بالأعناق الممدودة على النطع صدمةُ ارتطامٍ جافة، ومنتظمة الإيقاع، رتيبة، ومازلت يظهرن لى، ويختفين منى. الرعب والشهوة والغضب والرحمة لجج طامية ملتطمة فى يقظتى، متوترًا، مطعونًا، ساقطًا على سريرى منهوك الأوصال.

كانت الشمس المنصبة على الحيطان العتيقة العالية شفرة موسى تومض فى تقلب عتمة الحلم الساطع، وكان الحلم مبنيًا بحجر عريض وسيطى، شقق الزمن جلده الخشن ولكنه أبقى على نومة جسده الخفية. والحيطان تدور بوثاقة وإحكام حتى تنتهى، فى كلٍ من طرفيها، إلى برج قصير مدكوك مربع حاد الأركان، ليس فيه نوافذ. وكان الميدان الصخرى مهجورًا فى الظُّهر، والظلال السوداء جاءت محددة واضحة كأنها مقطوعة، مرميّة بثقل على الأرض، وعلى نصف البرج القوى الأكتاف. وكانت النافورة الجافة على شكل منقار بجعة كبيرة، منحوتة، رمادية، أكلت الأيام والمياه القديمة حواف أجنحتها الحجرية المفرودة، يحيط بها سورٌ من الصخر الأبيض الخام دائرى قليل الارتفاع.

وكان الترام يقف أمام البوابة المقوسة إلى الداخل قليلا، بابها الخشبى القديم له ضلفتان مدججتان بالأحزمة الحديدية العريضة برءوس مسامير غليظة مثمنة الأضلاع، تحت شجرة عجوز وعفية واسعة الأغصان ثابتة الورق. قضبان الترام المزدوجة تشق مسارها اللامع فى البازلت الكبير غير المنتظم الذى يغطى أرضية الميدان. المبانى ذات الأعمدة الرخامية تدور على جانبى الحصن العريض الذى يحترق نصفه بالمشس، ونصفه مقطوع بالظل الأسود.

كان الميدان، والحصن، والمبانى ذات الأعمدة، والترام، كلها مهجورة، وخالية.

وكان وجه المادونّا الحجرى صغير الأنف، مشروخًا، صوّحته الشمس الحارقة التى لا تغيب ولا تخف وقدتها أبدًا. شفتاها

الدقيقتان المكتنزتان فى وقت معًا، اللتان يعرف هو تَنَزيُّهما، وارتعاشتهما، والتصاقهما بفمه، وتدوّرَهما، وانفتاحهما له، ومسّتهَما الرفيقة كزغب ناعم، وتماسُّهما الوثيق المضغوط الملتحم، وحلاوة الريق العذب الناضح منهما وطعمَ ملح الدموع، المنحدرة عليهما، وعبثهما حول شفتيه واستسلامهما لرسالة حنانه كأنهما حيوانان صغيران كلهما حيوية وطاقة وبحث وطاعة وطلبٌ للحنوّ معًا تفتران الآن عن ابتسامة جامدة تحت عينين واسعتين ثابتتين، نظرتهما مدفونة ومطلقة.

كان هذا الولد يحمل كتب المدرسة يضمّها إلى صدره بشدّة، وهو ينهج قليلا من الجرى طول شارع الكروم الخالى فى العصر المُشمس. كانت أرض الشارع الرملية المدكوكة بالحجر الأبيض، ليّنة، وكانت يحسُّ حُبيبات الرمل تجرش بعضها بعضًا وتتدحرج قليلا تحت حذائه. ودخل من باب البيت إلى ردهة المدخل الواسعة، الرطبة الهواء بعد حرّ الشارع، المعتمة قليلا، أمام السلالم المسوحة الرخام. ووقف، وحده، كأنه يتحدّى كل الأبواب المغلقة وكل الأشلاء الممزّقة، وقلبه يدق، وانتضى سيفه فى الهواء كان الباب موصدًا صامتًا الآن، طالما شهده مواربًا عن شبَح البنت النحيلة، المحترقة بسفر الليالى فى قميصها الأبيض الناصل اللدن الوبرة، تناديه لكى تعطيه فى فمه مذاق حلوى الحنان الذائبة. والسيف الجديد الصلب يطعن فراغ العالم، قوىٌّ فى نبضه المحتشد، يُومض فى العتمة بلونٍ متضرّج داكن القتامة. انتضاه، ثم أغمده، فقط. وطلع السلالم.

أينما توليتُ، فى الغمّض وفى الصحوة، وكُلّكِ مشتهاة، فثم هذا الوجه أمامى، وجهك. ماثلا مستضيئًا فى حُرقة الشمس، ساطعَ الجمال، وسمرته أسيلة. عيناكِ لهفة الوجود، زمرّدتان قاطعتان فى القلب، صفحة هذا الوجه الرخيم هى النعمة، مفقودة، وقائمة أبدًا.

فرسٌ جموح، تشقّين السحاب، وساحة روحى هى برّيتك الفسيحة المتموّجة السفوح.

دوائر فخذيك ذهب خمرىٌّ مسبوك، ملساء باردة تحت خدىّ، لامعة وقاطعة بين يدىّ.

ثدياك، عناقيد كرم، ومازال سيفى على فخذى مسلولا أمام هول الليل فى يَمٍّ عشقى الملتطم.

وفمك حلو، ومازلت أنهل خَمرىَ الصهباء الصافية لا تغيض أبدًا، من عناقيد نهديك، ومن كأس سرّتك المدورة. سكرتُ من سَرَف سُلافتك التى لا تسعها بحورُ السماوات والأرضين، ومازال لسانى جافًا مقطوعًا على سنّ سكّينتك، أنينى ويقينى: هل من مزيد؟

وعلى يديك ينطف دمى، والعسلُ والخلّ، واللبنُ والنبيذ، معًا.

فى الآخِر، استيقظ دفعة واحدة، السماء صحو وليس فيها شمس ولا قمر وسحابها شفاف وثقيل، كان جسمها الخمرىّ العارى، بكل بضاضته، ممشوقًا مع ذلك كالسيف وناعمًا كأنه موجة عالية وثابتة، أمام النافذة، شرائح حصيرة النافذة المسدلة يتسلل

منها نور الغُمْر، مشاعًا، ليس فيه حدة، كأنه سائل لبنىّ اللون ورقراق، وصوت الماء يأتى من وراء الحجَر السميك، خافتًا، رغوته خفيفة، والهواء الملحىّ يملأ صدره، والعالم منفىّ وكأنه غير موجود.

أحَس طعنة من سنّ حادة، مدفونة فى جنبه باطمئنان، دون ألم. لا يعرف ما هى، سيف، سكين، خنجر رفيع ثاقب كالإبرة؟ كان جالسًا على حجر أبيض كبير مستقرّ على الرمل المتماسك، على سيف بحرٍ ساكن لونه كلون الصدَف، يلمع ويخبو.

أدار وجهه إلى جنب، وقذف من فمه كتلة دم صغيرة متخثرة، أحسّها دافئة ومكورة. وأحسّ على جانب شفتيه خيطًا رفيعًا لزجًا من الدم، متعلقًا بوجهه. لم يمسحه.

قال لنفسه: فى الرئة: نافُذ إلى الرئة. ولكن لماذا لا أجد ألمًا، ولا صعوبة فى التنفّس؟

وعرف أنه مقتول.

٨ ـ الظل تحت عناقيد العنب

كانت إسكندرة بنت خالتى لبيبة، كعروسة المولد

صافية، خمرية، ملساء، عيناها واسعتان خضراوان، وشعرها الوحف ذهبى داكن.

ولم تكن خالتى لبيبة، أمها، خالتى على الحقيقة، بل خالة أمى ولكن إسكندرة كانت فى مثل سنى، يمكن، أو أكبر قليلاً وكانت تلبس فستانًا حريريًا، أبيض، مخنصرًا، وواسع الحاشية، واسع التقويرة على صدرها . وكأنها لم يكن عندها غيره، وصدرها لم يكد ينبت، ولكنه على صغره، ناهد، وقوى.

وكنت، فى كل مرة، واجف القلب وأنا أزورهم فى بيتهم فى شارع نزيب قريب من بيتنا، أدخل من باب خشبى كبير، كأبواب المخازن، يفتح على حوش طويل كأنه حارة داخلية، فيه حنفية ماء سوداء غليظة الفوهة، قائمة من الأرض، عمودية، أمام مرحاض مبنى على الحجر الأبيض الخام، وحده فى الحوش، يخدم البيت كله، وقد نشع الماء فى تموج قاتم يدور بحيطانه الأربعة، وتهب منه، دائمًا

رائحة خاصة نفاذة. تظلله شجرة توت ضخمة فى الموسم تطرح حبها الأحمر الغض الدسم، وأحس أن فى داخل جذعها العريض المفتول حياة خاصة وباقية.

ركنت على حائط الحوش عجلات خشبية عالية، هائلة الاستدارة، مخلوعة من عربات الكارو والضيقة الضخمة، وصفائح مياه صدئة، وطسوت سوداء وكرسى مكسور الأرجل، وأنا أخطو بحذر وتوجس بين الكراكيب وبرك الطين المبلولة دائمًا، أمام ثلاث غرف متتابعة، وأبوابها مفتوحة عن بوابير الجاز التى تتقد وتفح تحت الطبيخ والغسيل والستات اللاتى تربعن على الأرض بلحمهن المنفرط وهدومهن القليلة المفتوحة عن أفخاذ مدموكة وصدور محصورة منبعجة، أو متهدلة ساقطة فى أفواه الرضع حتى أصل إلى غرفة خالتى - خالة أمى - لبيبة، فى آخر الحوش، جنب السلم الحجرى الخارجى الذى نصعد منه إلى سطح البيت، أنا وإسنكدرة، ويأتى معنا، أحيانًا، أخوها زكى، صغير الجسم، صموتًا وثاقب العينين.

نترجى لخالتى لبيبة لتعطينا مفتاح باب السطح، فتخرجه لنا من تحت رأس المرتبة على سريرهم الوحيد، وكان مفتاحًا حديديًا طويلاً له رأس على شكل حلقة مفرغة كبيرة.

كان السطح هو الذى يسحرنى.

كان مسورًا من الخارج بالحجر، وطويلاً، وله باب رقيق الخشب باهت اللون تفتحه بالمفتاح الصدئ الكبير، وعندما يصر الباب،

وينفتح، تفاجئنى، كل مرة، تكعيبة العنب التى تغطى السطح كله، مورقة، ومظللة وبليلة الأنفاس، والهدوء السارى، وخفوت كل ضجيج، والبلاد الأبيض النظيف ليس عليه إلا ورق عنب جاف ساقط وجذاذات رفيعة يابسة من فروعه وتراب خفيف مكنوس.

والنور تحت التعريشة اللفاء الممتدة فيف كأنه خمر عطر الخضرة، وكانت رقرقة الهواء بين أوراق العنب المتربة قليلاً، المتدلية من العريشة، واهتزاز حلقات الضوء المستديرة تلعب بها الشمس على البلاط الأسود بين الظلال الصغيرة المتروامحة كأنها رنين موسيقى خافتة من أصابع كريستال بلورية طويلة متأرجحة، وفى آخر الصيف أشم سكر العنب الذى يستوى مترعًا بعصارته، على مهل.

كانت إسكندرة تأتى إلى بيتنا، قبل الأعياد وقبل رفاع الصيام، لتشترى من وابور الطحين الذى أمام البيت نصف كيلة دقيق ناعم نمرة واحد، وتصنع منه خالتى لبيبة الفطير الفلاحى المشلتت على مرق الوزة أو ذكر البط. وكنت أصحبها إلى الوابور أساعدها فى شراء وحمل الدقيق، وأكون معها.

كان هذا المطحن يختلف عن مطحن راغب باشا الذى بعد الكوبرى.

هنا كنا ندخل، أنا وإسكندرة، من فتحة صغيرة مربعة مقطوعة فى جسم الباب الخشبى الضخم، نعبر فوق عتبة رخامية مرتفعة قليلاً فكأننا ننزل منها إلى عمق فسيح متموج الهواء معتم قليلاً بعد

الشارع بنوره الحاد، نجد أنفسنا فى باحة عريضة عالية السقف، خافتة الضوء، يسبح فيها رذاذ الدقيق كأنه ضباب جاف وشفاف ورقيق جدًا، وأرضها سوداء صلبة الحجر. ويقف فى مواجهتنا، فى آخر الباحة، حاجز عال من السلك الأخضر دقيق الخروم وفيه ثغرة مربعة مقابلة تمامًا للشق المفتوح فى الشارع.

ووراء السلك فى حزمة من نور الشمس تسقط فتحة مدورة مغطاة بالزجاج فى السقف، تقوم الأقماع الحديدية الهائلة، جنبها سلالم معدنية مكشوف مثبتة إلى الحائط بقضبان أفقية. تنصب الأقماع فى مواسير إسطوانية تهتز باستمرار وتدور حولها السيور الجلدية العريضة التى تدخل فجأة من شقوق ضيقة مفتوحة على مقاسها تمامًا فى حائط حجرى تقع وراءه منطقة المحركات الخفية والمحظورة علينا. فى المطحن كله تتجاوب أصوات الدق المتواتر الذى يأتى من وراء الحائط رتيبًا ومنتظمًا، ينبض بقوة قلب معدنى هائل، وخشخشة غربلة مستمرة متروحة الإيقاع ونشيش احتكاك الحبوب بسلك الشبكات المعدنية كوشيش الماء على شط خشن الرمل.

كان بيتنا الذى أمام هذا المطحن فى شارع البان، مزدحمًا ولكنه واسع فسيح ملىء بالحركة والحياة.

كنا نشغل الحجرات الثلاث من الناحية القبلية. ننام أنا وأخواتى البنات فى غرفة منيرة تطل على حوش خلفى بين البيوت، هادئ ومزروع وفيه تعريشة لبلاب كثة نرها من شباكنا ملتفة على

الحيطان وعلى قوائم خشبية قديمة وعلى جذوع ثلاث نخلات طوال سامقة تنبع كلها من جذر واحد عريض متشابك، وتميس بسعفها بين حيطان البيوت التى تنزل عليها من كل ناحية مواسير الماء والمجارى، رفيعة وسميكة، مدورة متجاورة، ومواسير صرف مياه المطر المفتوحة عند آخرها على الأرض ترويها فى الشتاء من ماء السماء.

و«الصالون» يقع بين غرفتنا وغرفة نوم أبى وأمى. وفيه الكنبة الإسطمبولى العريضة، والجرامفون ببوقه المفتوح، والكراسى المنجدة والخيرزان، ومائدة الأكل الطويلة، وتمثال البربرى الصغير الملون بعمامته الحمراء وقفطانه الأزرق ويداه تحملان منفضة سجاير تقشرت أطرافها وبان منها لحم الجبس الهش الأبيض. فيه نستقبل ضيوفنا، فإذا جاءنا أقارب أبى من الصعيد فرشنا لهم وناموا على الكنبة. وله باب عريض من ضلفتين من نسيج الزجاج نفسه.

يفتح هذا الباب على فسحة كبيرة طويلة، فيها، من الناحية الشرقية، الغرفة التى أخذها خالى سوريال وعروسه. بعدها، على طول، غرفة المطبخ المشمسة الكبيرة المليئة بالحلل والبرطمانات على الرفرف والمغارف والأطباق الصينى فى النملية وموائد الطبيخ المزدحمة ببوابير الجاز.

فى مقابل غرفة خال سوريال حمامان طويلان، لكل منهما نافذة عالية مدورة، ودوش، والمرحاض فى واحد منهما بلدى، وهو الذى أوثره وأعرفه، وفى الآخر أفرنجى ولا أدخله.

أما فى مواجهة المطبخ فالباب من الداخل على غرفة خالى يونان وامرأة خالى إستر التى كانت تحبنى، وكانت أيامها قد خلفت يعقوب، فقط منذ قليل، وترضعه. وكان خالى يونان ما زال عنده تاكسى مِلْك يسوقه ويكسب منه الشهد، وما زال يشتغل فى النقابة مع البرنس عباس حليم.

أما خالى ناثان فلم يكن يسكن معنا وإن كان يأتى أحيانًا على الفجر، يصحى البيت يفطر وينام، وكنت أعرف أنه يشتغل على سيارة لورى ضخمة يسوقها إلى دمنهور كل ليلة ويبيت هناك معظم الأيام، ولم يتزوج خالى ناثان إلا بعد ذلك بسنوات عندما شبع من الخبص مع النسوان ولم تخلف له امرأته فكتوريا بنت عم أرسانى إلا بنتهما الوحيدة. ولم أر بنت خالى هذه أبدًا، إلا مرة، واحدة، بالصدفة، فى كنيسة جبانة الشاطبى، عندما ماتت أمى. وهى التى عرفتنى بنفسها إنها تزوجت، وخلفت.

الباب الزجاجى الذى كان يفضى إلى ناحيتنا فى البيت أمامه بالضبط فى آخر الفسحة الطويلة، باب مماثل تمامًا يفتح على غرفة المعيشة المشتركة الكبيرة التى فيها ماكنة الخياطة السنجر، والبوريه الرخامى، وكنبة إسطمبولى أخت كنبتنا، وكراسى الطقم الجديد الذى صنعه خالى سوريال عند زواجه، والمائدة البيضوية الرخامية التى حفظت عليها جدول الضرب والإملاء الإنجليزى، وفيها أيضًا يضع جدى ساويرس بوص الصيد الطويل وعدته.

وتنفتح هذه الغرفة على الشرفة التى لها سور حديدى مشغول وتطل على مدرسة البنات، ووابور الطحين، ونرى منها، على جنب، دوران الترام فى آخر محطة له، والكركون، والجنينة الغامضة ذات الشجر الكثيف الذى تسقط فروعه الملتفة على الشارع. وكنت أحب أن أجلس فيها وأطل من بين حديد السور على شارع ١٢ الواسع المسفلت النظيف، وعلى حائط المطحن العالى الأصفر، وحديقة مدرسة البنات.

وغرفة المعيشة لها باب داخلى، على اليمين وأنت داخل، يؤدى إلى غرفة جدى ساويرس وتنام فيها جدتى وخالتى وديدة وخالتى سارة، وتطل على الحوش المزروع.

وكانت ستى أماليا، بقدها النحيل وحيويتها التى لا تنضب وكلمتها التى تمشى على الصغير والكبير، هى التى تظلل هذا العالم المتضافر المتنافر، وتحكمه وتسوده، برفق، ولكن بحزم وتمكن.

هذا البيت الذى يموج بالحركة والناس والزياط والنقار والثرثرة والخناقات والطبيخ والغسيل والأقارب والضيوف والضحك والمعاكسات وعواصف الزعيق والبكاء التى سرعان ما تنجاب والمعاكسات والحكايات، ويأوى أصحابه فى الليل إلى خفاياهم، كان مع ذلك واسعًا علىّ بل موحشًا عندى لا أجد فيه من هو فى سنى. عندما كان يأتى ابن خالتى وطواط وكنت أهرب معه نلعب على السطح، ولكنه راح الآن. لذلك كنت أحب أن أذهب إلى بيت خالتى لبيبة لكى أطلع مع إسكندرة إلى السطح الذى تعرش عليه.

تكعيبة العنب الطويلة المورقة، فى الصمت المظلل بحفيف ورق العنب.

كنت أحيانًا، أستيقظ من النوم مبكرًا، وأجرى إلى باب غرفة خالى سوريال، أطرقه بخفة حتى لا أوقظ أحدًا آخر. ومهما بكرت فى اليقظة كنت دائمًا أجد خالى سوريال وقد أفطر ولبس ويستعد للنزول. ولكنه يقول لى: تعال أدخل.. اقعد افطر مع مرات خالك. وكانت هذه الغرفة ضيقة قليلاً، محصورة، نافذتها الوحيدة يسدها الدولاب الجديد ببابه الواحد الذى تشغل واجهته كلها مرآت عريضة تردد صورة السرير وعليه المفرش الساتان الأحمر الداكن اللامع، والسجاد البنى المحروق الكثيف الوبرة الذى يدغدغ باطن رجلى الحافيتين. وكان فيها مصباح كهرى عال له شعب مضيئة دائمًا فى النجفة المتعددة الأوراق، حمرتها فاتحة وفيها عروق بيضاء متعرجة، وكانت الغرفة تثيرنى كلمات دخلت إليها، بأثاثها الجديد الذى تفوح منه رائحة اللوستر النفاذة، والمراتب القطنية العالية اللحاف الريش المنجد بساتان من لون الفرش، أحمر داكن فيه غرز مدفونة ماكرة الصنعة، وعبق الجنس وسره المغلق ينضح به وجه امرأة خالى الصعيدية الصموت، مدورًا وغضًا وبه آثار الزواق الخفيف على شفتيها المكتنزتين والكحل كأنه طبيعى فى عينيها السوداوين العميقتين. وكانت تلبس «روب دى شامبر» بالدانتيلا ضافيًا وسابغًا على قميص نوم من الساتان الأحمر الداكن نفسه، فتحته واسعة على صدرها الأسمر الوفير، ولم أكن رأيت شيئًا مثل هذا من قبل، كأنما كانت خجولاً من هذا السر نفسه وكأنما كانت

تخفى هذا الخجل عندما تناديني إليها، فيرفعنى خالى سوريال إلى السرير جنبها، وتضمنى إليها فأنشق منها رائحة الحمام والصابون المعطر ونفح الجسد الأنثوى الجديد اليقظة، وتعطينى بيضة مسلوقة من الطبق الذى على الكومودينو جنب السرير، أو بسكوتة بالمربى، وتعزم علىَّ بشفطة شاى باللبن من الكوب الذى تشرب منه، ويخرج خالى سوريال وهو يقول لى: خل بالك على مرات خالك، من الفجر دول.. أنا سايب معاها راجل أهو. ويضحك ضحكة صافية ليس فيه سخرية بل إعزاز وحنان أبوى. وكنت أفهم أنه يشير إلى معاكسات خالتى سارة والنظرات الفاهمة المعابثة التى تحدجها بها خالتى وديدة، وأحس بالفخر والقوة.

وكان خالى سوريال نحيلاً وقصير القامة نوعًا ما، ولكنه قوى والعضل فى ذراعيه مفتول جاف ومضلع كأن فيه طاقة خفية، وضحكته عريضة كالماء البلورى الرقراق ويعشق عروسه الجديدة بنت عم عبد المسيح، الصعيدية الحنون المليئة الجسم. كان نجارًا وعنده محل فى شارع الرند، مزدحم بالخشب وأجزاء الكراسى والدواليب والترابيزات والعدد، وكان يخرج البنك الكبير إلى الشارع الهادئ يشتغل عليه بالفارة أو المنشار، والمسامير فى فمه، والقلم الرصاص خلف أذنه. وعندما كبرت جدًا صنع لى مكتبًا كبيرًا كنت اذاكر وأرسم عليه وأنا فى كلية الهندسة. وكانت امرأة خالى مارية هى التى أخفيت عندها مكتبة كاملة من الكتب الثورية والمجلات الممنوعة والمخطوطات والمنشورات قبل قيام حرب فلسطين ١٩٤٨.

وعندما اعتقلت أحرقتها كلها فى الفرن الذى يخبزون فيه على سطح بيتهم وراء الكركون تمامًا، حرصًا علىّ، وعندما خرجت من المعتقلات لم أرها إلا لمامًا حتى ماتت بعد خالى سويرال، وبعد أن زوجت كل أولادها، وما زلت أذكرها، صموتًا وجميلة وعميقة العينين، وبمحبة، وأبتسم عندما، أذكر كيف كان جدى ساويرس يقول عنها: الصعيدية بنت الصعيدى، ولكنه لا يقول ذلك أبدًا على مسمع من أبى.

كان جدى ساويرس قائم العود، وجهه طويلا ووسيمًا وواضح التجاعيد لوحته الشمس بسمرة خاصة صحية، وكان يدهشنى عندما يشمر كميه ليغسل ذراعيه تحت حنفية الحوض، أن أجدهما، فوق الرسغين، بيضاوين جدًا. عرفت عندما كبرت أنه كان «باشكاتب» حسابات قد الدنيا فى البنك الزراعى فى شبراخيت، وأنه استقال فى عز كهولته ليعود إلى أرضه فى الطرانة، وأنه أنفق عن بذخ على الشرب والأكل والمضيفة ورهن الأرض ولعب على القطن فى البورصة حتى لم يعد إلا قراريط، ثم حملته ستى أماليا على أن يؤجرها ويعود ليعيش مع أولاده وبناته فى غيط العنب. وعندما خلف أخوالى عيالهم الكثار وانتقلنا نحن إلى بيت شارع الكروم أمام إسطبل العربات، عاد جدى إلى الطرانة، وبعدها بقليل نشبت الحرب وكنا نذهب أنا وأخواتى إلى الفلاحين عندهم فى إجازات الصيف.

أيامها كان مزاجه صيد السمك. كان يخرج كل يوم إلى المحمودية أو الملاحة، ويقضى ساعات فى غرفة المعيشة الكبيرة،

بعد الظهر، فى نور «البلكونة» يصلح صنانير الصيد ويضبط بكراته ويشذب الفلينات المدورة السوداء ويقطعها بمطواته الكبيرة ويركبها فى الخيوط الرفيعة المثنية الملفوفة بعناية ويقطع بنفسه أطوال البوص وأنا أراقبه مسحورًا. وعلى وجه الصبح، كل يوم على الله، يخرج وعلى كتفه البوصة الخيزران الطويلة الناعمة، بعقدها المتتالية العريضة، لونها أدكن مصفرة وأخشن من ساق البوصة، والمخلاة القماش التى أسود لونها فيها الصفائح المدورة الصغيرة ذات الأغطية يتقلب فيها ويتلوى على بعضه البعض دود الطعم والجمبرى الصغير الشاحب البياض، ويعود على العصارى وفى المخلاة رزق اليوم: قرموط كبير مفلطح الرأس شواربه الطويلة تلعب وجلده اللزج أسود على أبيض، أو البلطى الفضى القشر بلون الصدف المزرق المبلول أو حتى البساريا التى أفرح بها جدًا لأن ستى أماليا تقليها وتعطينى منها، من وراء أمى، جافة محمصة ساخنة فى الزيت الفرنساوى تقرقع رءوسها الهشة تحت أسنانى، بلذة وعندما كنت فى مدرسة الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسية سألنى منصور أفندى الناظر عما يشتغل أبى، فقلت بصوت خجول وبلا اهتمام: تاجر بيض وبصل فى شارع أنسطاسى. فلما سألنى ماذا يشتغل جدى ساويرس قلت بفخر وكبرياء، وبصوت عال سريع: صياد سمك. وغضبت منه جدًا فى سرى عندما ضحك بصوت أجش وحان، ولكنى لم أغضب طويلاً فلم أكن أسمعه يضحك أبدًا. ولم يأخذنى جدى ساويرس معه للصيد، أبدًا، مع أننى كنت أطلب

منه باستمرار، بخجل وتردد فى الأول، وبإلحاح وبكاء بعد ذلك، ثم من غير أمل أخيراً، ولكن من غير جدوى فى كل الأحوال.

كان جدى ساويرس يطلب منى أن أنزل فى الليل فاشترى له حق الدخان أبو غزالة، من البقال الذى على أول حارة من اليمين، بعد وابور الطحين وكنت أحس الدخان طريًا ولدن القوام من وراء الورق الخشن الداكن الخضرة، وعليه رسم الغزالة بالخط الأسود تطير فى الهواء بحرية، رافعة الرأس، ساحاتها فسيحة، وأسعد بها وبالشارع المنير وهوائه الرحيب والبيوت النائمة، أنوارها صغيرة تبرق وتتخايل من وراء الشبابيك، وأنسى عندئذ، محنة العودة، وعبور العتبة، وطلوع السلم. لأن الدور السفلى من البيت كان مقفلاً، ومهجوراً طوال إقامتنا فيه. ممن سمعت أن امرأة قتلت فيه، من زمان، بسبب العرض؟ ذبحها زوجها بالسكين، كما تذبح أمى الفراخ أو البط من غير أن يذكر عليها اسم الله. وحبسوه، ولم يفتح البيت من يومها ولم أكن أفهم تمامًا ما العرض ولكنى أعرف بالتأكيد أنه من أسرار النساء. وكنت أحيانًا، وأنا نائم فى عز الليل أسمع الأنين الأنثوى الملتاع الطويل، يصعد إلى من تحت، وأسد أذنى وأدخل تحت اللحاف، وأسقط فى النوم بسرعة.

كان السلم فى الليل مظلمًا ومخيفًا، وفسحة الباب معتمة ويهب فيها هواء رطب كأنه أنفاس حية، ترعبنى، وأحس صاحبتها تترصدنى من وراء باب شقتها، وتهم بالإطباق علىَّ. وعندما أدخل من الشارع يواجهنى باب الشارع الخشبى الثقيل المشغول، تحت شرفتنا، دائمًا غامضًا، وكأننى أدخله لأول مرة. أستمد الشجاعة

من عمود مصباح الغاز فى الشارع الذى يدخل نوره قليلاً من العتبة إلى الداخل ثم ينقطع فى ظلام دامس وسكون. أضع رجلاً على العتبة ورجلاً فى الخارج، وأنادى كل مرة، كل مرة، بصوت مرتفع فيه كل شحنة شجاعتى، أنادى باسمى أنا، بإلحاح، دون توقف، حتى يظهر النور المهتز من باب بيتنا فوق، وتحمله أمى أو خالتى سارة أو امرأة خالى إستر التى أحبها، وتتراقص شعلة اللمبة نمرة خمسة على السلالم والدرابزين، فترتد الأشباح وتنحل المفازع، وأسمع الصوت: اطلع.. تعالى.. ياللا.. فاصعد السلام وثبا، أربعة أربعة، وقلبى يخفق، كل مرة بالفرح كنا فى ليلة فى أول الصيف، والعالم قد خلا فجأة، أصبح مخوفًا صفارات الإنذار تعول عويلاً موحشًا، سمعت الكلاب تنبح بصوت مرتفع، فى السكون، والظلام الذى سقط.

نزلنا السلام مسرعين، من بيتنا، فى حارة الجلنار، إلى راغب باشا. كنت أمسك بيد أختى هناء من ناحية، وأختى لويزة من ناحية أخرى، وكانت أمى تحمل أخى ألبير الصغير، وأبى قد لبس البالطو على جلابيته البيتى البيضاء، ومعه أختى عايدة، صامتة وخجلة قليلاً من أنها كبرت الآن ولم تعد طفلة. وعبرنا شارع راغب باشا، وكان معنا جماعات صغيرة من الناس يتحدثون بهمس، ودخلنا من ميدان صغير فى تقاطع شارع إيزيس وشارع صغير لا أعرف اسمه، ودخلنا من الفناء الصغير إلى باب الكنيسة الإنجيلية المبنية بالحجر الأحمر، ووقفت بالباب بينما نزل أبى وأمى وأخواتى إلى البدروم المتين الصلب الشكل.

كنا نعرف باب سدرة قد ضرب، أمس بطوربيد، ونشرت الأهرام والمصرى والبلاغ خبرًا واحدًا وبنص واحد معًا، أنه انهار بيتان كانا آيلين للسقوط، وأنه لم يحدث خسائر فى الأرواح وأصيب ثلاثة أشخاص إصابات طفيفة. وكنا نعرف أن العمود، صباح ذلك اليوم، وقد غص بالجنازات المتتالية وأن الكنيسة فى جبانة الشاطبى أيضًا قد ظلت أجراسها تدق طوال الصباح وأن العديد واللطلم والشلشلة قد فاض من بين البيوت والأنقاض وأن صلاة الموتى والغائبين قد أقيمت فى جامع سيدى المرسى أبى العباس وفى الكنيسة المرقسية فى وقت واحد معًا. وقال أبى إنه فى طريقه لشغله رأى فتحة واسعة غائرة ظهر الماء فى قاعها، على دوران البياضة، ورأى، من خلال كوردون عساكر الجيش المرابط، الحيطان المتهدمة والأنقاض والأحجار المتراكبة، وأنه رأى بينها سراير حديدية متلوية ومحروقة معلقًا بها جلاليب وفساتين كأن أصحابها قد خلعوها الآن فقط.

كانت السماء فوقى قد أصبحت شاسعة مخيفة، تحمل الموت فى بطنها، الموت محددًا وضاربًا وثقيلاً ونهائيًا. وكان نور القمر قاسيًا فى سطوعه الفسيح. وانطلقت أسنة الأشعة الكاشفة سيوفًا طويلة متحركة من النور القاطع، آتية من أطراف المدينة ومن وسطها معًا، تدور فى الزرقة الصافية الحريرية، تتقاطع وتتجاذب وتتفارق وتتلاقى أطرافها لحظة وتتركز فى نقطة واحدة وهاجة ثم تتشعب، تجوس فى بطن السماء المغلقة عليها، تبحث عن بؤرة مراوغة بينما طلقات الآك الآك الرفيعة الثاقبة المتعاقبة تطقطق دون توقف ثم تنفجر فى ورود حمراء معدنية تتناثر شظاياها على الفور وتنطفئ،

وهدير محرك الطائرة بعيد وعال ولكنه مسموع بين انبثاقات الطلقات من المدافع المضادة للطائرات، فى الصمت الذى يجعل المدينة أكثر شفافية واتساعًا، من الأنفوشى إلى المندرة والمنتزة، من الرند والبان والنخيل فى غيط العنب إلى اللبان وراس التين وانسطاسى، من جليمو نوبولو وزيزينيا إلى ستانلى والنزهة والورديان، من حجر النواتية إلى كوم الناضورة، من سيدى جابر وسيدى بشر وباكوس إلى سموحة والمكس، ومن محطة مصر والرصافة إلى مصطفى باشا عودًا إلى عزبة الصيادين، كانت حبات إسكندرية عارية مطروحة، تغطيها فقط أسنة من شبكة الأشعة التى تطعن السماء.

فى تلك الليلة، عندما نزل الطوربيد من الطيارة الطليانية، على مقام سيدى أبى الدردار لم يصل إلى الأرض أبدًا.

قال شهود العيان إنه بينما كان الجسم الضخم يهبط ويتقلب، حافته المدببة مصوبة إلى الأرض ويومض تحت القمر بلمعة شريرة، انشقت قبة المقام الخضراء وسط تعريشة العنب المورقة المسورة بسور رقيق من الحديد، ثم التأمت على الفور، وصعد منها الحضور الأكرم لولى الله. وكان من الصالحين، يفدى عزوته كل أبناء مدينته البيضاء المحروسة، والبرنس المغربى السمنى الهفهاف ينفتح كالجناحين فى الهواء، ووجه كالبدر الطالع يكسف بدر السماء، سناه يعشى الأبصار، وفاحت رائحة المسك والعنبر المدفون فى المقام المصون، وإنه بسط ذراعيه فإذا هما عريضتان، نورانيتان، وتلقى فى

حضنه الطوربيد الهائل المندفع كالصاعقة فإذا هو برد وسلام، وطار به كلمح البصر أو أسرع فوصل به الحال إلى أكمة الشلالات العالية الخضراء الخالية من الناس، ووسده الأرض على جنبه، وقد نزع شرته وأذاه، فرقد بين الشجر الملتف الأغصان حديدًا باردًا ميتًا بلا حول ولا قوة وجده الناس فى أول الصباح فتوافدوا عليه ألوفًا مؤلفة، وفككوه دون ضرر ودون عناء، وكل واحد أخذ منه قطعة حديد خردة للبركة والعبرة وعندما وصل رجال الجيش المرابط وضربوا نطاقًا حول المكان لم يكن قد بقى من الطوربيد المهول إلا قطع صغيرة هشة من الصفيح، وكومة باردة مفتتة من البارود تشبه الفلفل الأحمر المطحون.

ثانى يوم قال أبى إن إسكندرية أصبحت خطرة على الأولاد وإن لقمة العيش وحدها هى التى تبقيه هنا، فقالت أمى إنها لن تتركه وحده أبدًا، وسافرت أنا وأخوتى جميعًا إلى بيت جدى ساويرس فى الطرانة، فيما عدا ألبير الصغير الذى بقى مع أمى، ومات بعد ذلك بسنتين بالتيفويد.

وكنت قد عرفت الطرانة وجئتها فى الصيفين السابقين، وعرفت لندة وأختها رحمة والولد برسوم وبقية العيال ومنهم الولد مخلوف ابن الشيخ عيسى جارنا فى نصف القرية الذى لا يسكنه إلا النصارى، وحدهم تقريبًا، مع أن الكنيسة تقع فى النصف الآخر، بالقرب من السراية الكبيرة التى ضرب فيها أنيس أفندى نفسه بالنار. وعرفت التجوال الطويل على المدقات الترابية بين الغيطان

العالية بالذرة، لغاية الطاحونة وما بعدها، وعلى جسر النيل، واللسان الحجرى الداخل منه إلى عرض النهر الواسع، أقف على طرفه، بين الأمواج والدوامات أنادى منه جنية البحر التى لم تطلع أبدًا هناك، وإنما جاءتنى فى الآخر بنشوات الجسد المسحور ومتعاته الجنونية التى يعرف غيرهن أن يذقنها لعشاقهن، جنيات النهر العميق.

وكنا نلعب الاستغماية أنا وأخواتى والعيال والبنات، أمام بيت جدى، تحت شجرة الجميز.

وفى حموة اللعب، مرة، هربت لندة فجأة من أمامى إلى ما وراء بيت عم أرسانى ودخلت إلى ممر ضيق مسدود بينه وبين بيت جدى، يظلله آخر فروع شجرة الجميز الفارهة، وكنت أرى كعبى رجليها، وهى تجرى حافية تثير التراب من على الأرض، فيهما بياض متورد وعليهما حبيبات التراب الناعمة الهشة وكنت ألاحقها، خلعت شبشبى أنا أيضًا، أحس التراب فى الزنقة باردًا وجافًا تحت باطن قدمى، وعندما أمسكت بها، فى آخر الزنقة، وهى تستدير تحاول أن تفلت من جانبى، مرنة، مسرعة، وتمرق من تحت ذراعى الممدودتين، ضممتها إلى، ووجدتها بين ذراعى، وقد أحيط بها ـ كما كانت تريد من غير شك، قلت لنفسى ـ وأحسست صدرها الحر النافر، وهى تنهج على صدرى، مضرجة الخدين وعيناها السوداوان الحالكتان متوقدتان، وبطنها، فى فستانها المشجر بالورد الأحمر والأصفر الصغير على أرضية برتقالية يصطدم بى، ويتلبث لحظة

واحدة، خاطفة، لا نهاية لها، وهى تحس بانتصابى وتعرفه، لحظة واحدة، خاطفة، تريده، ثم تنتحى عنه بينما وضعت شفتى الجافتين، وأنفاسى متدافعة، على جانب وجهها الذى وجدته أمامى فى هذه الخطفة من الزمن، وأحسست نعومته وحرارته ونداوته الخفيفة من العرق، قريبًا جدًا من فمها المفتوح المبتسم، ونشقت رائحتها الزكية، أولية وبريئة ونقية، رائحة الجسم النسوى العذرى اليقظ، ثم أفلتت من ذراعى وجريت وراءها خارجين من الزنقة التى كانت، منذ لحظة، ساحة فسيحة ساطعة، فإذا بنا نكاد نصطدم، كلانا، بجدى ساويرس، وكان راجعًا للبيت، يمشى ببطء مستندًا إلى عصاه الصفراء الغليظة العقد، وانطلقنا نجرى من وراء الشجرة حتى الجرن.

عندما عدت على أواخر العصارى، بعد أن لبست شبشبى، وطسست وجهى بماء حار حفنته من عند اللسان الحجرى فى النيل، ونفضت التراب من على جلابيتى البيضاء التى كان طرفها السفلى قد ارمد وابتل بالتراب المنعقد ولم تنفع فيه حيلة، ودخلت البيت، نادانى جدى ساويرس بصوت كنت أتوقعه. عندما اقتربت منه، متوجسًا ومتماسكًا، سألنى ماذا كنت أعمل فى الزنقة مع البنت لندة؟ فقلت كنا نلعب كلنا وليس فقط لندة، نظر إلىَّ بعينين نافذتين وعارفتين وصلبتين، وبدون كلمة ارتفعت يده وأحسست صدمة الصفعة الأولى والأخيرة فى كل صباى، الوحيدة من أى أحد، بقوتها المفاجئة ووقع الإهانة وسخونتها أكبر بكثير من ألم الضربة ولذعها، وكنت أسمعه، من وراء غيامة الغضب وحرارته،

يقول إننا كبرنا جداً عن لعب العيال، ويتكلم عن الأصول والسنة الفلاحين التى لا ترحم البنات. تركته واستدرت. وصعدت إلى الجميزة، عاليًا، إلى البقعة العريضة اتى كنت أختبئ فيها، منذ سنتين، وأترك نفسى لحلم الشجرة الوارفة وسماء النهار التى تغلفها وكأنها تنزل إليها وتحيط بى، وأنا أرتقى إلى الجذع العريض الممتد بين الفروع، يسعنى ويحملنى بثقة، وكنت أسمع أصوات البيت من تحتى والشوارع الملتوية الضيقة فى القرية والناس والبهائم والكلاب كلها بعيدة ولكنها موجودة. وكان غضبى تخامره كبرياء وعزة من معرفتى بأن تلك اللحظة لم تكن مسروقة تمامًا، ولا جاءت بالصدفة تمامًا بل كانت بمعنى ما مدبرة ومطلوبة.

وكانت ظلال الورق والهواء المنعش فى أعلى شجرة الجميزة المعزولة عن العالم، تهدهدنى. ولعلنى، بالرغم من الجرح، كنت قد نمت.

فى ١٢ بؤونة من سنة قديمة، كنت فى قاعة مدرسة الأحد فى مبنى الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسية. كنت أحب صوت مس كاترين النحيفة الطويلة البيضاء الوجه، جسمها كأنه نورانى فى فستانها السابغ الأبيض المرسوم بزهور دقيقة حمراء فاتحة، وهى تعلمنا الترانيم فى الغرفة الواسعة المعتمة قليلاً، فيها دكك خشبية طويلة صفراء لامعة، وصلبة، وكانت القاعة رطبة الهواء قليلاً، فيها شموع موقدة تحت أيقونة العذراء، بثوبها الأزرق الملفوف على كتفيها، تنظر إلينا نظرة غائبة، واسعة العينين جداً، وهى تحمل على حجرها الطفل البض المدملج الجسم، السعيد النظرة وعورته

الصغيرة عارية وبريئة وطبيعية وتدعو قلبى للحنان. ولأننى أجدت الترنيم أخذت من مس كاترين صورة ملونة، فى أعلاها كلمات بالقبطية ومقابلها بالعربية اللجنة العامة لمدارس القبطية الأرثوذكسية، وفى الصورة عملاقان يرفعان أذرعهما بالبشارة على خلفية السماء الزرقاء، وعلى حقويهما إزار من الجلد داكن، يقفان على أرض صخرية عالية فيها نباتات غضيرة ووحشية الشكل، ويحملان بينهما عصا متينة يتدلى منها عنقود هائل من العنب، وموسى شيخ أبيض اللحية يصعد إليهما من تحت الأكمة مستندًا إلى عصا معقوفة اليد، وتحت الصورة بالقبطية والعربية «عنب أرض كنعان»، والآية المختارة: «وأخبروه (موسى) وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التى أرسلتنا إليها، وحقًا أنها تفيض لبنًا وعسلاً وهذا ثمرها».

كنت أرنم وراء مس كاترين، بإيقاع يتردد فى الغرفة الواسعة، له صدى كنز مجد فِى السما.. كنز مجد فى السما..

ترنيمى إليك، الفردانية المثمنة المتملكة ملكوت اليوم التاسع غير المنقوص وعندها الأيام الثمانية معًا.

الوحدانية المنسوبة إلى بيرسيفون، منهكة، مهانتها تنوش نياطى، كامنة فى نباتات سنوحى، ما تنيى تنعب عبر السنين فوق دندنة الأحزان، حسنية.

منشدتى الأولانية المثناة، عنتها هيلينية النبرات، سيرينتى فى سنى الوسن، كاترينا.

إسكندرة، سيرافينا الفينانة المغدودنة على غصون الرند والعنب، نداوة جناحيها المنضمين علىّ لا نضوب لها.

هنية، ماندالا الحصين، دوران اختناقها فى أنفاس الإحن والمحنة ما زال يرين على العرين الجنوبى المكين فى الجنينة القبلية.

وفى نهج الجلنار، منى النفور، نازعة عنى، رنوتها إلى سن مسنونة تنخس نزواتى فى الجبانة المنحوتة بالصوان.

وفى الطرانة جميانة، أيقونة يانعة مونقة، نقطة النجيع أرجوانية من طعنة سكين نجلاء حول لجين العنق.

البانة المتثنية نواسة تحت السنط النضير، لندة، بتض لها بواطنى المتنزية، ونفحة بدنها نفث البشنين النابع من غرين النيل.

أما نعمة، فوطنى ومسكنى، كنزى ونواتى، منيعة، مانحتى حنانها وهناءتى وهى نقائى من أدرانى وإليها أنيب وفى حضنها أمنى وركنى ومنامى عند المنون.

وأما رانة فهى منافى. الجنية النهمة مناسكى إليها، كاهنة التنين سوسنة منف، مناتى الوثنية وفينوس مدنفتى، سنديانة كنيستى، نخلة نجرانى، زنبقة فى زعفرانى، جمانة النهار. النون.

النورس المتنمر ينقر عناقيد العنب بمنسره المحجون. وهو فى آن يونان المكنون فى بطن الدجنة ليس له منجاة، والنوتى الرهين ينقش المنمنمات سجينًا فى سفينته إلى نينوى التى لا منال لها.

وأنا فى كن نونك، نصفك إلى يمينى يمن ونعيم الفتون ونشوات الجنات والجنون، ونصفك الداكن نير النكال ونهش النيران حتى فناء الزمن، وعلى النصفين معًا نقلتى إلى تنتالوس. جنى الأمانى منية تدنو وتنأى. نبنبتى إليك وهنينى وجنوح أحنائى. نضو الضنى، كفنى بين النوم والناى. أنكل عن إيمانى وأنكث بنفسى. تونعين فأنكص. وتوقنين فأحنث. أنت دينونتى. نجواى إليك تنز نازفة، فى طين الدمنة الدفين. وحنينى إليك نداء إلى حنان جسدانى ونورانى معًا بلا نظير. وإذ أنزع إليك فإنما هو نشدان إلى أن أطامن من شجنك المستكين. انقضت ناعقة النوى على منكبى ونشبت أسنانها، ناءت بى، أختنق فى مكامنها. وهأنت قد نضوت عنك نصالك. تنحنى نوارتك على منتهاك غير منبتة، لن يكون لك منتهى. لا تند عنى نأمة. أنبض فى سكينة حناياك.

لكنى ما أنى أنزو إلى أقحوان عينيها، أعتنقها وأحتجن إلى رمانتى نهديها لا أنحى نظرتى عن ريعان حسنها المنيف. ولا نهاية لعنفوانها. أنشق نكهة سنبلتها. بين ردنيها نشر الند والنارنج والنسرين. نفاضة النجوم تنير على أناملى. وفى ترنان النواقيس والصنوج أنهل من ينبوعها، خدينتى يناغينى غنج مغانيها. لهبان التنور ينضجنى فأنطف بالمنى فى عجينتها الساخنة الريانة. هنالك تنبو أسنان التنانين، وتنتسف جنادل نكرانى كالعهن المنفوش، تذعن الطواعين وتتصاع الشياطين أخيرًا، نثارة فى عنان الأنواء.

أنت معمدانيتى الهتون على نهر الأردن. وأنت قنينة النكتار وأنت النجدة وأنت النذير.

ومع حنثى وخياناتى فإننى لم أنفذ قانونك أنت فعند الميزان أنزلينى منزلة النعماء المكنونة للعاشقين. آمين.

أغنيتى إليك ليست انينًا ولا نحيب النهنهة. بل هزيم النسر المطعون المنتصر. ترنيم الميم إلى أبد الآبدين.

قال: وكتبت النون بالنثرة على قرطاس من رصاص آن ووضعتها فى جام وغسلتها بالمطر، وغمست منها قلمى والقمر فى منزلته مضىء فياض الوهج فأتتنى الحيتان من موالجها الظلمانية منصاعة فى الحال، وحسنت عبارتى وازدانت إشارتى وذكرتها فى حنادس الدجنة بعدد قوى أسماء حروفها، فانبلجت لى أنوار عظيمة وانفتحت لى المخارج الربانية إلى النعيم امتلأ باطنى معرفة ونطقت بالنبوءات الغريبة الشريفة، وزال المى. وما وقع بصرى بعد ذلك على أحد إلا ارتفاع منى وغرس الله فى قلبه محبتى.

كنت قد خرجت من عتمة القاعة المهتزة بالشموع فى مدرسة الأحد، إلى نور الشارع الدافئ المظلل بالشجر، وفى عينى حلم بكنز مجد السماء. والهواء شفاف وله رائحة خفية مخضرة من أغصان العنب، وجريت إلى بيت خالتى لبيبة. كنت أعرف أنها عندنا فى البيت. وكانت إسكندرة تنتظرنى لامعة العينين. خداها مضرجان.

مددت ذراعى إلى آخرها تحت سريرهم وتكورت يدى حول جسم البوصة الطويلة الرفيعة والدوبارة الملفوفة حولها، وفى آخرها فلينة وصنارة صغيرة.

كنت قد انتقيت أصغر بوصة عند جدى ساويرس، وتسللت بها مبكرًا جدًا يوم الأحد، قبل الكنيسة، واخفيتها عند إسكندرة، وخافت هى أولاً ثم ضحكت ووضعتها على الأرض تحت سريرهم.

ولما سأل جدى ساويرس عنها ونادى، بغضب: فين البوصة الصغيرة يا ولاد؟ هربت إلى غرفتنا فى آخر البيت، وسكت. ومع ذلك كنت أصلى للمسيح بحرقة أن يغفر لى وكنت واثقًا انه غير غاضب منى. ويئس جدى من البحث عنها، وسلم أمره لله، وكان متحيرًا ولكنه لم يسألنى قط، مباشرة.

وكانت إسكندرة قد نبشت فى درغة الأرض المبلولة تحت حنفية الماء، وتحت شجرة التوت الكبيرة فى حوش بيتهم، واستخرجت الدود اللزج الدسم الشكل، ووضعته فى حق مستطيل واخفته تحت السرير، جنب البوصة، فأخذته، بسرعة، وأخذت إسكندرة من يدها، وخرجنا.

جرينا فى الشوارع الخالية تقريبًا، ومررنا أمام زرائب الجاموس برائحتها النفاذة وأقراص الجلة الطرية تجف فى الشمس أمامها، بعد صف من صفائح اللبن الضخمة المرصوصة، فارغة، ونفذنا من ثقب ضيق كنا نعرفه فى سور السكة الحديد، وعبرنا القضبان وسرنا بين الهيش والحلفاء والبوص والزلط حتى وصلنا إلى شط الملاحة المترقرق الضحل، والماء عليه ساكن وفضى وثقيل الشكل.

ومشينا قليلاً بحذاء الشاطئ حتى وصلنا إلى مرتفع صغير فى رمله حصى مضلع ومتراوح الأشكال، مدبب ومنبعج ومدور ومسطح،

يعطى للرمل استمساكًا وقوامًا، وتحت المرتفع جونة ماء عميقة تبدأ صغيرة عند الشط ثم تتسع وهى داخلة فى الملاحة، لونها أكثر زرقة وماؤها يترجرج بسيولة أكثر، وكانت الشمس قد بدأت تحمى، وجلست إسكندرة بجانبى على ركبتيها، فوق أكمة الرمل، فاحمر جلد ساقيها، الحصى الصلب الأملس، بينما وقفت وذهبت حتى حافة التلة الصغيرة وخلعت حذائى وأدليت رجلى حتى أوشكت قدماى ـ اللتان أحسست فجأة برطوبة الهواء عليهما ـ أن تلامسا الماء.

رشقت جسم الدودة المتنزية الزلقة بين أصابعى، فى سن الصنارة الحادة التى نفذت من الناحية الأخرى، ورفعت البوصة، وسقطت الصنارة فى الماء وطفت الفلينة بعد لحظة، باهتة اللون، فى فضة الماء السائلة. وانتظرت.

ماذا حدث؟ كيف سقطت؟

أحسست نفسى فى الماء، وكأننى أطفو، ثم أغوص بهدوء فى عمق يبدو أنه من غير قرار. وكان الماء حولى دافئًا ومحيطًا وحنونًا وشاملاً ومن غير نهاية، ولم أكن اشهق ولا أطلب النفس ولا أتخبط، ولم أكن قلقًا ولا مرتاعًا ولا مختنقًا، وكان هذا العنصر الرفيق الثقيل يحملنى ويسندنى فى نزولى الذى لا زمن فيه. والضوء حولى داكن وشفاف معًا، رازح ومشع معًا، كأننى فى غرفة مائية شاسعة المدى، وخصاص نوافذها تنساب منه صفحات رقيقة النسيج متتالية من النور والماء ممتزجين معًا. وكان سطح الماء فوقى يومض بإبر فضية دقيقة ومتموجة لا عداد لها، تظهر وتختفى.

الماء يتخلل تكعيبة العنب، ويغمرها، والعناقيد الثرة الداكنة الحمرة حباتها الغضة المدورة ملتئمة متضامة بعضها حول بعض، وتتدلى كأنها نهود متضرجة كثيرة ترفعها الموجات الصغيرة برفق بين يديها، والورق حولها وفوقها شفاف الخضرة تتلوى عروقه خيوطًا لدنة متشرجة الالتفافات، يمر بها الماء فتهتز، مطاوعة ومستسلمة، من الأغصان المبتلة العقد. وعلى الموج المضىء وجهها، بين ظلال تعريشة العناقيد والأوراق والأغصان المتعرجة، خمرى اللون ورخيمًا، يصعد إليه وينيره فى السيولة، من تحت، إشعاع نور متقد فى قلب الماء، من شمعة كبيرة ذبالتها المشتعلة يهتز بها الموج كأنها أيقونة مخضلة البشرة، وفيها حياة أخرى، وشعرها الذهبى مفكوك مسترسل منثور وملىء الخصل يحمله الماء فيصطدم بوجنتيها دون صوت، وقد أخذ لونه يدكن قليلاً من البلل، ويميل إلى لون الكهرمان المحروق المشع بالنداوة، والماء يذهب ويجىء، فى مويجاته الصغيرة، بصفحة الوجه الساجى، عيناها نجلاوان، من غير تعبير، ولكنهما تعرفاننى، وتنظران إلىَّ فقط. وكأنها تطل علىَّ، وجسمها فوق، بعيد عنى، من عالم آخر، فيه رقة السماء المفقودة وحنان الهواء الملحى البعيد، والماء الذى يحتضننى ويتفتح لهبوطى بلا انتهاء، يذهب بها، ويجىء. لم يكن الغوص إلى تحت قاسيًا ولا خانقًا، وكأننى لا أقاومه، بل كأننى أقبلة وأسلم إليه نفسى.

لم أمد إليها يدى، ولم أنادها، كنت أعرف فقط أنها هناك.

قال: أنت الشجرة التاسعة. أنت الريح على المياه العميقة. أنت أكمة مورقة بالأشعار ومزهرة بورد البريار.

الكرمة السماوية لا يأكل من عناقيدها إلا المغبوطون.

أول من دست على العنب بقدميك العاريتين لكى تعتصرى نبيذه المفرح للناس والآلهة معًا، يشربون من عذوبته المزة فيتكلمون سواءً بسواء.

أوزير واقف فى هيكله، مطوى الذراعين، مكفن بالبياض، والعناقيد تتدلى فى اتجاه وجهه المنحوت من الديوريت الأخضر، قريبة جدًا من فمه الظامئ.

قال: وعرفت أنه سيكون ما لابد أن يكون، واننى فى الزمان الثانى سوف أمنح أن أنهل من جنى العناقيد، لأن العنب قد نضج.

سقطت حبات العنب من عيون الصقر حور، ونظف الدم من العناقيد.

٩ ـ رفرفة الحمام المشتعل

كان الطفل يجرى إلى بيت أم توتو «الجريجية» فى تقاطع شارعى البان والنرجس، كأنه يلوذ بمكان مسحور.

لم يكن فى حسه، تمامًا، معنى أنها «جريجية».

كان الاختلاف حينئذ، عنده، من طبيعة الأشياء.

كان يشترى الفول من «التركى» بشاريه الأبيض الكبير المصفر قليلاً عند أطرافه من الدخان، وكان عندما يدخل بيوت جيرانهم المسلمين يحس شيئًا من الرهبة، وكان الكونستابل المالطى الذى ينطلق بالموتوسيكل فى شارع الترامواى يوقف عربات الحنطور والكارو ويرسل الخيل والحمير المقرحة الجنوب إلى الشفخانه ويشتم العربجية شتيمة بذيئة ويشخر لهم بالإسكندرانية الفصحى. وكان عم حسن التونسى بياع اللبن يسكن فى حارة وراءهم، وعنده فى البيت ثلاث جواميس وحمار أبيض فاره ويلبس البرنس المغربى السمنى الناصع يلقى طرطوره وراء عنقه، شعره الناعم أبيض ولحيته بيضاء كاللبن، وكان زوج خالته عم مقار أسود لامع السواد

وكان الصعايدة فى الزرائب، وفى وابور الطحين، والفلاحون الذين يبيعون الخس والجرجير والليمون والكرات على حميرهم، لا يلبسون إلا قميصًا داكن الزرقة قصيرًا مربوطًا بحبل على الوسط، والصيادون بلباسهم الإسكندرانى الأسود المنفوخ والصداريات ذات الأزرار الكثيرة على الفانلة الطويلة الكمين، يبيعون السمك فى مقاطف من الخوص المجدول يحملونها على رءوسهم المعممة بطاقية صغيرة ملفوفة بالشاش الأبيض عدة مرات، والأفندية بالجاكتات الطويلة والبنطلونات الضيقة فى آخر الرجلين، وكانوا جميعًا يجعلون العالم مكانًا غنيًا ومتقلب الألوان، مخيفًا إلى حد ما، وجذابًا أيضًا.

كانت بيت أم توتو من دورين، ولكنه عال، يحسه دائمًا مغلقًا على سره، منيعًا، متين الحجر، نوافذه كبيرة خضراء، وله سور صغير من الحديد المشغول يحيط بجنينة صغيرة مزروعة بعناية، فيها شجر نبق ملتف الفروع وارف، غليظ الخشب، وشجرة موز واحدة، قصيرة، أوراقها عريضة، غضرة، سميكة، ومشققة مشعثة عند حوافها المصفرة.

وكان أما البيت دكان جزارة كله مبلط بالقيشانى، الجدران والأرض تلمع، وأنصاف العجول والذبائح الأخرى مشقوقة، مفتوحة البطون، بأقفاصها العظمية الداخلية الفاتحة الأحمرار، معلقة بخطاطيف أمام الباب تحت اليافطة الزجاجية السوداء المكتوب عليها بخط ثلث ذهبى فخم طويل الحروف، وكان قد تعلم القراءة وربط الحروف، وقرأ: جزارة محمد محمود البهنساوى.

وكانت أمه هى الوحيدة من بين خالاته التى تزور أم توتو وتحبها، ويحس كأن بينهما نوعًا من الفهم، ويتحدثان معًا طويلاً، بهمس، بينما يذهب إلى غرفة توتو الصغيرة التى تكبره قليلاً فى السن وفى الجسم، ويناديها باسمها الأصلى كاترينا؛ لأنه كان يحب مدرِّسته مس كاترين، فتضحك البنت، وتعطيه ليأكل البرقوق المسكر المجفف الذى يستطعمه بلذة، يستمرئ جسمه اللين المتغضن، المحمر الملتف على نواته الصلبة، الغارق فى عسله الداخلى الناشف.

كانت أمه تتركه أحيانًا، بعد ظهريات بأكملها، عند أم توتو وتذهب لزيارة حبايبها أم فلة، أو أم اليس، ولا تعود إلا عندما يهبط الليل.

لماذا ذهبت أنا يومها إلى بيت أم توتو؟

قالت لى ستى أماليا بصوت غضوب ومكبوح: رح انده خالك يونان من عند اللى تتقرص فى بطنها أم توتو الجريجية. قل له يجى لى عايزاه.

فتحت لى أم توتو الباب، وأزاحت الستارة الكروشيه المخرمة التى تنسدل عليه مباشرة، من جوه، أحسست خفة جسم الستارة علىَّ واهتزازها، ونسيت غضبى من ستى عندما انحنت على أم توتو، بوجهها الأبيض الرفيع الدقيق الملامح وقبلتنى فى فمى قبلة خفيفة، بحركة ألفة وحنان بسيط خالص كما تفعل دائمًا، كما لا تقبلنى أمى أبدًا، وملأت صدرى بعبق عطرها النافذ ورائحة

جسمها النظيف والبودرة التى لم أكن أشم فوحها الخاص إلا عندها.

قلت لأم توتو: عايز يونان فى كلمة.

قالت لى، حانية: عاوز تقول له إيه يا حبيبى؟

وكان فى نبرتها أهون إيحاءات لهجة الجريج. كانت بنت بلد تقريبًا فى كلامها، ولكن برقة خاصة، واقل تخفيف للأصوات الحادة.

قالت لها، خجلاً: عايزه فى كلمة سر.

فابتسمت بعذوبة، وتسليم.

خرج خالى يونان من غرفة داخلية أقفل بابها وراءه، وجاء إلى الفسحة وهو بالقميص الحرير المخطط بأقلام زرقاء رفيعة، من غير ياقة، والبنطلون الذى له حمالات أستك طويلة، وفى يده جاكتته، وكان فارع القامة، خطواته هادئة بطيئة الوقع، وسيم السمرة، شامخ الوجه، ومال براسه قليلاً إلىَّ يسمع ما علىَّ أن أقول، وأجاب فى غير تعجل ولا سخرية ولا غضب: أوامرك يا سيدى. حاضر. عينى، بس كده.. طب أقعد أنت هنا عند خالتك أم توتو.

وقال لها بصوت كأنه فيه شبهة ابتسام: هاتى لى الياقة والكرافتة من جوه. أخطف رجلى أشوف عايزين إيه وأرجع حالاً.

ووضع الياقة المدورة الصلبة البيضاء حول عنقه، وزررها بدبوس صغير لامع، ولف الكرافتة.

وكنت أعرف أن ما بينهما شيء خفى أحبه ويشوقنى ويسحرنى.

كان واضحًا أنها أيضًا تستعد للخروج، فأومأت له، وقالت إنها ستنتظره على كل حال.

كانت فى عز ازدهارها، نحيلة الوجه، رقيقة الجسم، فى عينيها دائمًا نظرة مطاردة، متوسلة وتوشك أن تكون مقهورة، ولكنها جذابة، نسوية جدًا، مطالبة، وانحناءة حاجبيها عليهما غير واسعة، وخطهما ملىء وناعم التقويس وكان شعرها الصغير «ألا جارسون» مفروقًا على اليمين، عقصت خصلة منه على هيئة كعكة صغيرة على أذنها اليمنى، كان لونه بنيًا ذهبيًا داكنًا بحيوية غضة. شفتاها مرهفتان سريعتان إلى الارتعاش، وأنفها مستقيم طويل كان بياض وجهها مشوبًا بخمرية صافية شفافة، وكان نهداها صغيرين مخروطين، تحت فستانها الأحمر الغريب الذى لم أستطع أن أرفع عنه عينى.

كان النصف العلوى من فستانها من نسيج خفيف هفهاف، واسع الفتحة عند أعلى الصدر وبينما كماه الواسعان يشفان عن ذراعيها البيضاوين، لحمها البض قليل ومتماسك وممشوق وقد اكتسب حمرة خفيفة من لون النسيج الشفاف، كان الصدر من قماش حريرى، من اللون نفسه ولكنه «ساتان» لامع غير شفاف، ينزل كالحرملة على صدرها بنقوش رقيقة تنتهى هذه الحرملة فوق الركبتين بقليل، ليبدأ تحتها النسيج الشفاف مرة أخرى، مبطنًا بالقماش السادة اللماع حتى منتصف الرجلين. وكان جوربها تحته

حريرًا وسميكًا يستدير حول أسفل الساقين بضمة متينة، وحذاؤها من الشامواه الأحمر بثلاثة شرائط جلدية فوق أعلى القدم تنتهى بزراير صدفية مدورة، كعب عال وكبير، وكان على صدرها العارى المنبسط سلسلة ذهبية رقيقة جدًا تتدلى بصليب مشغول.

كنت أفكر أيامها أن توتو هى بنت خالى يونان، كنت أتصور أن أم توتو هى زوجته، بشكل ما، ولم أسأل.

ولما عاد خالى يونان بعد قليل، خرجا معًا، وركبا السيارة المربعة القوية التى كان يسوقها، وعرفت فيما بعد أنهما ذهبا إلى المصوراتى، وأن كلا منهما أخذ صورة لنفسه، وحده، وأنهما تبادلا الصورتين. ووقعت صورتها فى يدى بعد ذلك بسنوات طويلة فاحتفظت بها.

وجدت نفسى وحدى فى الفسحة الخالية المعتمة قليلاً، التى كانت تفتح على المطبخ مباشرة.

ومرة واحدة، وكأنما على فجاءة، فغمتنى روائح دافئة شهية من حبال التين والزبيب المعلقة من مسامير فوق نافذة المطبخ، تجف فى الشمس من وراء زجاج النافذة. وكانت برطمانات المربى البيتية، والفواكه المجففة المسكرة، على الرفوف، غارقة فى سوائلها الكثيفة داخل الزجاج البلورى المضلع الذى يمتص النور ويعكسه من جديد مشققًا، متكسرًا، وليس فى المطبخ ذبابة واحدة.

هبت نفحات غريبة باهتة الحلاوة، كأنها لم تكن هناك من قبل من أزهار كبيرة بيضاء، عروقها طرية وقوية تبتل فى الماء الصافى

الذى ثبت كأنه جامد وشفاف، فى «فازة» زرقاء رقيقة الزجاج، بطنها الكبير المدور عليه رسوم تنانين حمراء وصفراء ذهبية ملتوية الذيول، ألسنتها طويلة رفيعة مشقوقة نصفين منطلقة بقوة من أفواهها الجميلة المفتوحة، ونفث رائحة المفرش القديم الباهت الخضرة، الدسم الملمس، شراريبه المنقوشة الكثيرة متلاصقة تهتز حول رخامة المائدة المدورة، وأرجل المائدة الخشبية لامعة ومشغولة وتنتهى بما يشبه أقدام الأسد، مقوسة المخالب. وسحرتنى مرة أخرى، كما تسحرنى دائمًا، القوقعة. بيضاء هائلة الشكل رابضة تحت «الفازة» الكبيرة حلزونية وملتفة بنعومة، وفى آخر دوراتها المتراكبة التى تضيق بالتدريج، طرف مدبب طويل، لبنى اللون والجلد الداخلى فى القوقعة أملس محمر حولها شقيقاتها، قواقع أصغر، سطحها الخارجى بياضه محبب وأكثر خشونة.

جريت، كأننى أفر، أبحث عن توتو فى غرفتها الصغيرة الضيقة التى لم يكن لها نافذة، وحيطانها من الأرض للسقف مغطاة بورق أصفر باهت وله لمعة معًا، وفيه نقوش وزهور حمراء دقيقة جدًا، أوراقها محددة جدًا، خطوطها القاطعة المسننة بلون أكثر حمرة من أجسام وريقات الزهور. وكانت توتو تلازم هذه الغرفة لا تكاد تبرحها. وجدتها تذاكر على مكتب صغير مسند إلى الحائط، فوثبت وجلست على سريرها أنظر إليها وهى تكتب دروسها بالحروف اليونانية الغريبة على كراسة ورقها فيه مربعات خطوطها طفيفة جدًا. أصابعها الصغيرة البيضاء تلتف بعنق الريشة المسحوب، ورأيت على أطراف أناملها بقع حبر بنفسجى اللون.

كانت توتو، على عكس أمها، مدورة الوجه باستدارة كاملة وطازجة الخدين، عيناها واسعتان فى خضرتهما نقط صفراء ثاقبة متوهجة كإبر من النور، وصموتًا جدًا لا تتكلم إلا نادرًا، ولم أرها تلعب أبدًا.

قالت توتو: تعال نطلع عند تيتة.

فأومأت برأسى، ووثبت نازلاً من السرير واندفعنا نجرى نسابق أحدنا الآخر على السلالم الحمراء الرخامية الباهرة النظافة، إلى الدور الثانى.

وما إن فتحت جدتها الباب حتى انقلبت الدنيا، أمسكت بيد توتو بشدة، بينما تواثبت حولنا القطط، لا عدد لها، سمينة وجافة القد، سوداء حالكة وخضراء رقطاء، صغيرة واهنة زاحفة، وشاحبة البياض، تموء وتصىء، وقوية متواثبة تزمجر وتفح، مقشعرة، وصفرتها حريرية ناصعة، تقرقر وتهر مريرية زاكية تزوم، وعيونها تتقد، وتركب بعضها بعضًا، وكأنها، كلها، ستهاجمنا بضراوة. والجدة القليلة الجسم، ملفوفة بـ «روب» حريرى قديم سابغ عليها تصوصو بصوت رفيع حاد، آمر وحنون فى الوقت نفسه، ممطوط وأغن ولا أفهمه، حتى تفىء القطط إلى هدوء نسبى، وتأوى إلى أماكنها المختلفة فى شتى أرجاء البيت، تظل توتو تتحدث إلى جدتها باليونانية، بينما رائحة القطط الحيوانية التى تملأ البيت تفغمنى، وكأننى أستطعم على لسانى كثافتها وخصوبتها. ثم ذهبت تيتة، تتدأدأ فى مشيتها بخطواتها الصغيرة، وجاءت ببلح مقشور مصفى من النوى غارق فى عسله ومحشو بالجوز وبالبندق، وأعطت

أصابعها الرقيقة الشفافة، عليها عسل مربى البلح، إلى قطة صغيرة جدًا أخذت تلحسها بنهم وإصرار وهى تصىء.

عندما فتحت توتو باب شقتهم كان الظلام يوشك أن يهبط، والفسحة غامضة وكثيفة بروائحها العبقة الراكدة. أوقدت توتو مصباح الجاز الكبير الأبيض البطن، بعود كبريت جاءت به من المطبخ، فى العتمة، وأنا مسمر جنب الباب، واجف القلب. شدت توتو دلاية كالكمثرى فى نهاية سلسلة نحاسية مربوطة بالمصباح، ورفعت زجاجته الشفافة بحرص، وأشعلت الفتيلة بينما هى تمسك بالدلاية طوال الوقت. ردت الزجاجة إلى مكانها، ثم تركت الدلاية فجأة فارتفع المصباح من تلقائه، وفرت السلسلة النحاسية منسابة من خلال حلقة مثبتة فى السقف ولها صوت متتابع. سطع النور فى الفسحة، وظهرت نقوش الملائكة والطيور المرفرفة المخرمة فى الستائر الكروشيه المسدلة على النوافذ وعلى الباب، و«الفوتيات» القطيفة الخضراء المتموجة اللمعة. قفزت إلى «فوتى» كبير منها فغاص بى، وهو يقاومنى قليلاً بتجيده الطيع والقوى.

جاءت توتو، دون تردد، وجلست معى فى «الفوتيى» العريض. وأحسست جسمها يلتصق بى. استدارت إلىَّ ونظرت إلىَّ طويلاً وقلت لنفسى إنها عزيزة علىَّ جدًا وفجأة عانقتنى. أحست ذراعيها العاريتين، رفيعتين وقصيرتين، حول عنقى، تحبسان وجهى، وأحست صدرها الطفل يهتز. وضعت رأسها خلف وجهى ملتصقًا به، وأحسستها تبكى، بصمت وإصرار، كأنها لن تفرغ أبدًا، وترفرف بين ذراعى. كنت أحيط خصرها، وكأننى ألجأ إليها، منها، لا أقول شيئًا وكأننى أقول إن بكاءها يهد العالم علىَّ. حتى سكتت فجأة،

واستراحت. عرفت، بعد ذلك بثلاث أربع سنين، عندما تزوج خالى يونان فعلاً، أن أم توتو كانت قد تزوجت، من زمان بالجزار الذى كنت أرى محله أمام بيتها، وأراه يقف فى المحل المبلط كله بالقيشانى، ساعداه المفتولان قد شمر عنهما، قويًا، وصدره صخرى تنفتح عنه تقويرة الصدارى اللامع الكثير الأزرار المحبوك يبدو من الشق الطويل فى أعلى جلابيته الواسعة التى جفت عليها نقط الدم المتناثرة، أنه طلقها بعد أن خلفت كاترينا التى كنا نقول لها توتو. وسمعت خالتى وديدة تحكى لامرأة لم أكن أعرفها، وهى لا تعرف أننى على مسمع، أن الجريجية المقروصة أم توتو كانت لايفة على أخويا يونان، كانت عايزة تلهفه ياختى، وكانت حاتجيبه على ملا وشه لكن برضو هو كل الطير اللى يتأكل لحمه؟ أخويا يونان ملو هدومه، ما يضحكش عليه بالساهل. أهو رماها زى الكلبة، واتجوز إستر. وغضبت جدًا فى قلبى لأننى لم أصدق أن أم توتو كان تضحك على خالى يونان وكنت أعرف أنها تحبه، كما تحبنى.

وعندما كنا فى كليوباترا، وكنت قد تخرجت من الهندسة، وذهبت إلى معتقلات أبى قير وهايكستب والطور وخرجت منها، وكنت أشتغل مهندس ترميم فى المتحف اليونانى الرومانى بمرتب قدره اثنا عشر جنيهًا أعول بها نفسى وأمى وأخواتى الأربع ولم اكن أقرأ الصحف. وبينما كنت فى المتحف، مهمومًا بالشغل ذات يوم سمعت إشاعة أن الجيش فى القاهرة قام بحركة ضد الملك، وأن الدبابات فى الكورنيش، ولم أهتم يومها كثيرًا بأخطر حدث فى تاريخنا لفترة طويلة، ولكننى عندما طرد الملك من إسكندرية نزلت

فى الشوارع مع صاحبى عبد القادر نصر الله وشربنا العرقسوس الذى كان يوزعه البائع عند كوم الدكة مجانًا، وابتهاجًا وتيمنًا بالخلاص. وكنت أحب أيامها حبًا لا أعرف كيف الخلاص منه ولا كيف الخلوص إليه. وفى آخر المساء عدت إلى بيتنا وكلى قلق وفرح وتوفز، وطرق باب شقتنا، ودخلت امرأة جميلة ممتلئة مدورة الجسم، بيضاء غزيرة الشعر، فى فستان فقير الشكل تحمل على ذراعها طفلة فى الثانية، وراعتنى عيناها الخضراوان كأنهما وحشيتان من ضغط القهر، كحيوان. ولم أعرفها، وسلمت علىَّ بيد أحسستها مليئة مرتخية كأنها لا تعرفنى، وعندما جاءت أمى إلى الباب رحبت بها وأخذتها فى حضنها وقالت لها: أهلاً يا توتو يا بنتى أهلاً بيك، اتفضلى، ازيك يا ضنايا، ازيك يا ريحة الحبايب. تدهور قلى وامتلأ وجهى بالدم، وجلست المرأة الغريبة، مهدودة ومستكينة، وعرفت أنها تزوجت من عامل فى «الفابريكة» اسمه حسن، وأنه كان حشاشًا ومتلافًا وأنه طلقها بعد أن خلفت ابنتها وأن اسم ابنتها فتحية وأن أمها ماتت من زمان طويل وأنها تشتغل الآن بياعة فى هانو وليس لها أحد فى الدنيا وكنت جريحًا، وأدركت، متأخرًا جدًا، ومن غير جدوى، مدى قسوة بكاء الطفلة التى كانت، على كتفى، وأن هذه الطفلة لم تندثر ولن يجف بكاؤها أبدًا.

تزوج خالى يونان وجاءت امرأة خالى إستر إلى بيتنا الذى رأيت شرفته مرة تسقط فى ليل الحلم مليئة بالناس لا صوت لهم، أمام مدرسة البنات الداخلية، وإلى جانبها وابور الطحين.

كانت البنات ينمن فى الدور الثالث من المدرسة، أعلى من بيتنا. كانت أنوار المدرسة تطفأ فى تمام الساعة التاسعة بالليل، وتصمت الأصوات القليلة المضطربة بعد ذلك، وأصداء ضحكات البنات،ويحل الظلام فى المدرسة، وأرى فى نور الفاز المتشعع من عمود الشارع، تكعيبة العنب فى حديقة المدرسة، أخشابها واضحة معرقة وسط دغلات أوراقها الكثيفة، وطبقة تراب خفيفة فى النور، على أغصان شجر التوت والنبق الوارفة وكنت أرى البنات أحيانًا، فى أول الصبح، عندما أرفع بصرى من شرفة بيتنا، وهن يخطفن أمام النوافذ المفتوحة، فى قمصان نومهن الخفيفة الملونة، وشعرهن مبلول ومفكوك، ثم يختفين.

كانت امرأة خالى عروسًا جديدة، ولم تخلف بعد، وافرة الجسم، تضحك كثيرًا ودافئة الصوت، وكلها معابثة وشيطنة وجرأة حسية بالكلام والإشارات والنظرات، وجهها كامل الاستدارة وخمرى جدًا، عيناها مليئتان، وحاجباها رفيعان جدًا كقوسين، على جفنين متخمرين قليلاً وكنت أهرب إليها إذا ضربتنى أمى، فتحضنى وتلاعبنى وتمسح دموعى فى ذيل فستانها وتقول لأمى: هو الملاك ده برضو له ضرب ياختى! وفى مرة نسيت أن أقفل باب الحمام ورائى، وانفتح الباب فجأة عندما استدرت مفزوعًا رأيتها على الباب تسدل فستانها على فخذيها المكتنزتين السمراوين بدون اهتمام، وضحكت بصوت عال وهى تصفق بيديها وعيناها مرحتان لامعتان: هيه.. وشفت الحمامة..! وبعد أن كدت أموت من الخجل ضحكت أنا أيضًا وكان ذلك بدون أهمية ولكنه كان سرًا بيننا.

كان خالى يونان قد حصل على رخصة دولية وسافر إلى إنجلترا مع خالى ناثان يجربان حظهما، وكان يشتغل هناك سائق لورى بالليل، والتحق بمدرسة نقابية بعد الظهر، وعاد واشترى سيارة أجرى مربعة الشكل يسوقها ويكسب ذهبًا، وكان فخورًا بعمله، وانتخب رئيسًا لنقابة سواقى الملاكى والتاكسى والأتوبيس، وكان وفديًا عندئذ ثم أصبح صديقًا للبرنس عباس حليم وعمل معه، وكان البرنس شخصيًا يزوره فى النقابة ويخرج معه، فى التاكسى، وهو يجلس بجانبه، وكان عندئذ قد رافق أم توتو، ثم تركها، وكان أنيقًا وله مهابة فى البيت، ويجيد الكلام ويعرف اللغة الإنجليزية وسافر مرة إلى جنيف ليحضر مؤتمرًا عماليًا دوليًا. وسمعت جدى ساويرس مرة يقول إنه ابنه يونان « خطيب يخلب لب السامعين» بينما ناثان قصير ومكير وخباص ولكن قلبه كالحليب، أما سوريال أصغر أخوالى فقال عنه إنه حشاش ولكنه ابن حلال وابن صنعة ويده تصوغ الذهب من الخشب.

كنا فى أول الصيف، وكانت الشهادة قد جاءت بالبريد أننى انتقلت إلى السنة الثانية فى مدرسة النيل الابتدائية، وفى الصبح رأيت البنات وأمهاتهن وآباءهن يتزاحمن حول قوائم الناجحات التى علقت على لوحات كبيرة داخل باب المدرسة الحديدى، أمام تكعيبة العنب، وكان الفراشون يحومون حول البنات وآبائهن يتهافتون عليهم بالتبريك والدعوات ويلتقطون الأرزاق التى تدس فى أيديهم، ثم انحسر الاضطراب، وصعدت البنات إلى الدور الثالث استعدادًا

للإجازة الصيفية وكنت أرى النوافذ مفتوحة على السراير وقمصان البنات البيضاء مفتوحة قليلاً على صدورهن من الحر.

وفى العصر كان الهواء قد ضعفت حرارته، والنور فى الشارع ناعمًا والشمس صفراء، وكان السحاب الأبيض الجامح فى السماء بطانته تحمر قليلاً وهى تنزلق وتتقلب بسرعة فى زرقة الصحو الصافية. وكنت أقف وحدى فى شرفة بيتنا، أحلم بغموض، وأنظر إلى الكركون على جنب بعيدًا وراء دوران الترام، والحجر فى حيطانه أسود ومضلع وكثيف، وأمامه الشجر الذى تهتز أغصانه الثقيلة والحمم الذى كان يهدل ويشقشق بشدوه المكتوم الرتيب طوال الظهر من الحر، وقد صممت أخيرًا. وكان الشارع خاليًا، نظيفًا، أرضه باهتة السواد، والعالم كله هادئ تمامًا.

التفت فجأة إلى مدرسة البنات، أمامى، فرأيتها وهى تلقى بنفسها من النافذة فى نور آخر النهار. كان جسمها خفيفًا يتقلب فى الهواء كأنها تطير وهى تسقط، جونلتها الزرقاء الداكنة تنحسر عن رجلين تضطربان وتصطدمان كأنهما بلا وزن، وكانت صامتة.

سمعت خبطة الجسم فى تكعيبة العنب صدمة جافة، ولها فرقعة مكتومة، وخشخشة الورق، والاحتكاك الصلب، بينما الجسم يثب إلى أعلى وثبة صغيرة من رجع الصدمة، ثم ينقلب ويسقط على بلاط الممر بصوت ارتطام مسدود، نهائى، كومة مهتدلة، ذراعاها ملتويتان تحت رأسها، كأنها بلا عظام.

فزع الحمام الذى كان يأوى إلى وكناته الخفية وسط الشجر وطار يرفرف بأجنحته الطويلة التى مستها حمرة الغروب فاشتعلت، فى السماء.

وسمعت على الفور صوت القيء، تشنجات متقبضة ثم انفجار متحشرج والجسم يهتز على الأرض، الرأس الملتصق بالبلاط يندفع منه سائل لزج ثقيل محمر الرغوة.

ثم الصمت.

لحظة واحدة من الصمت الكامل، التام.

هل كانت صرختى القصيرة، لم أسمعها، هى التى أتت بخالتى سارة وخالتى وديدة وامراة خالى إستر، كلهن، يجرين إلىّ، أم صرخات البنات التى ارتفعت، مروعة، ونداءات المشرفة والفراشين الذين أخذوا يخرجون متلاحقين من باب المدرسة الداخلى.؟

كانت على الباب لمة صغيرة من الناس، جاءت عربة الإسعاف بجرسها المجلجل، ودخل المتطوعان، بالكاب الأحمر والحلة الصفراء، وحملاها على نقالة وأدخلاها فى جوف السيارة التى انطلقت ودقات الجرس السريعة تصلصل بإلحاح.

لم أترك الشرفة، ولم أتعش، أين كانت أمى، وخالتى وديدة وستى أماليا؟

عندما تقدم الليل كانت قريباتى كلهن جالسات على حصيرة فى الشرفة، وكنت ملتصقًا بحديد سورها، وكان قلبى موحشًا وعيناى مغلقتين.

نادتنى امرأة خالى إستر، من بينهن جميعًا، كان شعرها فى الليل عاريًا وقصيرًا وغامض السواد، ووجهها المدور الأسيل السمرة صافيًا فى نور الليل الصافى، وكانت عيناها النجلاوان منتفختين قليلاً، وتومضان.

وقالت لى فجأة، بلهفة، يا ضنايا.. مالك؟ تعال... تعال نم على حجرى هنا.

وضعت رأسى بين فخذيها الطريتين الممتلئتين، وكانت ناعمة تحت وجهى، ودافئة، ونفح جسمها الأنثوى حميمًا، ونزلت بيدها الرخصة فضغطت على وجهى، بحنو ورفق، على حجرها، ونمت.

فى آخر أيامه الستة، فى غسق القاهرة الفاطمية، وفى غسق العشق الأخير قال لها: عندئذ، كان هذا الطفل، فى السابعة من عمره، قد عرفك، ونام فى حنو جسدك.

قالت له: كانت طفولتك مدللة.

قال: كان الموت فيها كثيرًا.

واحدة حمامتى، كاملة مشتعلة بين العناقيد والحسك، طالعة أبدًا من ساحة قلبى كعمود دخان معطر بالمر واللبان، لا تهب زعازع الزمن الهوج بنشرها العبق، نارها سوداء ومتقدة لا تنطفئ.

الزيد على أصابعك السمراء المكتنزة ناصع كرغوة البحر فى موجته التاسعة والأخيرة.

وما زال شعرك الوحف الوحى السواد غدائره تتنزى ثم تثوى تحت يدى اللتين تمسدان جعودته وتروضان رعونة حرشته.

رأس الميم المسكور المدور على ذاته فلك مغلق بمخر الموج بلا مرسى، وكان الأرض تتشقق غدًا وتمور تحت طوفان البحر الغضوب.

ملائكة الجحيم تحوم بى وهزيم الملأ الأسمى فى سماء طامية يزمزم بحدمة الغلمة وجمجمة الرمضاء أوأم حومانى له طعم الرُغام فى فمى اليم الخضم يموج بدوامات من غرام حمياى إلى حرمك. ميمى ممدودة إليك بجسم منهمر ونعمتى فيك موصولة بالميمين. رمال مهامه المضض ترتمض جمرًا وحممًا، وبى لم من غمرات التيم التى تتمعج فى مكامنى.

ها أنت تميطين لى الغيام عن ميعة جسمك وترمقينني، وامقة، بسهام نجمتيك الخمر المزة إذ تلاثميننى مضمخة بمتاع ملكوت النعمة المحض. فى قوامك الشامخ الأملود عصمتى ومنعتى. وإذا جلاميد مخمصتى رسوم طامسة، وحطام الشموس تهمى، وجهومة أيامى المهدمة فى العتمة المدلهمة قد مضت. المسوخ الكظيمة الماثلة دومًا قد مالت ثم انحطمت فإذا هى هشيم. والأمشاج الممزعة قد التأمت بمعجزتك يا رءوم. مهاد لحمك الهضيم تميس فى نسائم الرحمة. وقمر محياك كامل ليس فيه ثلمة.

جماحى إليك شماسى مستميت مقتحم فى معمعات المحبة. ومهجتى مزع ممزقة بين أناملك. أمس حلمة أكميتك الدمثة وينهمل

مطر الديمة على رمانتيك أتسنم عمدان آجامك من المرمر الرخيم، والرمح يميد فى دمنتك.

تعازيم هيامى مسداة إليك، حتى شموع موتى.

يا حمامتى المضطرمة..

ألم تصغى لمتيم يحبك لحمه ودمه؟

ألا ترين رفرفة الملاك الأسود الذى يراه؟

فى عماية الموات الدامسة انزاح الحجر عن فم القبر وصعدت إلى السماء العُلى.

ذهبت مع أبى، بعدها إلى شغلة فى مغازة الشيخ شاهين المراغى، فى شارع أنسطاسى. أراد أن يحتفل بى، فأخذنى إلى المصوراتى الذى كان فى شارع السبع بنات.

كانت «المغازة» مخزنًا ومحلاً ومكتبًا لبيع وشراء البيض والبصل والسمن البلدى، وتوريدها للخواجات والمصدرين أو لتجار الجملة من أولاد البلد، وكنت أعرف أن تجارة أبى قد كسدت، وأنه باعها للشيخ شاهين المراغى ودخل معه شريكًا بالعمل بثلث الأرباح، وكنت أتصور أنهم فى آخر كل شهر يجمعون النقود الفضة والمعدن ريالات وأنصاف ريالات وأنصاف فرنكات وقروش وملاليم، ويقسمونها ثلاثة أقسام يأخذ أبى واحدًا منها، وأحس فى ذلك ظلمًا غير مفهوم.

كانت المغازة فسيحة ومعتمة ورطبة وأرضها من الأسفلت الأسود وفيها أعمدة حجرية عالية، ورأيت فيها ناسًا غامضين صامتين،

بملابس الشيالين الزرقاء وعممهم وطواقيهم، جالسين على خيش مفروش على الأرض، أذرعهم مرمية على ركبهم بتعب، بين أكوام مرصوصة من شوالات البصل لها عبق نفاذ مهاجم، وأقفاص البيض الأبيض يلمع وسط القش الذى تخرج أعواده الرفيعة كشوك هش من بين القضبان الخشبية وتذكرنى برائحة الفراخ. وفى آخر المغازة، فى الظلام، تومض صفائح السمن بعضها فوق بعض، شكلها ثقيل وثابت.

سلم علىّ الشيخ شاهين، كان له وجه مدور غنى داكن السمرة، وابتسم لى فغارت عيناه الصغيرتان اللامعتان مدفونتين إلى أعمق فى دسم ملامحه، وكانت على رأسه عمامة يلتف حولها شاش ناصع البياض حريرى الشكل له شراشيب رفيعة وراء أذنه، وسلم علىّ أيضًا ابنه الشاب الذى نظر إلىّ بلا مبالاة، وكان يلبس بدلة صوف إنجليزى مربعات، وكرافتة رفيعة جدًا مخروقة بإحكام فى الياقة البيضاء المنشاة، وعلى رأسه قبعة رمادية كالخواجات، يلفها شريط حريرى رمادى أيضًا. وقال لى الشيخ شاهين، ما شاء الله ربنا يطرح فيك البركة يابنى، وتأخذ الشهادة، ونبعتك بلاد الإنجليزى تكمل علامك زى أحمد أفندى ابنى كده.. ومرت فى ذهنى صور غامضة لبلاد باردة ينزل فيها الثلج كالمطر وفيها عساكر كثيرون على موتوسيكلات ونساؤها مثل أم توتو، ثيابهن قصيرة وشفافة وأجسامهن رقيقة ناعمة، ولكنى مع ذلك لم أصفح فى قلبى عن الشيخ شاهين ولا عن ابنه.

ولم يكن الشيخ شاهين يعرف القراءة، ولا الكتابة، وكان هذا يحيرنى جدًا وكان أبى هو الذى يكتب ويحسب، وكنت فخورًا به، وكان مكتب أبى كبيرًا، بجانب باب المغازة وعليه دفاتر الحسابات مرصوصة ومفتوحة ومجلدة بالأسود وفيها خطوط مموجة بالأزرق والأحمر على حواف الورق السميك وهى مقفلة، وسحرتنى مكنة. نسخ الخطابات والفواتير المكتوبة بالبالوظة البنفسجى، حديدها الغليظ المتين له يد تدار على قائم حلزونى الحلقات، فتنزل الحديدة العلوية المسطحة على الورق الشفاف المبلول بللاً خفيفًا، فوق ورق نشاف فاتح الحمرة، حتى تنطبق انطباقًا محكمًا على قاعدة المكنة الصلبة الراسخة، وعندما ترتفع الحديدة العلوية تظهر الصورة مقلوبة على الورق الخفيف المبلول.

تسللت ودخلت مكتب الشيخ شاهين، وكان نظيفًا جدًا وخاليًا وفيه رائحة تراب وهواء ومحبوس وله مهابة، وكان الصنف العلوى من بابه زجاجيًا محببًا مبيضًا وعليه اسم الشيخ شاهين أحمد المراغى، وتحته اسم أبى، وتحتهما تجار البيض والبصل والسمن البلدى بالجملة والقطاعى، كلها بالخط الثلث حروفه قائمة بكبرياء وشموخ، بالأسود والذهب، أقرؤها من الداخل مقلوبة على الزجاج المبيض، ونقلت اسم أبى على ورق أبيض، مرة معدولاً ومرة مقلوبًا، وأحسست تحت يدى لدونة الجوخة الخضراء على المكتب، مسمرة بمسامير صفراء غليظة على إطار خشبى لامع مموج وداكن يدور بأطراف المكتب الأربعة، وعندما خرجنا أخذت معى ظرفًا كبيرًا فيه

مجموعة من الفواتير والخطابات البيضاء عليها اسم أبى، واستخدمتها بعد ذلك فى كتابة الشعر، أيام الحرب.

فى محل المصوراتى دخلنا إلى الغرفة الداخلية الفسيحة المعتمة، وأضاء الرجل مصابيح كهربائية قوية كثيرة من عدة زوايا، وكان الهدوء ثقيلاً، ووقف أبى، بيده عصا الأبنوس ذات المقبض العاجى، وفمه مزموم ونظرته متأملة وعميقة وصافية جداً، ورفعنى المصوراتى وأجلسنى على مائدة عالية صغيرة بجانب أبى. وكنت ألبس قميصى الحرير الأبيض الواسع الياقة والبنطلون القطيفة الأسود الذى له حمالات فيها زراير بيضاء كبيرة، وحذائى الأبيض الجديد الذى له نعل مطاطى رمادى يغوص قليلاً تحت قدمى عندما أمشى، وجوربى الأسود المرفوع مضموم على ساقى وحده ليس فيه أستك، ووضعت يداً على يد، وكان شعرى ناعمًا ومفروقًا، وقال لى المصوراتى أن أنظر فى عين الكاميرا الكبيرة المعدنية المحدبة التى كانت تومض فى الأنوار القوية، وكنت مستقرًا فى فراغ الهواء العالى وآمنًا، وأحسست نفسى بعيداً جداً عن الأرض ولم أكن أخشى السقوط ولم أكن أخاف من الموت وكنت أرى رفرفة البنت التى تسقط، وهى تطير، ولا تصل أبدًا إلى تكعيبة العنب الكثة الشرسة تحتها. وكان المصوراتى يلبس جاكتة قماش سوداء خفيفة على قميص، ولها كم منفوخ مضموم على أعلى ذراعه بحلقة أستك سميكة، وأدخل رأسه تحت القماشة السوداء التى انسدلت خلف الكاميرا، ووقف بين القوائم الحديدية المثلثة، وسمعناه من تحت خيمته الداكنة يقول لنا بصوت مكتوم: كويس.. كويس.. بصوا لى

هنا فى عين المكنة على اليمين شوية.. كويس كده، واحد اتنين خليكوا كده من غير حركة.. وخرج بسرعة، وأزاح غطاء مدورًا من على فتحة العدسة ثم أعاده بصوت صفقة نهائية، وقال: مبروك.

ولما عدنا بالترام فى أول الليل، كان الميدان الصغير فى آخر شارع راغب باشا خاليا، وكان الدخاخنى، بمنصته الرخامية الرمادية الطويلة الخارجية فى الشارع، مغلقًا، ولكن السينما، التى بنيت فى عنبر صفيح عريض مثلث السقف وبوابتها شبكة حديدية جرارة، كانت منيرة بعقد طويل من المصابيح الكهربائية مدلى على الباب، ويضىء إعلانًا ملونًا فيه حصان أحمر يجرى عليه راعى بقر قبعته عريضة مستديرة زرقاء، باهتة على وجهه الناصع الزرقة، ويرفع سوطًا طويلاً فى الهواء، وكنت اتأمل الإعلانات الملونة المصورة على هذه السينما فى طريقى للمدرسة كل صباح، وأقرا عناوين الأفلام وأسماء الأبطال، وأتخيل أحداث الروايات طويلاً، وما يدور فيها، وأحلم كثيرًا بأن أدخل هذه السينما. ولم أدخلها أبدًا.

رأيت أننى أسير إلى كوم الدكة، وفى الطريق ذهبت إلى الجنينة الواسعة التى تقع على المحمودية والتى كنت أشترى منها، الآن وأنا صغير، الخس والجرجير والبصل الأخضر والكرات والملوخية والكرفس والمقدونس والخبيزى والفجل والسلق للقلقاس، وفى كل مرة أسير إليها متمهلاً، متأملاً أمر بسياج خشبى عال فيه ثغرات طويلة من الخشب، أضع عليها عينى ولا أكاد أرى وراء أسرار هذا المبنى الغامض البعيد الشاحب البياض، وله أعمدة مدورة وشبابيك

طويلة، ولا أكاد أرى حديقته الواسعة، معتمة بأشجار وارفة أثيثة الأغصان متشابكة وكأنها وحشية. وأقول لنفسى كم من الأسرار وراء كم من الأسوار حدستها ولم أعرفها أبدًا، وشد ما أحن إلى معرفتها، موقنًا أننى لن أعرفها أبدًا وأن الشوق سيظل مع ذلك أبدًا فى روحى، برعمًا خامًا مزدحمًا بعصارته الكثيفة وجائعًا إلى التفتق والازدهار.

ودخلت جنينة الخضار من باب خشبى مفتوح دائمًا مخلوع المفصلات، وأحسست بالأرض كاملة ترف بأنواع الخضرة منها القصير اليانعة والفارعة الطول، والداكنة الملتفة، والرقيقة المتكاثفة والمرهفة السنان كأنها شفافة، أمر على مدق ترابى ضيق من تحت تعريشة العنب المورقة القائمة على أعمدة من خشب التفت بها أغصان الكروم الملتوية ذات العقد الخشنة وأسمع الحمام يزقو ويهدل بترجيع رتيب الإيقاع، مختبئًا فى الشجر الكثيف الداكن الورق لا ينتهى إيقاع ترتيله وليس لشجوه انقضاء، وأنفذ من جانب البقرة التى تدور بالساقية فى وسط الجنينة، ببطء وإصرار، مغماة العينين، تجتر وينزل اللعاب من خطمها فى خيوط فضية طويلة، وأسير على المسقى الطويل التى يتسلسل فيها الماء من الساقية على القاع الرملى الطينى الصلب الفاتح اللون، ويترقرق، وتضوء الشمس على مويجاته المنسرية بخرير موسيقى تفتح أبواب القلب فى الهواء الطلق النقى العبق برائحة الخضر وروث البقر والسباخ البلدى والنعناع والريحان معًا.

خرج إلىَّ الفلاح القصير المدكوك الجسم من خصه الطينى الضيق كأنه يطلع من تحت الأرض. وجه مجدور وعميق الغضون ومحروق ويده قصيرة الأصابع خشنة، حش لى الخضار بمنجل صغير مقوس وحاد السن، وأحسست مدى رهافة حركته ورقتها وحنوها وكفاءتها فى وقت معًا، وأحسست أن فى جسم هذا الرجل جدى ساويرس وأبى وأولاد عمتى بقطر ورفلة، وأخوالى الثلاثة يونان وناثان وسوريال، وأن نظرتهم جميعًا معًا، فى عينيه الغائرتين الثاقبتين، وأننى لا أنفصل عنه ولا عنهم، وأن فى يديه تربة قلبى الملوثة الغمقة المعجونة بالطين لا تجف أبدًا، وأن هذه الجنينة هى بستان ألف ليلة وليلة المسحور الذى طالما التقى فيه المحبون خفية، وعرفوا ـ كما عرفت ـ من فنون العشق ما لم يعرفه من قبل بشر.

ورأيت أننى صعدت إلى أعلى تلة كوم الدكة القديمة، وقد جلا عنه الجنود الإنجليز سرًا فى الليل. ولأول مرة منذ وعيت لم يكن اليونيون جاك يرفرف على ذروة التلة، وكنت أعرف مع ذلك بغموض أن كوم الدكة القديم قد أزيل وحلت محله ساحة مسفلتة ومبان حكومية، وأننا كنا ننطلق فى جماهيرنا الغفيرة، منذ الصباح الباكر، نرتفع على طرقات كوم الدكة الخالية التى كانت محرمة علينا وقد أصبحت فى هذا الصبح حلالاً، جماعات جماعات، أصوات هتافاتنا مبحوحة فى الهواء النقى: الجلاء الجلاء يسقط الاستعمار يسقط الاستغلال. وكانت عنابر الجنود الإنجليز خاوية على عروشها، ولم يتحرك الجيش المرابط لاحتلالها بعد، ودخلناها ورنت أصداء أحذيتنا فى فراغ حيطانها، وكان بلاط أرضها متربًا

قليلاً وعليه قصاصات ورق ممزق وبقايا القش، وكان اليوم عيدًا، وجماعات المتظاهرين كأنهم يرقصون رقصات جماعية، يشورون ويهتفون وينشدون من الفرح.

وكانت الأشجار المشذبة على جانبى الممرات الترابية كأنها رءوس من الأغصان كثيفة جعدة منذرة ومهددة وشرسة، وعندما طوفنا بكل أنحاء القلعة المهجورة الموحشة، ونزلنا، وجدنا جنود بلوك النظام صفوفًا متراصة تحت سفح كوم الدكة، وفى أيديهم دروعهم الخشبية الخضراء القاتمة، على رءوسهم خوذات حديدية صدئة، ركبهم مدورة سوداء بارزة تحت «الشورتات الكاكى» الطويلة، وشرائط «الألشين» تلتف بسيقانهم النحيلة حتى تغيب تحت الأحذية الميرى الضخمة المتربة بجلدها الخشن المقبب، وانتظمت الجموع بقيادة صديقى عبد القادر نصر الله الذى كان ما زال فى كلية الطب بينما قد تخرجت سنتها فى كلية الهندسة، وكان قد انضم إلى جماعتنا الثورية الصغيرة. ورأيت على جانبى شارع النبى دانيال جثث الأطفال المرمية هامدة، حمراء لها قشرة لامعة، كأنها «جمبرى» مسلوق ضخم، أيديها وأرجلها ثلاثية الأصابع مبتورة ومتورمة ومدورة وحول رءوسها غلاف صدفى شفاف تحدق من وراء زجاجة عيونها المفتوحة المتهمة. وكانت المظاهرة تشق طريقها، مع ذلك، بحرص، بين صفى الجثث الطفلية تحاذر أن تمسها وعندما وصلنا إلى واجهة كأنها بوابة فندق منيف، ناطحة سحاب، الواحها، زجاجية مدخنة، شاسعة، تقطعها اعمدة الألمونيوم المصقولة، هجم جنود بلوك النظام فجأة دون إنذار، وسمعنا فى

الوقت نفسه قرقعات الرصاص فى الهواء كأنها غير جدية لا تحمل خطرًا، آتية من نوافذ البناية الزجاجية الشاهقة، ورأيت الناس يسقطون بصمت، مضروبين بالرصاص، وتمر عليهم الأقدام المتلاحقة، والناس قد انطلقت تجرى فى كل اتجاه، وكانت موجة الناس تصعد وتهبط، ورايت الأجسام التى أمسكت بها النار تلقى من النوافذ العالية، وتتقلب فى الهواء، وتسقط بعيدًا فى البحر، وكانت الرءوس تطفو فوق الأمواج مفتوحة الأفواه بصرخة لن تصمت أبدًا، ورأيت وجهها الذى أحبه، ويراودنى فى حلم مستمر، يسبح فى مياه حبى التى لا تغيض، ساطعًا بسمرته الخمرية وسط زبد الرءوس المتلاطم من غير صوت، وأحسست الطعنة فى قلبى من عينيها الواسعتين بموجها المخضر الشبح، وسقطت فى الغمر، ولما افقت كانت الطعنة مازالت تغوص فى عمقى، الذى ينصهر ويتقد ويفيض حممًا كالبحار الوحشية الجموح تنسكب متوهجة تئج باللظى وتغرق جسمى فى ضرام اللهب، وأحسست أجنحة الحمام المشتعل بوهيج النار ترفرف حولى وتصعد بى، فى زرقة السماء الصحو الناعمة، محترقًا من غير انتهاء.

الفهرس

منافذ بيع مكتبة الأسـرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

ت : سويتش ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

٥ ش الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

مكتبة ١٥ مايو

خلف مبنى جهاز مدينة ١٥ مايو - حلوان

ت : سويتش ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة ساقية

عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو من ابو الفدا

ت : ٢٧٣٦١١٧٨ - ٢٧٣٦٨٨٨١

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

الجيزة - بجوار كلية الإعلام بالحرم الجامعى

ت : ٢٥٧٢٩٥٨٤

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - الجيزة - محطة المساحة

ت : ٢٧٣٦١١٧٨ - ٢٧٣٦٨٨٨١

مكتبة أكاديمية الفنون

مبنى أكاديمية الفنون ش الهرم

ش جمال الدين الأفغانى

من ش محطة المساحة - الجيزة

ت : سويتش ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

الإسماعيلية : التمليك - المرحلة

الخامسة - عمارة ٦ مدخل (أ)

ت : ٠٦٤/٣٢٤٠٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

الإسماعيلية: مبنى الملحق الإدارى -

بكلية الزراعة - الجامعة الجديدة

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بورسعيد: بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٢

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٠

مكتبة المنيا

١٦ ش خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الأداب - جامعة المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٦٥٦

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - طنطا عمارة سينما امير

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان المحطة - المحلة

عمارة الضرائب سابقاً

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية ،جامعة منوف،

ت : ٠٤٨/٦٦١٣٣٤

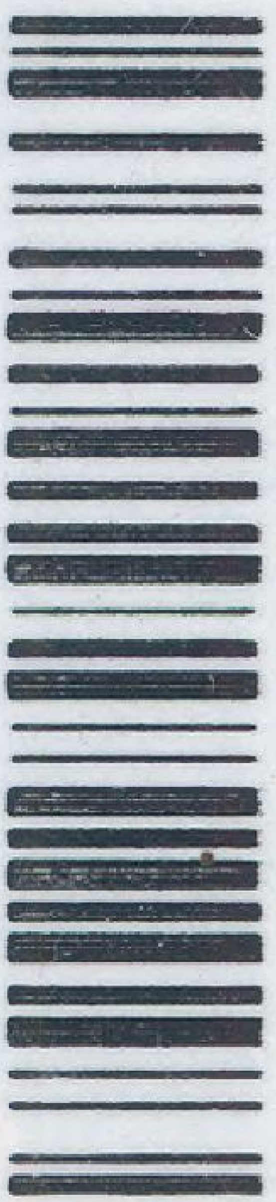
WWW. maktabetelosra. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس



ينعم الإنسان بشعور الألفة بينه وبين المجتمع الذي يحياه ويحيا فيه، حين يفتح أفقاً أمام الحاضر والمستقبل، باستيعابه المعلوم، وإدراكه المجهول، وحين يقرأ نفسه، ويقرأ الآخرين، فكل قراءة تجدد المعرفة تحررنا من العجز أمام المشكلات، وتمنحنا طاقة الإمكان على تحسين الحياة، بأن نوظف معارفنا لكل ما هو نافع ومفيد، فالمعرفة أهم وأغنى وأقوى ما يمكن أن نمتلكه في الحياة، ففي ظلها يزدهر عقل الإنسان، ووعيه المتجدد المتطور، فتتعدد لديه الإبداعات والإنجازات، وينتج الموارد والثروة، ويصنع القوة، وتتسع أمامه كل المجالات. إن من يحسن القراءة يحسن ممارسة الحياة. لذا، كانت وستظل دعوتي أن نقرأ للحاضر.. أن نقرأ للمستقبل.. أن نقرأ للحياة

سوزان مبارك





ISBN# 9789774204354



٢ جنيه



الهيئة المصرية العامة ل